مكتبة

THE SOUL OF MONEY

لين تويست



روح المال

الكتاب الذي تحتاجه
لتغيير أفكارك عن المال والحياة.





THE SOUL OF MONEY

روح المال





● العنوان الأ...
...r Inner
.

● العنوان الع...
تحتاجه لتغيير أفكارك عن المال والحياة.

● طُبِع بواسطة: W. W. Norton & Company

● طُبِع بواسطة: دبليو دبليو نورتون وشركاه

...حماده جاد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: سبتمبر / 2022م

● رقم الإيداع: 11138/2022م

● الترقيم الدولي: 978-977-6972-26-1



THE SOUL OF MONEY

لين تويست

ترجمة: إيمان سعودي



روح المال

الكتاب الذي تحتاجه
لتغيير أفكارك عن المال والحياة.



أهدي هذا الكتاب إلى أحفادي

آية وعيسى وإبراهيم

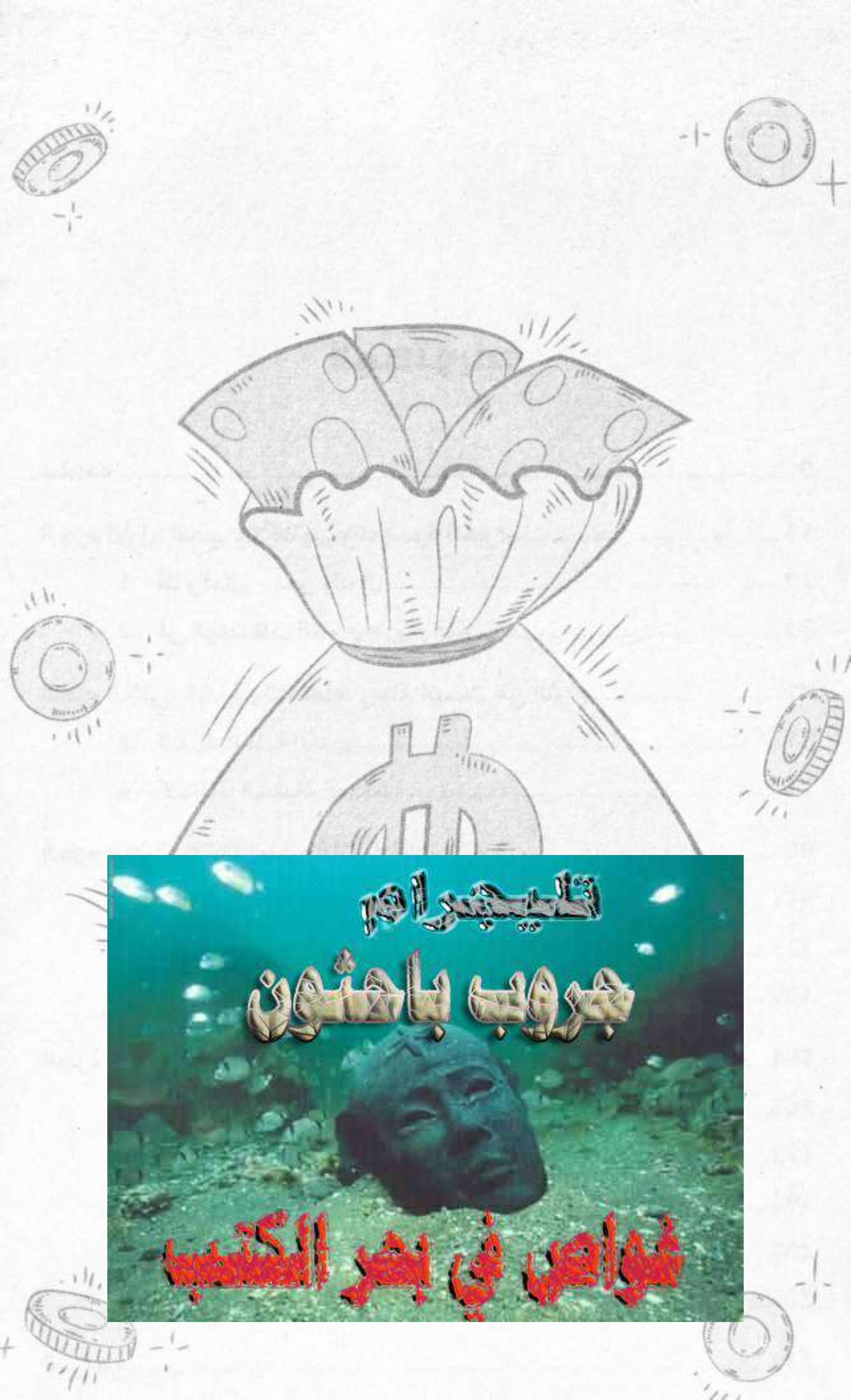
الذين يجسدون الجمال والحب، والإمكانية التي أراها في العالم.

لين تويست




هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون

المحتويات


قناة تيليجرام
جروب باحثون
غواص في بحر الكتب

مقدمة

يسعدني ويشرفني أن أرحب بك في طبعة عام 2017 من كتاب *روح المال*. عندما نُشِرَ هذا الكتاب لأول مرة، في سبتمبر من عام 2003، كان هدفي هو نشر فلسفة وخبرة قوية اكتسبتها في علاقتنا بالمال. ومع انتشار الرسالة حول العالم، كانت الاستجابة جارفة ومهولة بحق.

يحمل هذا الكتاب عنوان: «روح المال»، بيد أنه في الحقيقة يتحدث عن أرواحنا نحن، وكيف ولماذا نحجبها، أو ننحيها، أو نتنازل عنها في علاقتنا بالمال: كيف نكسب المال، نستخدم المال، نمنح المال، وكيف نحاول أحيانًا أن نتحاشى التفكير في المال. يدور هذا الكتاب حول إيجاد الحرية والحقيقة والفرح في علاقتنا بالمال، مهما كانت ظروفنا. ويدور حول فتح بوابة علاقتنا بالمال، واستخدامها لإحداث تحول واسع النطاق في جميع جوانب حياتنا. هذا الكتاب في نهاية المطاف هو بمكانة سبيل إلى الحرية الشخصية والمالية.

لست خبيرة اقتصادية أو مستشارة استثمارية. لم أنل درجات علمية في التمويل أو الأعمال. ولكن لدي علم وخبرة وفهم عميق ومميز للمال. أتت معرفتي بالمال عن طريق تجارب مباشرة وشخصية، خضتها على مدار خمسة عقود من العمل الخيري، وجمع مئات الملايين من الدولارات، وتولي القيادة في المبادرات العالمية الكبرى: للقضاء على الجوع في العالم، لحماية الغابات المطيرة، لتمكين السكان الأصليين، لتحسين الظروف الصحية والاقتصادية والسياسية للمرأة، وللنهوض بفهمنا العلمي للوعي البشري.

وقد أدخلني كل من هذه الالتزامات في شراكة مع حكماء ملهمين، يعملون في النقطة التي تلتقي عندها حياة من يملكون المال –ثروات كبيرة منه في

الغالب– حياة من يملكون القليل من المال، أو المُعدَمين. وقد عملنا معًا لتوجيه المال بشكل فعال تجاه حل بعض أكثر قضايا الكوكب إلحاحًا.

وفي أثناء انغماسي في هذا العالم التعاوني للعمل الخيري والمشاريع الإنسانية ورعاية البيئة، سافرت إلى مناطق نائية، وعملت مع ثقافات قديمة، حيث لم يظهر مفهوم المال على ساحتها إلا في الآونة الأخيرة. وبصفتي عضو مجلس أمناء ومستشارة، عملت مع بعض نشطاء العصر ومفكريه الرائدين لوضع استراتيجيات من شأنها أن تنشئ أسلوب حياة عادلًا ومزدهرًا ومستدامًا للجميع. وخلال خدمتي لتلك الالتزامات، كان لي امتياز العمل جنبًا إلى جنب وبالشراكة مع بعض من أفقر الناس على وجه الأرض. وبذلك أعني «فقراء الموارد»، الذين يعيشون في مناطق مثل: صحراء الساحل في شمال السنغال، وقرى الهند، والوادي المتصدع بإثيوبيا، وبلدان في أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي أجزاء من الولايات المتحدة؛ تلك المناطق التي يعيش بها الناس –بغض النظر عن مواهبهم الثقافية الغنية، أو حتى مواردهم الطبيعية القيمة– في ظروف قاسية يحكمها الجوع والفقر والظلم في كل يوم. وقد نلت أيضًا شرف العمل جنبًا إلى جنب وبالشراكة مع بعض من أكثر الأشخاص ثراءً –أو «أثرياء الموارد»– على هذا الكوكب، بمن فيهم أصحاب المليارات الذين يعيشون في البلدان الغنية، مثل: السويد، وفرنسا، وألمانيا، واليابان، وكندا، والمملكة المتحدة، وأستراليا، وبالطبع الولايات المتحدة.

في سياق المال هذا، انخرطت عميقًا في العديد من الثقافات، بطريقة مكنتني من رؤية الاختلافات، فضلًا على القواسم المشتركة المذهلة في علاقة البشر الأساسية بالمال، والطريقة التي تحكم بها هذه العلاقة حياتنا، وتهيمن عليها وتربكها. صرت أكثر وعيًا بالفرضيات القوية غير المدروسة حول المال والحياة، التي تعوقنا أو ترهقنا، أو تشوِّه مفهومنا الأساسي عن العالم، وعن بعضنا بعضًا. وشاهدت أيضًا القوة الشفائية الهائلة التي يحوزها حتى أصغر مبلغ من المال حينما نستخدمه للتعبير عن إنسانيتنا، أعلى مُثُلِنَا والتزاماتنا وقيمنا الأكثر روحانية. يبين كتاب *روح المال* كيفية تصويب علاقتنا بالمال، وإعادة توجيهها لتحويل العالم من حولنا، وخلق ظروف مواتية لازدهار ورفاهية مستدامين لا نظير لهما.

عندما نُشِرَ كتاب روح *المال* لأول مرة في خريف عام 2003، لم نكن واعين كمجتمع عالمي بأننا نتجه نحو انهيار مالي عالمي كارثي، وأزمة اقتصادية طويلة الأمد. كان الازدهار الظاهري في الفترة بين عامي 2005 و2007 ستارًا اختبأت خلفه الممارسات المتهورة، التي أدت إلى انفجار الفقاعات الإسكانية في الولايات المتحدة، والانهيار اللاحق للأسواق. شعر بعض الناس في ذلك الوقت بأن ثمة خطأً ما، لكن القوى المسيطرة –زخم المال الوفير والرغبة النهمة في *المزيد*– بدت غير قابلة للتوقف. وبعد أربعة أعوام، انهارت صناعة الإسكان والرهن العقاري في الولايات المتحدة، وأدت الشهور التي تلت إلى انهيار مالي عالمي، وإحدى أكثر الأزمات الاقتصادية تدميرًا في التاريخ الحديث.

في خضم هذا الفشل الذريع للنظام الاقتصادي، والمعتقدات التي جعلته شرسًا ومدمرًا، جاءت المبادئ الأساسية لكتاب روح *المال*، المتمثلة في مبدأيْ «الندرة» و«الاكتفاء» لتفرض نفسها بإلحاح شديد؛ فقد كشفت الأزمة المالية إلى حد كبير عن مخاطر ما أسميه: «كذبة الندرة»، العقلية التي تخبرنا بأننا لن نمتلك أبدًا ما يكفي، وتدفعنا إلى السعي جاهدين دون وضع اعتبار لأحد من أجل حيازة المزيد والمزيد.

وعلى العكس من ذلك، يأخذنا ما أسميه: «حقيقة الاكتفاء المدهشة» إلى مكان مختلف. إنها تذكي وعينا وتقديرنا لحالة «الكفاية»، وهي حالة ذهنية يتعمق ويتوسع ويزدهر فيها إحساسنا بهويتنا، وبما نملكه، وبثرائنا الداخلي الكامل. في سياق الاكتفاء، نعيد التواصل مع مواردنا الداخلية، بما فيها الإبداع، والتعاون، والالتزام، والشجاعة. عندما نضيف تلك الموارد إلى علاقتنا بالمال، نحقق ازدهارًا حقيقيًّا لأنفسنا وللآخرين.

منذ بدأت تأليف هذا الكتاب، تعمق واتسع عملي مع السكان الأصليين في منطقة الأمازون. اشتركت أنا وزوجي بيل في تأسيس «تحالف الباتشاماما» لتمكينهم من تطوير علاقتهم مع العالم الحديث بطريقة تحمي وتحافظ على هذه الغابات الحيوية، التي هي قلب ورئتا الكوكب. كذلك فقد سمحت لنا هذه الشراكة –نحن سكان العالم الحديث– أن نطلع على تقاليد السكان الأصليين وحكمتهم العميقة.

يعيش شركاؤنا من السكان الأصليين في توازن وانسجام مع العالم، ومع بعضهم بعضًا، وهذا هو مصدر رخائهم وسعادتهم. وبينما يحول المجتمع الاستهلاكي كل شيء إلى نقود وسلع –الماء، والهواء، والأرض، والغذاء– صار جليًّا أكثر من أي وقت مضى مدى اختلال ثقافتنا، وكيف أنها ستودي بنا إلى حتفنا إن لم نغير المسار.

ثمة حقيقة جديدة عن علاقتنا بالمال والحياة ظهرت في الحوارات المستمرة للعلماء والمثقفين، والاقتصاديين، والقادة السياسيين، وصناع السياسات، والقادة الروحانيين، والنشطاء. الواقع أنها حقيقة قديمة للغاية، إلا إن المساعي الجاهدة إلى الربح فوق أي اعتبار قد سلطت الضوء عليها بوضوح أكبر: لا بد أن نفكر ونتحدث عن المال بصفته جزءًا من نظام بيئي حقيقي، نظام واحد ننظر فيه إلى الاقتصاد والبيئة على أنهما وجهان لعملة واحدة.

لوقت طويل كان يُنظَر إلى الاقتصاد كعنصر منفصل عن البيئة، لكن الطبيعة أظهرت لنا أن الاثنين مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. الواقع أن الاقتصاد هو فرع من فروع البيئة. كل شيء –الغذاء، والملابس، والإلكترونيات، والمنازل، والمباني الإدارية، والسيارات، والوقود لتشغيلها، حتى هذا الكتاب الذي تمسكه بين يديك– مصنوع من موارد تأتي من الأرض.

يقول العلماء الذين يدرسون بصمة أجناسنا على الأرض –أي يحسبون الموارد التي نستهلكها مقابل قدرة الأرض على تجديد تلك الموارد– إننا تجاوزنا نقطة التوازن المستدام منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. نحن نأخذ الآن من الأرض أكثر بكثير مما تستطيع أن تجدد. من المنظور المالي، نحن نعيش على بطاقة ائتمان بيئية لا يمكننا سدادها أبدًا. ثمة ديون بيئية نرزح تحت وطأتها، ونمرر هذا العبء إلى الأجيال القادمة. لا بد أن نعثر على سبل لتجديد هذه الموارد والحفاظ عليها، وأن نجد طريقة للعيش في نطاق مواردنا البيئية، وإلا فسننتقل من كارثة إلى كارثة أعمق في دوامة هبوط لا تنتهي. إن الأزمة الاقتصادية هي مرآة دقيقة للأزمة البيئية، ولن نعالجها في الحقيقة إلا إذا تعلمنا كيف نعيش في نطاق مواردنا البيئية.

إنني أشعر بأن الحكمة التي نشأت من هذه التجارب المتنوعة والمتعددة الطبقات ليست لي، بل هي هدية مُنِحتُ إياها حتى أتمكن من نقلها إلى

الآخرين. أخبرني القراء على مر السنين كيف غيرت القصص والمبادئ المقدمة في كتاب *روح المال* حياتهم بشكل كبير، بل وأنقذت حياتهم حتى. لقد أسعدتني معرفة أن العديد ممن حضروا ندوات *روح المال* وورش عمل الباتشاماما قد بدؤوا كفاعلي خير وجامعي تبرعات ونشطاء في إذكاء الوعي وتوجيه الموارد لخلق حضور بشري عادل اجتماعيًّا، ومستدام بيئيًّا، ومُرضٍ روحيًّا على هذا الكوكب.

كان تأثير الكتاب في عالم الماليات والاقتصاد مشجعًا أيضًا. لقد طُلِبَ *روح المال*، وأوصي بقراءته في الجامعات والكليات، في الدورات المالية، وكليات الدراسات العليا للأعمال، بما فيها هارفارد، وستانفورد، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا؛ وذلك بصفته طريقة فريدة للنظر إلى علاقتنا بالمال. كما استخدمت مبادئه في برامج التدريب والتطوير المهني في قطاعات صناعة الخدمات المالية، بما فيها إدارة الثروات.

يشرفني أن أسمع من زوايا عديدة كيف أثار الكتاب نقاشات في نوادي القراءة، والمنظمات المجتمعية، ومنتديات الإنترنت، وكيف كان موضوعًا للدراسة الروحانية والخُطَب في التجمعات المتنوعة. لقد تُرجِمَ كتاب *روح المال* إلى الصينية، والفرنسية، والألمانية، واليابانية، والكورية، والإسبانية، والفيتنامية، ولا يزال مستمرًّا في إيقاظ رواد الأعمال والطلبة، والنشطاء، وفاعلي الخير، وآخرين لا حصر لهم من بلدان وثقافات العالم أجمع.

ثمة المئات من الممارسات الروحية، والكثير من المسارات التي تقود الناس إلى الكمال وراحة البال. يمكن أن يقودك استكشاف علاقتك بالمال إلى ذلك المكان. قد يكون غريبًا أن تفكر أن المال يمكن أن يحوي مسارًا من هذا النوع، لكني رأيته وسافرت فيه بنفسي، ورأيت العديد من الآخرين يفعلون نفس الشيء.

وليس الهدف من هذا الكتاب أن نقاطع المال، أو نقلل النفقات، أو نضع الميزانيات أو الخطط المالية، على الرغم من أن الحكمة المكتسبة منه ستفيد في كل هذه الأنشطة. لكن الهدف منه هو أن نعيش بوعي وسعادة وإلى أقصى حد في علاقتنا بالمال، وأن نتعلم فهم تدفقه، واغتنامه. إنها فرصتك للشروع في رحلة استثنائية ونادرة، رحلة تُوائِم بين المال والروح، من أجل تغيير حياتك.



الجزء الأول

الحب والأكاذيب والصحوة الكبرى

1

أنا والمال - نحن والمال

المال أشبه بسلسلة حديدية وضعناها في أنفنا.
إنه يقودنا الآن حيث يشاء. وقد نسينا ببساطة
أننا من اخترعناه.

- ***مارك كيني***

في قرية مزدهرة في أعماق غابات الأمازون المطيرة، وعلى بعد عشرة أيام سيرًا من أي شكل من أشكال الحضارة كما نعرفها، كان تشامبي ويشكت وشعبه يخوضون مغامرة جريئة وشجاعة، ومحفوفة بالمخاطر، وغير مسبوقة؛ كانوا يتعلمون كيفية استخدام المال.

على الرغم من بلوغ تشامبي السادسة والعشرين من عمره، فإنه لم يحظَ بتعاملات تُذكَر بالمال حتى بضع سنوات مضت؛ فقد عاشت جماعته من السكان الأصليين –شعب الأشوار– دون مال آلاف السنين. وطيلة ذلك الوقت ترعرعت أجيال الأشوار، وأنشؤوا الأسر، وبنوا المنازل، وحافظوا على مجتمعاتهم، كل ذلك من دون مال. كان –ولا يزال– هؤلاء السكان الأصليون

منسجمين مع أهم المؤثرات في حياتهم: قوى الطبيعة، وعلاقاتهم مع بعضهم بعضًا، والغابة، لكنهم لم ينشئوا علاقة مع المال. كانت المقايضة هي عملة المجتمع. وكان مفهومًا أن الجميع يشاركون بعضهم بعضًا، ويعتنون بعضهم ببعض؛ فإذا تزوجت ابنة تانتو بابن ناتيم، اجتمع أصدقاؤهما وجيرانهما لبناء منزل لهما، وعندما يقتل صياد خنزيرًا بريًّا، تولم القرية بأكملها. كانت قوى الطبيعة هي الحاكم الأول لجميع تقلبات الحياة، وكانت قضايا الشرف هي السبب في جميع معاركهم، لم يكن للمال دخل في أي منها.

نشأ تشامبي في هذه البيئة، ولكن كُتِبَ عليه أن يكون جزءًا من الجيل الذي سيغير كل ذلك. في بداية سبعينيات القرن الماضي، حدث أول تواصل لشعب الأشوار مع العالم الحديث من خلال المبشرين. وفي غضون عقدين من الزمن، أصبحت أراضي أسلافهم هدفًا لشركات النفط، والمصالح التجارية الأخرى، التي تهدد بتجريد الغابات المطيرة من الأخشاب الصلبة والنفط الذي يكمن أسفلها. في عام 1995، دعاني قادة الأشوار أنا وزوجي بيل لنكون شريكين في جهودهم لحماية أرضهم وأسلوب حياتهم؛ هكذا التقيتُ تشامبي، الشاب الأشواري الماهر والمحارب.

بعد بضع سنوات من هذا اللقاء الأول، وقع اختيار شيوخ الأشوار وقادتهم على تشامبي للقدوم إلى أمريكا للدراسة. كان أول أشواري يتعلم اللغة الإنجليزية، وهو الأمر الضروري إن أراد الأشوار أن ينجحوا مع الغرباء في أي جهود لحماية الأرض، أو أي مشاريع تجارية. وفي الوقت نفسه، شرع تشامبي أيضًا في تعلم اللغة الأخرى للحياة الغربية المعاصرة: لغة المال. لعل تلك المفردات كانت لازمة للنجاة في عالم يختلف تمامًا عن عالمه، حيث ينساق كل شخص وكل شيء تقريبًا باستمرار –وبصفة حصرية أحيانًا– وراء المال.

أقام تشامبي معنا في منزلنا، وحضر صفوفًا في كلية قريبة، ودرس بجد ليتعلم اللغة الإنجليزية، لكن أكثر ما تعلمه بشأن المال كان عن طريق المعايشة. أينما ذهب، كانت لغة المال ومعناه يملآن الجو: من اللوحات الإعلانية والدعاية والإعلانات التجارية، إلى بطاقات الأسعار على الكعك

في المخبز المحلي. ومن خلال محادثاته مع طلاب آخرين، عرف آمالهم وأحلامهم، وتوقعاتهم للحياة بعد التخرج، أو على حد تعبيرهم: «الحياة في العالم الحقيقي»، عالم المال. بدأ يرى كيف هي الحال في أمريكا؛ كيف أن كل شيء في حياتنا وكل خيار نتخذه –الطعام الذي نأكله، والملابس التي نرتديها، والبيوت التي نعيش فيها، والمدارس التي ندرس فيها، والعمل الذي نؤديه، والمستقبل الذي نحلم به، وما إذا كنا سنتزوج أو لا، سننجب أطفالًا أو لا، حتى في مسائل الحب– كل شيء يتأثر بذلك الشيء الذي يدعى المال.

لم يمر وقت طويل حتى أدرك تشامبي أنه قد صار هو وقومه الآن على علاقة بالمال. كان للمال معنى. وإذا أراد الأشوار إنقاذ موطنهم في الغابات المطيرة، فسيتعين عليهم التعامل مع حقيقة أنها ذات قيمة بالنسبة إلى الآخرين لما تحويه من إمكانات لجني المال. اضطرت بعض جماعات السكان الأصليين الأخرى في المنطقة إلى تعلم تلك الحقائق عن المال بالطريقة الصعبة؛ فقد استبدلوا بحقوقهم في أراضيهم المال، الذي ذهب بالسرعة التي جاء بها، وفي النهاية فقدوا أراضيهم ومنازلهم، وأسلوب حياتهم، والإرث الذي كان لهم من قديم الأزل.

وقد انتبه الأشوار إلى الدرس. أدركوا أن تحديهم الأكبر سيكمن في استخدام قوة المال بوضوح وباستمرار لخدمة هدفهم الأسمى: حماية الغابات المطيرة، وإدارة مواردها لتأمين مستقبل مستدام لأنفسهم، ولجميع أشكال الحياة. فهموا أن علاقتهم الجديدة وغير المسبوقة تاريخيًّا بالمال يجب أن ترتكز بقوة على قيمهم الأساسية، وعلى التزاماتهم الأسمى تجاه الحياة والأرض، وإلا فسيجلب المال لهم الهلاك كما جلبه لجيرانهم. وما زال هذا التحدي مستمرًّا بالنسبة إليهم حتى يومنا هذا، ويختبر نسيج علاقاتهم، والمبادئ الجماعية القديمة لثقافتهم.

حينما يكون الأشوار في موطنهم بالغابات المطيرة ينعمون بالرخاء، ويحوزون كل ما يحتاجون إليه، ولطالما كانوا كذلك قرونًا، بل حتى آلاف السنين. خطوة واحدة يخطونها خارج الغابة المطيرة إلى عالمنا لا يستطيعون بعدها تناول الطعام، أو العثور على مأوى، أو العيش أي فترة من الوقت

من دون مال. المال ليس اختيارًا، إنه ضرورة. لقد شعرنا أنا وبيل –بعد أن حالفنا الحظ لنشهد ونشارك الأشوار في أول تعامل لهم مع عالم المال– بنداء يدعونا لإعادة النظر في علاقتنا بالمال، وعلاقة ثقافتنا بالمال.

مثل تشامبي والأشوار، لدى كل منا علاقة محددة مع المال، وإن كانت غير واعية، وغير مفحوصة إلى حد كبير، لكنها تشكل تجربتنا في الحياة، ومشاعرنا العميقة عن أنفسنا والآخرين. سواء كنت تعد الفكَّة بالدولار، أو الين، أو الروبية، أو الدراخما، فإن المال هو إحدى القضايا المركزية والمحورية في حياتنا جميعًا. هو كذلك في حياتي، وهو كذلك لكل امرئ قابلته، بغض النظر عن مدى وفرة أو ندرة المال لديه.

كلنا مهتم بالمال، وكل واحد منا يشعر بقلق مزمن، أو حتى خوف من أننا لن نملك أبدًا ما يكفي من المال، أو نقدر على الاحتفاظ بما يكفي منه. يتظاهر الكثير منا بأن المال ليس مهمًّا، أو يعتقد أنه لا ينبغي أن يكون كذلك. ويعيش الكثير منا صراحةً وقد اتخذ من تكديس الأموال هدفًا أساسيًّا له. بغض النظر عن مقدار المال الذي نملكه أو لا نملكه، فإن القلق من أننا لا نملك أو لن نملك ما يكفي منه يجعل قلوبنا مُكَبَّلة بمسائل المال. كلما كافحنا ونحن نحاول كسبه، أو حتى نحاول تجاهله، أو الارتقاء فوقه، تشتد قبضة المال علينا.

لقد أصبح المال ساحة لعب نقيس فيها كفاءتنا وقيمتنا كأفراد. إننا نقلق إن نحن توقفنا عن السعي لكسب المزيد أن نفقد مكاننا في الفريق، أو نفقد أفضليتنا بطريقة ما. إن لم تتسع رقعة الأرض تحت أقدامنا، فإننا نشعر بأننا نخسرها. إن لم نكن متقدمين ماليًّا على الآخرين، أو على الأقل على قدم المساواة معهم، فإننا نشعر بأننا متخلفون عن الركب، وفي حاجة إلى اللحاق به. يمكن أن تكون اللعبة مثيرة في أحيان، ومخيفة في أحيان أخرى، لكن المخاطر دائمًا ما تكون عالية؛ لأنه في ساحة اللعب إن لم نكن فائزين، فنحن خاسرون.

حتى عندما تمضي اللعبة في صالحنا، نشعر بانفكاك مزعج، بفجوة بين الطريقة التي نتخيل بها الحياة والطريقة التي نعيش بها، تحت الضغط اليومي لكسب المزيد، وشراء المزيد، وادخار المزيد، والحصول على المزيد،

وامتلاك المزيد، وأن نكون المزيد. حتى الأثرياء لا يجدون مع أموالهم السلام والحرية اللذين قد يظن المرء أنهما يأتيان مع امتلاك الكثير، لا يحدث ذلك. يتطلب الأمر منهم جهدًا أكبر للعب اللعبة في هذه الأوساط، لكن اللعبة هي نفسها. يمكن أن تكون مديرًا تنفيذيًّا ربحت 7 ملايين دولار العام الماضي، ولكن إذا أبرم شريكك في اللعب صفقة بمبلغ 10 ملايين دولار ولم تفعل أنت، فسوف تنخفض رتبتك في لعبة المال. كلما زادت الأموال على المحك، زاد ما يمكن خسارته، وزادت صعوبة أن تظل في مقدمة اللعبة. لا أحد يستطيع الهرب من قوة شد وجذب المال. الجميع يتأثرون بتقلبات المال في حياتهم.

سواء نظرنا إلى المال في سياق حياتنا الشخصية أو العائلية، أو في سياق العمل، أو في سياق سلامة الأمم ورفاهتها، تظهر الصورة نفسها: المال هو الجزء الأكثر تحفيزًا وغموضًا وإعجازًا وإيذاءً في الحياة المعاصرة، وأكثر جزء يُساء فهمه في العالم.

هذا الشيء المدعو المال

إذا نَحَّينا آلاف السنين من المفاهيم والافتراضات الثقافية السائدة، وألقينا نظرة جديدة على المال، ستتكَشَّف لنا بعض الملحوظات الأساسية: المال ليس نتاج الطبيعة، المال لا ينمو على الأشجار، ولا تهبط البنسات كالمطر من السماء. إن المال نتاج ذكائنا، نحن ابتدعناه وصنعناه، إنه مادة غير حية، ظهرت بأشكال مختلفة عدة، في تاريخها الذي يزيد على 2500 إلى 3500 عام، أشكال من بينها الأصداف، والأحجار، وسبائك المعادن الثمينة، والفواتير الورقية، والومضات على شاشة الكمبيوتر. اختُرِعَ المال منذ البداية لتسهيل مشاركة وتبادل السلع والخدمات بين الأفراد والجماعات، ولا يزال يسهِّل مشاركة السلع والخدمات وتبادلها، ولكن في مرحلة ما من الطريق، تجاوزت القوة التي منحناها المال دورها النفعي الأصلي.

والآن، بدلًا من التعامل مع المال بوصفه أداة ابتدعناها ونحن المتحكمون فيها، صرنا نتعامل معه كما لو كان حقيقة من حقائق الطبيعة، وقوة لا يستهان بها. هذا الشيء المدعو المال، تلك العملات المعدنية، أو الفواتير

الورقية ضخمة الإنتاج، التي ليست لها قوة متأصلة أكثر مما لمفكرة أو لمنديلٍ ورقي، أصبحت القوة الوحيدة الأكثر تحكمًا في حياتنا.

ليس للمال سوى القوة التي نمنحه إياها، وقد منحناه قوة هائلة. لقد أعطيناه سلطة تكاد تكون مطلقة. لو نظرنا إلى سلوكنا وحده، فسوف يخبرنا بأننا جعلنا المال أهم منا نحن، منحناه مغزى أكبر من الحياة البشرية. لقد فعل البشر وما زالوا يفعلون أشياء فظيعة باسم المال. لقد قتلوا من أجله، واستعبدوا أناسًا غيرهم في سبيله، واستعبدوا أنفسهم في حياة بائسة من السعي خلفه.

وباسم المال، تسبب بنو البشر في أضرار جسيمة لأمنا الأرض. لقد دمرنا الغابات المطيرة، وسددنا الأنهار ودمرناها، وقطعنا الأخشاب الحمراء، وأفرطنا في الصيد الجائر للأسماك من الأنهار والبحيرات، وسممنا التربة بالمخلفات الكيميائية من الصناعة والزراعة. همشنا قطاعات كاملة من مجتمعنا، وأجبرنا الفقراء على مشاريع الإسكان، وسمحنا بتكوين الأحياء الحضرية الفقيرة، واستغللنا أممًا بأكملها للحصول على عمالة أرخص، وشهدنا سقوط -الآلاف بل الملايين في الواقع- من الناس -كثير منهم من الشباب- وقد وقعوا في شرك بيع المخدرات من أجل المال، مما أودى بهم إلى أذية آخرين، وضياع مستقبلهم في حياة الجريمة، أو الاستعباد، أو السجن. كرّسنا تقاليد قديمة تعطي الرجال والنساء فرص مختلفة وغير متساوية لكسب المال وسلطته التي نضعها فيه، فقُمِعَت النساء، واختلّت توقعات الرجال وواجباتهم مع وصولهم الميسر إليه.

نادرًا ما يكون المال في حياتنا مصدرًا للحرية أو الفرح، أو الصفاء الحقيقي، ومع ذلك نسمح له بانتظام بأن يملي علينا شروط حياتنا، وغالبًا ما يكون العامل الأوحد والأهم في قراراتنا التي نتخذها بشأن العمل، والحب، والأسرة، والصداقة. ليس ثمة ما نتقبّله كاملًا مثلما نتقبل قوة المال وسلطته، والافتراضات حول ما ينبغي أن نشعر به حياله؛ فنحن نتحدى الافتراضات التي تنشأ حول جميع جوانب الحياة الأخرى: العرق، والدين، والسياسة، والتعليم، والجنس، والأسرة، والمجتمع. ولكن عندما يتعلق الأمر بالمال، فإننا نقبله ليس فقط مقياسًا للقيمة الاقتصادية، لكن أيضًا طريقةً لتحديد أهمية وقيمة كل فرد، وكل شيء في العالم. عندما نتحدث عن النجاح في الحياة، يكون المال دائمًا المقياس الأول -والوحيد أحيانًا- الذي نستخدمه في ذلك.

جميعنا في حياتنا الشخصية -من وقتٍ لآخر- حططنا من قدر أنفسنا وقللنا من قيمتها، أو استغللنا الناس، أو تورطنا في أفعال أخرى لا نفتخر بها، كل ذلك في سبيل كسب المال، أو الحفاظ عليه، أو على القوة التي نعتقد أنه يمكنه شراؤها. لقد أسكتنا أنفسنا وتجنبنا النزاعات والنقاشات غير المريحة حول المال. حتى إن سلوكنا حيال المال قد دمر علاقات حينما استخدم كأداة للسيطرة، أو العقاب، أو الهروب العاطفي، أو التحايل، أو كبديل للحب. تلوثت روح العائلات الثرية بالجشع وانعدام الثقة، والرغبة في السيطرة على الآخرين. عَزَلَتهم حياتهم الملآنة بالامتيازات عن فرصة اختبار التواصل البشري العادي، والعلاقات الصادقة. وإذا كان المال قليلًا في حياة أحدهم، يمكن للنضال بسهولة أن يصبح السمة الأساسية التي تقلل من قيمة الذات والإمكانات البشرية الأساسية للفرد أو العائلة، أو حتى مجتمعات أو ثقافات بأكملها. يصبح الغياب المزمن للمال ذريعة بالنسبة إلى البعض يستخدمونها ليبرروا قلة حيلتهم، أو إنتاجيتهم، أو مسؤوليتهم.

لقد ولدنا في ثقافة يحكمها المال، وعلاقتنا الأولية بالمال هي نتاج تلك الثقافة، سواء كانت تلك الثقافة فقيرة بالأساس، كما هي في بلدان مثل موزمبيق، أو بنجلاديش، أو ثقافة بنيت على الثراء والرفاهية، في بلدان مثل الولايات المتحدة، أو اليابان. إننا نتعلم منذ نعومة أظافرنا مكانة المال وقوته في عائلاتنا ومجتمعاتنا، وفي حياتنا الشخصية. نرى من يكسبه ومن يعجز عن كسبه. نرى ما يستطيع آباؤنا فعله وما يرفضون فعله لحيازة المال، أو حيازة الأشياء التي يشتريها المال. نرى كيف يشكل المال المنظور الشخصي والرأي العام.

في ثقافتنا الاستهلاكية الأمريكية العدوانية بشكل واضح، يتورط حتى أصغر أطفالنا في تلك العلاقة الضارية مع المال؛ فهم ينشؤون كما نشأنا -بل أكثر- في بيئة إعلامية وثقافة شعبية تؤجج شهية نهمة للإنفاق والاقتناء، دون أي اعتبار للعواقب الشخصية أو البيئية. إن علاقتنا المشوهة بالمال وليدة حياة ملآنة بتجارب يومية غير ضارة في ظاهرها في ثقافة يحكمها المال. ومن الواضح أن قضايا المال الشخصية، وكذلك قضايا الاستدامة والعدالة الاجتماعية -التي هي محور الاقتصاد البشري والبيئة- هي قضايا

متجذرة في تربة علاقتنا بالمال، وتربة ثقافة المال التي ولدنا فيها، والتي نعدها أمرًا طبيعيًّا.

المال والروح: الفارق الكبير

لدى أغلبنا مع المال علاقة شديدة التضارب، وسلوكنا معه وحياله غالبًا ما يتعارض مع قيمنا، والتزاماتنا، ومُثُلنا، الراسخة، أو ما أسميه: روحنا. عندما أتحدث عن الروح، لا أقصد بذلك أي تفسير ديني. عندما أتكلم عن قيمنا الأساسية، أو التزاماتنا العليا، لا أشير بذلك إلى أننا جميعًا تراودنا نفس الأفكار وتساورنا نفس المشاعر حيال السياسة والدين والاقتصاد وغيره، من القضايا والمطالب والرغبات التي تهيمن على يومنا، لكنني أومن أن أسفل كل ذلك، عندما تصل إلى الصميم وتزيح كل الأمور التي فُرِضَ علينا تصديقها، أو تلك التي صدقناها نتيجة التحايل والتلاعب، أو حتى تلك التي اخترنا أن نصدقها، فإن ما يهم البشر حقًّا، أرقى التزاماتنا الروحانية وقيمنا الجوهرية، هو الخير والسلامة لنا، ولمن نحب، وللعالم الذي نعيش فيه.

نحن حقًّا نريد عالمًا طيبًا للجميع؛ لا نريد أطفالًا جوعى، لا نريد أن يحيق العنف والحرب بأي مكانٍ في الكوكب، حتى وإن كان بعيدًا. لا نريد أن يكون التعذيب والانتقام والعقاب أداة في يد الحكومة والقيادة. يريد الجميع حياة آمنة مطمئنة، ملآنة بالحب والخير لأنفسهم، ولأحبائهم، ولكل البشر صدقًا. جميعنا نريد كوكبًا سالمًا، وفرصة لكل فرد أن يحظى بحياة صحية ومثمرة.

وأومن أيضًا أن الجميع في قرارة أنفسهم، خلف أعمق مخاوفهم وأشد إزعاجاتهم، يريدون أن يحبوا ويُحَبُّوا، وأن يصنعوا فارقًا بحياتهم. بالحديث من منظور روحاني -وليس بمعنى ديني محدد- أومن أن الناس يريدون كذلك تذوق تجربة الخلود، تجربة ارتباطهم بكل أشكال الحياة، والسر الذي هو أعظم من أن نفهمه. لقد شكلتنا ثقافة المال بطرق عدة لم نكن لنختارها لو مررنا بعملية أكثر وعيًا وروحانية، وساقتنا رغمًا عنا إلى تقويض وتدمير تلك القيم الإنسانية العميقة، والالتزامات السامية، حتى إننا نتمرد أحيانًا على القيم والالتزامات التي نعترف بأننا نجلّها.

أغنية النجاح المغوية

في أوائل سبعينيات القرن الماضي، عندما بدأ بيل مسيرته المهنية في مجال الأعمال، وبدأت أغنية المال المغوية تدوي في أذنيه، وظفته شركة شهيرة صاعدة هو وشبابًا آخرين من الحاصلين على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من كليات إدارة الأعمال الكبرى. اختصت تلك الشركة بترتيب صفقات تأجير واسعة النطاق لمعدات النقل والحواسيب، وكسبت المال بحصولها على نسبة من تلك الصفقات. كانوا على مشارف عهد من النمو الهائل في تلك السوق. بدأ العمل يزداد نجاحًا شيئًا فشيئًا، وأسرع فأسرع، وفي مرحلة معينة وضع المسؤولون التنفيذيون للشركة هدفًا بأن يصبحوا شركة بمليارات الدولارات في وقت أسرع من أي شركة أخرى في التاريخ. كان ذلك هدفًا طموحًا ومندفعًا في ذلك الحين، وكان ممكنًا بكل المقاييس. اشتد الحماس والإثارة، وأغوي الجميع –بمن فيهم أزواج وزوجات فريق العمل– بذلك الهدف. أتذكر تحمسي وفرحتي لسير الأمور على ما يرام بالنسبة إلى بيل وزملائه، وتفكيري في مدى روعة ذلك، وتشجيعي له، وعدم معارضتي عادته في البقاء في العمل حتى وقت متأخر، وذهابه في وقت مبكر، واضطراره إلى الذهاب في رحلات عمل حتى في عطلات نهاية الأسبوع.

كان أطفالنا الثلاثة الصغار –زاكري، البالغ من العمر عامًا، وسمر، ذات الأعوام الثلاثة، وبيلي، ذو الأعوام الخمسة– مركز حياتنا، أو هكذا ظننا. كان زواجنا وعلاقتنا بأطفالنا أهم الأشياء في العالم بالنسبة إلينا، أو هكذا قلنا. ومع ذلك، لو قام أحدهم بتصوير فيلم لنا خلال تلك الفترة ونظر إليه بموضوعية، فسوف يقول: لا، إنهم لا يلقون بالًا للأطفال. الأولاد مع المربية، والزوجة منشغلة أغلب الوقت بتلك الأمور التافهة مع زوجها، أو بالتسوق، أو الترفيه، ويفوتان أهم مراحل نمو أطفالهما، من رؤية تلك الخطوات الأولى، أو سرد قصص ما قبل النوم، أو منحهم القبلات، أو أيٍّ من تلك الأمور العفوية التي تبني العلاقات. هما مجرد أبوين قادرين على توظيف خدمة رعاية الأطفال، وشراء الألعاب والمنازل الرائعة، لكنهما حتى عندما يكونان في صحبة أطفالهما، فإن أفكارهما لا تفتأ تدور حول ما يتعين عليهما فعله لاحقًا

لتحقيق أهدافهما المالية، أو ليثبتا لأصدقائهما أنهما يعلمان كيفية التعامل مع تجربة الثراء الناشئة تلك.

كنا نشعر بأننا نكرس أنفسنا بإخلاص لأطفالنا، لكنك إن نظرت بعدل إلى الطريقة التي كنا ننفق بها وقتنا وطاقتنا فعلًا، رأيتَ أن أفعالنا لم تكن متسقة مع نوايانا.

وجدنا أنفسنا في هذا التدافع في منتصف السبعينيات. تدفق المال إلينا، وكل شيء اقتنيناه أو استخدمنا المال للحصول عليه أشعل لدينا الرغبة في شيء آخر، أو عملية شراء أخرى، أو سبب آخر لشراء المزيد. لكي نكون اجتماعيين مثقفين، شعرنا بأن علينا معرفة أنواع النبيذ الفاخر، وعندما فعلنا، احتجنا إلى قبو للنبيذ. ابتعنا سيارة رياضية سريعة مذهلة، ثم احتجنا إلى سيارة أخرى، سيارة عائلية لحياتنا العائلية مع الأطفال. كان لدينا منزل رائع، لكنه بطريقة ما لم يبدُ مكتملًا من دون بعض التحف الباهرة. وبمجرد أن بدأنا التعرف على الفن، أردنا امتلاك تحف أغلى ثمنًا. بدأ أصدقاؤنا يشترون منازل صيفية، فبدا أن تلك هي الضرورة التالية لنا. وما إن بدأنا شراء الثياب الباهظة، حتى احتجنا إلى أحذية أجدد وأجمل لتتناسب معها، ثم كان على معاطفنا أن ترقى إلى مستوى الملابس التي تغطيها، وكان على ساعاتنا أن تواكب ذلك. لم يبدُ أن لقائمة التحسينات نهاية. في دائرتنا الاجتماعية، أصبحت الإجازات شارات استحقاق لأسلوب الحياة الثري؛ إذا أردتَ أن تجاري الاتجاه السائد، فمن المتوقع منك أن تقضي إجازات مدهشة. فجأة لم يعُد كافيًا أن نقود سيارتنا في رحلة إلى يوسمايت، أو أن نذهب إلى التخييم ببساطة. لا بد من التزلج في صن فالي، أو الإبحار في هاواي. وهكذا ظلَّ كل شيء يؤدي إلى آخر، وبدت كلها أشياء في غاية الأهمية. كان شيء ما يسوقنا، ولم نتوقف لنشكك فيه. قضى أطفالنا أغلب الوقت مع المربية وجليسات الأطفال، نشأوا ميسوري الحال ومُعتَنًى بهم، لكن ليس في وجودنا. كنا أبوين محبين، لكننا غبنا فترات أطول مما نحب. ومع ذلك ظللنا نغادر، إذ بدا دائمًا أن من الضروري أن نذهب، وأهدأتنا معرفتنا بأننا سنعود إلى المنزل قريبًا.

ثم أُطلِقَت مبادرة عالمية للقضاء على الجوع في العالم –مشروع مكافحة الجوع– وأيقظتني. عندما سمعت لأول مرة عن الالتزام بإنهاء الجوع على

كوكب الأرض، أحسست أن مهمته تمسّ المشاعر العميقة التي أحملها حيال تخفيف المعاناة الإنسانية. تذكرت أنني في مرحلة ما من طفولتي، عندما كنت طفلة سعيدة راضية، أدركتُ أن ثمة أناسًا في مكان ما جائعين، وأن ذلك لم يبدُ منطقيًّا بالنسبة إلي. أزعجني وجود طفل مثلي تمامًا في بقعة ما على وجه الأرض لا يملك قوت يومه. أتذكر أنني فكرت أنني لن أستطيع السماح بذلك. كثيرًا ما تداهم الأطفال أفكار كتلك، ثم يخرجون للعب. لكن تلك الفكرة بقيت معي، وبعد عقود، عندما سمعت رسالة مشروع مكافحة الجوع –أن من الممكن استخدام الموارد الحالية لإنهاء الجوع المزمن والمستمر على الأرض– كان لها صدى في صميم قلبي، وأعادتني إلى تلك اللحظة من طفولتي عندما أدركت أن ثمة أناسًا لم يحظوا بحقهم في الرعاية، ورغبتي في أن أفعل شيئًا حيال ذلك. شعرت بنداء ينبع من أعماق روحي حادًّا ومدوّيًا لدرجة لم أستطع معها إنكاره. في تلك اللحظة، بدأت في فصل نفسي عن حياة المطاردة.

الآن، وبعد عقدين ونصف، يمكنني القول إن إحدى النعم غير المتوقعة لمشاركتي في مشروع مكافحة الجوع كانت أنني باتخاذي موقفًا للقضاء على الجوع في العالم، بدأت أدرك جوعي الداخلي، والطريقة الزائفة غير السليمة التي كنا نعيش بها، وكان عليَّ مواجهة ذلك. عندها بدأنا عن عمد في توجيه مواردنا –وقتنا، وطاقتنا، ومالنا، والثروة المادية المتراكمة– نحو توقنا إلى إحداث فارق بحياتنا.

واصل بيل العمل في شركته، لكن اختلف تعاملنا معها؛ فبدلًا من تكديس المال بلا نهاية، أو استخدامه لاقتناء المزيد من الأشياء، بدأنا نرى الموارد التي يكسبها هو وشركاؤه كموارد يمكننا توجيهها نحو الآخرين، يمكننا إنفاق المال على الناس، والبرامج والمشاريع التي تبني حياة أفضل للجميع. بصفتي معلمة سابقة، قررت إنشاء مدرسة للآباء العاملين من غير المتزوجين. أشركنا أصدقاءنا والعائلات الأخرى في أنشطة بناء المجتمع وجمع التبرعات. انغمسنا في جهود التحول الشخصي والاجتماعي، وحضور دورات وبرامج ورش عمل، وتشجيع الآخرين على أن يحذوا حذونا. بدأنا في فتح علاقاتنا من مجموعة ضيقة من الأفراد المتشابهين، الذين يركضون جميعًا في سعيهم الحثيث إلى النجاح المالي والمكانة، إلى مجموعة متنوعة من الأصدقاء والزملاء، من

مختلف الخلفيات والثقافات وأساليب الحياة. أصبحت دائرتنا أكبر، ومتعددة الثقافات، وتضم العديد من شرائح المجتمع والظروف الاقتصادية المختلفة.

أسس بيل وشركاؤه شركة، واختبرنا جميعًا متعة وقوة المساهمة، واستثمار الأموال في الأشياء التي تهمنا حقًا، البرامج التي مست التزاماتنا العليا. لقد رأينا أننا نستطيع إحداث فارق كبير باستثمار مالنا في إنهاء الجوع، وقد فعلنا، حيث ساهمنا في مشروع مكافحة الجوع، واختبرنا نوعًا من الرضا الذي غَذَّى وبثَّ الدفء في علاقتنا مع بعضنا بعضًا، ومع الجميع. لقد أدركنا أن تدافعنا السابق للاكتناز، ولتحسين كل شيء يخصنا ويخص حياتنا كان نوعًا آخر من الجوع، وقد كافحناه وجهًا لوجه من خلال إدراكنا أن ما كنا نتعطش إليه حقًّا هو أن نحيا حياة ذات معنى. كنا نتعطش إلى صنع فارق، وبدأنا نكرس أنفسنا لفعل ذلك. وجَّه البعض منا طاقاته إلى مبادرات الجوع، والبعض الآخر نحو التعليم، اختار بعضنا التركيز على الفقر، والبعض اختار إيقاف الانتهاكات، أو توفير المأوى والعلاج لضحايا الانتهاكات.

هذا التغيير في القلب أحدث تغييرًا في علاقتنا بالمال. بمجرد أن بدأنا في مواءمة قراراتنا المالية مع تلك القيم الجوهرية الأعمق، ومع أسمى التزاماتنا، شهدنا تحولًا جذريًّا، ليس في استخدامنا المال فحسب، بل في شعورنا تجاه المال، وتجاه حياتنا، وتجاه أنفسنا. في النهاية، أصبحنا نعرف أنفسنا ليس بما نملكه أو نكسبه، بل بما نمنحه، ليس بما نكدسه، بل بما نكرسه للآخرين.

رأينا تحولًا مماثلًا يحدث بين العديد من أصدقائنا. هم بغض النظر عن مواردهم المالية، عندما تصالحوا مع كرمهم والتزامهم، صاروا مدفوعين للتعبير عن أنفسهم بطريقة مماثلة. أدركنا أنه على الرغم من أننا لا نستطيع تغيير ثقافة المال، فقد صار بمقدورنا أن نراها بوضوح أكبر. صار بإمكاننا اتخاذ خيارات أكثر وعيًا بشأن كيفية تفاعلنا مع الظروف، واستجابتنا لها. لم نعد نشعر بأننا محاصرون بمخاوفنا وتوقعاتنا بشأن المال، وبدأت مطاردة المزيد تُرخي قبضتها علينا وتفقد سيطرتها. شيئًا فشيئًا، أصبح المال لكل واحد منا وسيلة للتعبير عما تتوق إليه روحه وتكتمل بتحقيقه.

كسب العيش الذي يؤكد قيمة الحياة

كل منا يخوض صراعًا عنيفًا طويل الأمد بين مصالحه المالية ونداء روحه. عندما نكون في ميدان الروح نتصرف بنزاهة، نكون مراعين، وأسخياء، وسمحين، وشجعانًا، وملتزمين. ندرك قيمة الحب والصداقة، نقدر الإتقان حتى في أصغر الأشياء، نشهد لحظات من الرهبة في حضرة الطبيعة وجمالها الفريد، نصبح منفتحين وهشين وشاعريين. نمتلك قدرة على التعاطف، ويصبح الكرم غريزة فينا. نغدو جديرين بالثقة، ونثق بالآخرين، ويزدهر تعبيرنا عن أنفسنا. نشعر بالسلام في داخلنا، ونثق بأننا جزء لا يتجزأ من تجربة أكبر وأكثر كونية، تجربة أعظم منا.

ولكن عندما نَلِجُ ميدان المال، غالبًا ما ننفصم عن الشخص الروحاني الذي اعتدنا أن نكونه. يبدو الأمر وكأننا انتقلنا فجأة إلى ملعب مختلف، تحكمه قواعد مختلفة تمامًا. تحت قبضة المال، تبدو تلك الصفات الرائعة للروح أقل توافرًا؛ نصبح أصغر، نتزاحم أو نتسابق «للحصول على ما هو لنا». كثيرًا ما نتصرف بأنانية، أو جشع، أو تفاهة، أو جبن، أو تسَلُّط، أو نشعر في بعض الأحيان بالارتباك، أو التناقض، أو الذنب. نرى أنفسنا إما رابحين وإما خاسرين، أقوياء وإما عاجزين، وندع تلك المسميات تحدد هويتنا كليًّا، وبطرق غير دقيقة، كما لو أن وفرة المال والسيطرة ترمز إلى تفوق، وأسبقية فطرية، وأن نقصهما يوحي بقلة القيمة، أو الإمكانات البشرية الأساسية. تتبدد رؤيتنا لما هو ممكن. نصبح حذرين ومرتابين، نحمي باستماتة القليل الذي نملكه، أو نصبح عاجزين ويائسين. نشعر أحيانًا بأننا مدفوعون للتصرف بطرق لا تتسق مع قيمنا الجوهرية، وعاجزون عن التصرف بشكل مختلف.

والنتيجة هي شقاق عميق في أسلوب حياتنا، وفي سلوكنا، وفي فهمنا أنفسنا ونزاهتنا. هذه الازدواجية، هذا الانفصام عن حقيقتنا لا يربكنا فحسب حول مسألة المال، بل يعوقنا أيضًا عن دمج عالمينا، الداخلي، والخارجي لاختبار الكمال في حياتنا، تلك اللحظة البديعة التي نشعر فيها بالسلام، وأننا جزء لا يتجزأ من الحياة. ضاعت تجربة الكمال الهادئة تلك إلى حد بعيد في ثقافتنا، تغلب عليها الضجيج والتدافع حول المال. تلك الفجوة موجودة عندنا جميعًا -بمن فيهم أنا نفسي- وهي لُبُّ أقسى صراعات الحياة بالنسبة إلينا جميعًا.

كتبت فيكي روبن، في كتابها «*Your Money or Your Life*» عن الناس الذين يقتلون أنفسهم أو غيرهم في العمل بدلًا من أن يكسبوا عيشهم فيه. يؤدون

عملًا غير مُرضٍ، وربما حتى مهددًا لسلامتهم أو سلامة الآخرين. أو ربما يشعرون بالحرج من عملهم، يكرهونه، يتمنون لو لم يكونوا مضطرين إلى القيام به. يتظاهرون بأن ذلك لا يهم، لكنه في الحقيقة يقتل أرواحهم، أو أرواح الآخرين. إنهم عالقون في المطاردة، ويقولون إنهم يكسبون عيشهم، في حين أنهم في الحقيقة يكسبون موتًا أو قتلًا، لكنهم لا يرون ذلك، أو لا يمكنهم الاعتراف بذلك.

المال في حد ذاته ليس هو المشكلة. المال في حد ذاته ليس خيرًا أو شرًّا. المال في حد ذاته لا يملك سلطة، ولا يفتقر إليها. إنه تفسيرنا للمال وتفاعلنا معه حيث يكمن الأذى الحقيقي، وحيث تكمن الفرصة الحقيقية لاكتشاف الذات والتحول الشخصي. تأتي القصص التي أنا على وشك مشاركتها من رحلة عبر طرفي النقيض: من حياة الثروة المذهلة، وحياة الفقر الاقتصادي المروع، من أناس وأماكن وبلاد بعيدة عن هذا البلد. لكني رأيت نفس العبر والدروس تنكشف قريبًا من الوطن، في الصراعات اليومية، والخيارات التي نتخذها بالمال، في توقعاتنا، وأحلامنا، ومخاوفنا، وخيبات أملنا حول المال.

قد تضطر إلى البحث من كثب للعثور على خيط المال في قصتك، لكنه موجود، وله معنى. يمكنك بدء عملية الفحص، وتحويل لغز المال، وميدان اللعب الذي يمثله المال إلى مكان من نوع مختلف. يمكن أن تكون علاقتك بالمال مكانًا تظهر فيه قوتك ومهاراتك، وأعلى طموحاتك، وأعمق صفاتك. سواء من أصحاب الملايين كُنَّا أو من «ورثة الدولارات»، يمكننا في الحقيقة أن نبلي حسنًا مع أموالنا، وأن نبلي حسنًا في علاقتنا معه.

في عالم يتمحور أغلبه حول المال، من الضروري أن نعمِّق علاقتنا بأرواحنا، وأن ندفعها إلى التأثير في علاقتنا بالمال. في ذلك الإدماج وذلك الالتزام، يمكننا استحداث ممارسة روحية جديدة وعميقة. يمكننا أن نجعل الروح ميزانًا وغذاءً لثقافة المال لدينا. يمكن لعلاقتنا بالمال أن تصبح مكانًا حيث ننخرط في هذه الممارسة الروحية الهادفة يومًا بعد يوم.

الفصول القادمة هي بمكانة دعوة لمواجهة تحدياتنا مع المال، ومخاوفنا حيال المال، وإدماننا وتعلقنا بالمال، وندمنا وأسفنا، وأوجاعنا بسبب المال، ودعوة لتَقَبُّل كل ذلك كساحة للنمو الشخصي، وكبقعة مثالية يمكننا البدء منها للعمل على تحوُّلنا، وبذلك نمنح المال روحًا.

2

في الهند: قلب الجوع - روح المال

أنصِت إلى حياتك، اسبر غور سرها المكنون. تأمَّلها في ضجرها وآلامها، كما في إثارتها وفرحها. المس، تذوَّق، تشَمَّم طريقك إلى قلبها المقدس الخفي، لأن كل لحظات الحياة في النهاية هي لحظات مهمة، ولأن الحياة نفسها نعمة.

- ***فريدريك بوشنر***[1]

في رحلتي الأولى إلى الهند، عندما وقفت ذات ليلة على ضفاف نهر الغانج في فاراناسي، فتنني مشهد بعض الطوافات الصغيرة المزينة بالورود والمشاعل وهي تطفو بهدوء مع تيار المياه المظلمة المخملية. كانت تتمايل بخفة، كقطع تبحر على غير هدى من كرنفال حالم. تأثرت بجمالها، وتساءلت أي عيد هذا الذي يُحتَفَل به، ورغبتُ في الانضمام إليه. سألت صديقًا لي، فأخبرني بأن طوافات الأزهار الجميلة تلك كانت محارق جنائزية، تحمل بقايا

(1) فريدريك بوشنر: طبيب وفيلسوف ألماني وأحد كبار مؤسسي الطبيعانية الوجودية في القرن التاسع عشر.

بشرية محترقة مع التيار إلى نهاية شعائرية في الرماد على ضفة النهر. كانت صدمة نوعًا ما، لكنها كانت مقدمة مناسبة لمعالم الهند وثقافتها.

الهند هي أرض المفاجآت، إنها بلد ذو جمال استثنائي، ترافقه معاناة لا يتخيلها عقل. لو أن للجوع في العالم عاصمة، لكانت الهند أولى البلدان بذلك. تضم الهند عددًا ممن يعانون من سوء التغذية المزمن، والجوع، والتضور جوعًا أكثر من أي مكان آخر على وجه الأرض، ويكافح نحو ثلاثمئة مليون منهم من أجل البقاء على قيد الحياة، هائمين في كل مكان، بدايةً من شوارع المدينة ومجاري كلكتا، وصولًا إلى صحراء راجستان القاحلة الجدباء، حيث يعتبر وجود أي كائن حي معجزة.

زرت الهند لأول مرة في عام 1983، بعد نحو خمس سنوات من بدء مسيرتي المهنية كناشطة عالمية وجامعة تبرعات من أجل إنهاء الجوع في العالم. طاف بي هذا المشروع حتى لحظتنا هذه عبر الولايات المتحدة، وكندا، وأوروبا، بيد أن رحلتي الاستهلالية كانت إلى الهند. جِئتُ وأنا أتوقع معرفة المزيد عن حقيقة الجوع والفقر بأبعادهما الصادمة. ولكن اتضح أن الهند كانت هي أيضًا المكان الذي اكتشفتُ فيه حقائق مذهلة عن المال والثروة، عن الطبيعة البشرية، وإمكانات البشر.

نزهة مع رامكريشنا بجاج

أُطلِق على رامكريشنا بجاج لقب: «ابن غاندي الخامس»، على الرغم من عدم وجود صلة قرابة بينه وبين المهاتما العظيم، زعيم الحركة الهندية السلمية من أجل الاستقلال عن بريطانيا في أواخر الثلاثينيات. بيد أن الامتنان والتقاليد الهندية هما ما دفع غاندي إلى التطوع لتربية الطفل الصغير. رامكريشنا هو الابن الأصغر لجملالال بجاج، رجل الأعمال الهندي العظيم، والداعم المالي الصامت لحركة الاستقلال.

نادرًا ما يفكر المرء في حركة الاستقلال التي قادها غاندي بوصفها شيئًا يتعين على أحدهم تمويله، لكن ثمة شخص قرر تحمل كل التكاليف: السفر، ونفقات المعيشة، والدعم الذي مَكَّنَ غاندي والآخرين من الوجود في المكان

اللازم، وامتلاك ما يحتاجون إليه للمضي قدمًا في قضية الاستقلال. كان جملالال بجاج هو ذاك الشخص، الممول الأكبر لغاندي وحركة الاستقلال. كان استثماره المالي ضخمًا ومحفزًا. وللتعبير عن امتنانه لهذا الاستثمار، عرض غاندي –وفقًا للتقاليد الهندية– تربية أصغر أطفال جملالال بجاج كما لو أنه من صلبه. كان لغاندي أربعة أطفال بالفعل، لذلك عندما تبنى رامكريشنا، أطلق الشعب الهندي على الصبي اسم: «ابن غاندي الخامس».

ما بدأ كتعبير عن الامتنان صار بركات لا تنتهي للهند، حيث كبر رامكريشنا نفسه ليصبح رجلًا عظيمًا وصالحًا. ببلوغه سن الثالثة عشرة، تزعَّمَ حركة الشباب السلمية لغاندي، التي بلغ عدد أفرادها عدة آلاف من الشباب. وبعد سنوات من رفقة غاندي، تخللتها فترات في السجن امتدت الواحدة منها عدة أشهر بسبب مقاومتهم السلبية وعصيانهم المدني، أصبح رامكريشنا زعيمًا محترمًا، ثم بطريركًا للإمبراطورية الصناعية والمالية التي بناها والده. كانت شركة بجاج –أو قلعة بجاج كما يُطلَقُ عليها في الهند– واحدة من أكبر الشركات في ذلك البلد. وبصفته القائد الجديد، أثبت رامكريشنا كفاءته وكرمه الهائلين، وأسس عدة منظمات دعمت آلاف المشاريع من أجل الصالح العام.

شعرت بالامتياز لأن رامكريشنا بجاج كان دليلي ومرشدي في تلك الرحلات الأولى إلى الهند. عاملني كأب، وضَمَّني إلى كنفه، علمني الكثير حول هذا البلد المعقد، المليء بالتناقضات والأضداد: الجمال البالغ والروحانية البديعة، والفقر المدقع والقمع الرهيب.

أتذكر نزولي من الطائرة في بومباي، لتستقبلني موجة من الحر والرطوبة. غمرتني رائحة آلاف البشر المتلاصقين في تلك الحرارة، كان حالي مثل معظم الغربيين في أول مواجهة لهم مع الهند. في ذلك الحين كان الآلاف من الناس –متسولين وغير متسولين– يعيشون في المطار، وعلى أطراف الطرق المؤدية إلى المطار، وكذلك في شوارع بومباي، وعلى الأرصفة، وفي المداخل، وعلى السلالم؛ كانوا في كل مكان. استخدم الناس أي مساحة في أي مكان لإعداد أواني الطهي الصغيرة، وصنع خبز الشباتي. جلسوا القرفصاء حول

علبة الطهي المعدنية الصغيرة التي كانت هي نيرانهم. نام بعضهم بلا غطاء، وحظي البعض بأسرَّة مصنوعة من الورق والصناديق ونفايات الشوارع والحبال. وكثيرًا ما تجمعت أسرة مكونة من ستة أفراد أو أكثر داخل أحد تلك الأكواخ بدائية الصنع.

سرنا عبر المطار، وبمجرد خروجنا من منطقة الأمتعة واجهنا المتسولين. انجذبوا إلينا، وتدافعوا بالقرب منا طلبًا للاستجابة. كانت لحظات مضنية بالنسبة إلي. وبحلول اليوم الثالث في الهند، بَلَغتُ حالة من الصدمة. كان الحديث علنًا عن إنهاء الجوع في العالم شيئًا، والوجود الفعلي في حضرة الجوع في الهند شيئًا آخر تمامًا. لم أكن مُدرِكةً لجسامة المهمة وضخامتها، والآن صِرتُ وجهًا لوجه معها.

في ذلك اليوم الثالث مشيت بطول شوارع بومباي مع رامكريشنا، هذا الرجل الذي كان مبجَّلًا باعتباره تجسيدًا لإرث غاندي، هذا الرجل الذي كان محتفى به باعتباره رجل أعمال عظيمًا، وفاعل خير عظيمًا، وقائدًا روحيًّا عظيمًا، وأبًا عظيمًا، وروحًا عظيمة. وبينما نسير في شوارع بومباي، شاهدتُ من يعرفون هويته يخرُّون على رُكَبِهم ويقَبِّلون قدميه. وفي الوقت نفسه شاهدته يتجاهل المتسولين؛ بدا وكأنه لا يراهم، كما لو أنهم غير موجودين. كان يخطو فوقهم كما لو كان غافلًا عن محنتهم.

عندما تسير في بومباي –لا سيما في مناطق معينة بالمدينة حيث كنا نسير– فعليك حرفيًّا أن تخطو فوق الناس الذين يعيشون في الشوارع. يقترب هؤلاء الناس منك طلبًا للصدقات، ويمدون أيديهم المشوهة، أو يحملون أطفالهم المكفوفين أمام وجهك، أو يشدُّون ملابسك، أو ينشجون إلى جوارك. بالنسبة إلى شخص غربي مثلي، روَّعَتني رؤية ذلك، آلمتني مشاهدته، لذا كنتُ واعية للغاية بوجود هؤلاء الناس، لم أستطع أن أنتبه أو أفكر في أي شيء آخر. لكن رامكريشنا لم يُلقِ لهم بالًا.

لم يحاصروه كما فعلوا معي؛ بدا الأمر وكأن هناك اتفاقًا غير معلن بينه وبينهم، أو درعًا يحميه. لقد سار عبرهم مباشرة دون اتصال أو تعليق، وقد اندهشتُ أن مثل هذا الرجل العظيم، رجلًا بمثل هذه الرحمة يمكنه أن يتعامى

عنهم. كانت تلك بداية تعرفي بنور وظلمة الهند، وحتى نور وظلمة مثل هذا الرجل العظيم، الذي كان عليه من أجل أن يعمل ألا يرى هؤلاء الناس، ألا يُشرِكَهم، أو حتى يعترف بوجودهم.

انطوى الفقر المدقع والجوع الكاسح على حقائق أخرى أيضًا، التي بدأت تضع سلوك رامكريشنا مع المتسولين في منظور مختلف. إحدى الحقائق المحزنة كانت أن التسول صناعة في الهند – وفي بلدان أخرى أيضًا، ولكن بالأخص في الهند. يصعب على المرء التفكير في التسول بهذه الطريقة، لكنه صناعة منظمة هناك، ويوجد في العديد من الأماكن زعماء على غرار زعماء المافيا يشجعون الناس على تشويه أطفالهم كيما يصبحوا متسولين أكثر فعالية. هذه الممارسة لا تضمن فقط أن يصبح التسول حرفة مدى الحياة، بل إنها تخلق فعليًّا سلالة كاملة من المتسولين.

لقد أرخى النظام الطبقي قبضته على الهند إلى حد ما الآن، لكن في عام 1983 كان لم يزل في غاية القوة. كان يفرض وجهة النظر القائلة بأن الحياة منظومة مغلقة، بمجرد أن تصبح متسولًا لن تستطيع الهرب من تلك الحياة أبدًا. ومن وجهة النظر تلك، قد تصلي من أجل أن تولد مرة أخرى براهمانًا[1] أوفر حظًّا، أو تولد مرة أخرى في هيئة مختلفة. ولكن في حياتك التي تعيشها الآن، ستبقى أنت وأطفالك وأطفال أطفالك متسولين دائمًا. وهذا اليقين يجعلك راغبًا في أن تصبح ناجحًا قدر الإمكان في التسول.

ونظرًا إلى أن نجاحك كمستول يعتمد على إثارة مشاعر الصدمة أو الأسف أو الذنب لدى الناس لدرجة تدفعهم إلى التبرع بالمال، فإن زعماء العصابات يعلمون متسوليهم في الشوارع طرقًا لجعل أطفالهم يبدون أكثر إثارة للشفقة. وهكذا، تحت تأثير الضغط، يلجأ الوالدان أحيانًا إلى شج وجه طفلهما، أو قطع يده أو ساقه، بحيث تترك جدعة بدلًا منها. لقد شوهت الأسر أطفالها فعليًّا لجعل الصدمة أشد، وفرص الربح كمتسولين أعلى.

---

(1) البراهمانية هي طبقة رجال الدين والعلماء في الهند.

رأيت في بلدي طرقًا عديدة يؤذي بها الناس بعضهم بعضًا من أجل المال: في معارك الطلاق والوصاية، أو في استغلال الآخرين، أو البيئة. كان من السهل أن تنتقد تلك الاختيارات الخاطئة التي تُتخذ باسم المال. الآن أدركت أيضًا أنني لطالما افترضت أن الفقراء، الذين لا يملكون أموالًا يحاربون من أجلها، مستثنين بطريقة ما من هذا الفساد بالتحديد. لكني رأيت في الهند الخيارات القاسية والمدمرة للذات التي يتخذها الفقراء أيضًا من أجل المال.

في مهنة التسول المنظمة بعناية، كان من أعدُّوا الكذبة ومن شاركوا فيها وارتكبوها في تواطؤ مختل غير معلن، وكان من تبرعوا بأموالهم جراء الصدمة والإحساس بالذنب يريدون تسكين ذنبهم، ومن ثم أصبحوا عوامل مساعدة، ودعموا عن غير قصد تلك الصناعة الوحشية. والأطفال هم ضحايا المأساة. كانت احتياجات المتسولين عميقة وحقيقية، لكن المال المكتسب لم يقدم شيئًا لكسر حلقة الفقر. في الواقع لم يفعل المال سوى أن أدى إلى استمرار تلك الصناعة الخبيثة التي تقتضي تشويه المزيد من الأطفال والتضحية بهم.

قدمت لي الأيام التالية درسًا تلو الآخر، ومفاجأة تلو الأخرى، التي كان من شأنها أن تقلب رأسًا على عقب الكثير من المفاهيم المتعلقة بالمال التي لطالما آمنت بها، والأمور التي افترضت أو ظننت أني أعرفها. بدأت مجموعة جديدة كاملة من الفوارق تتجلى لي بشأن أولئك الذين ندعوهم فقراء، وأولئك الذين ندعوهم أغنياء، واستطعت أن أرى أن الآراء والمعتقدات التي لدينا عن الأغنياء والفقراء والفقر والثروة تخفي أكثر مما تبين.

هنا كان مسرح الدراما الأكبر للمتسولين؛ عملية احتيال يتلاعب فيها المتسولون الجائعون بمشاعر الصدمة والعار والذنب إلى أقصى حد، وقد شعرت بنفسي عالقة فيها. هذا لا يعني أنهم لم يكونوا في حاجة إلى المال لإطعام أنفسهم أو لعلاج جراحهم، لكن ثمة في التسول والعطاء جانب مظلم وغير نزيه لا يمكن إنكاره.

كنت برفقة رامكريشنا، هذا الرجل العظيم الذي استخدم عمله وثروته بطرائق شتَّى لكسر قبضة الفقر في بلاده، وكان يخطو دون تبصُّر أو تعليق فوق أولئك الراقدين على الأرض أمامه. وظفت شركة رامكريشنا عشرات

الآلاف من الناس. كان على قمة السلم الاجتماعي الهندي، وتعامل مع كلا منصبيه، التجاري والاجتماعي، بمسؤولية ورأفة هائلتين. كان في الواقع فاعل خير عظيمًا، وكانت شراكته وسخاؤه أسطوريين. لكني رأيت أيضًا أنه من أجل أن يحافظ على رؤيته وهدفه ومكانته في ذلك المجتمع، تعين عليه أن ينمِّي نوعًا من العمى في مواجهته اليومية للفقر المدقع في الشوارع، وهكذا فعل.

وهكذا نفعل جميعًا. كلنا عميان بصورة ما أمام المال، ونبقي على أنفسنا عميانًا. ربما هو الخوف والقلق من أننا لو رأينا أكثر مما ينبغي عن عواقب الطرق التي نجني بها المال، أو العواقب الحقيقية لخياراتنا التي نتخذها في إنفاقه، فسوف نضطر إلى إعادة صياغة حياتنا بأكملها. لو نظرنا حقًّا إلى وحشية عمالة الأطفال -على سبيل المثال- التي غالبًا ما ترتبط بالمنتجات اليومية التي نبتاعها بسعرٍ مخفض من البلدان الأجنبية، ستنعقد ألسنتنا من الصدمة. لو اعترفنا بالتكلفة البيئية الحقيقية التي ندفعها مقابل الطاقة اللامحدودة ظاهريًّا اللازمة لحفظ راحتنا، فكم سيتحتم علينا أن نغير؟ إذا فكرنا حقًّا في عواقب وآثار ما بعد الإنتاج لأي صناعة تقريبًا توظفنا أو تخدم رغباتنا واحتياجاتنا، فالحقيقة هي أننا قد نوقف حياتنا اليومية. وإذا أمعنًّا النظر حقًّا في معتقداتنا وافتراضاتنا حول الآخرين في سياق المال، فعلى الأرجح سنحتاج إلى فتح أنفسنا وقلوبنا وعقولنا للناس الذين أبعدناهم عنا.

الأم تيريزا وسجن الثروة

لقد تربيت ونشأت في عائلة كاثوليكية، وطوال حياتي كانت الأم تيريزا مصدر إلهام عميقًا لي. عندما بلغت سنتي الثانية في المدرسة الثانوية، فكرت بجدية أن أصبح راهبة. وعلى الرغم من أني في نهاية المطاف قد وسعت حياتي الروحانية وخططي المهنية لتشمل اتجاهات مختلفة، فقد ظلت الأم تيريزا المثل الأعلى الأكثر إلحاحًا في حياتي. في سبعينيات القرن الماضي، عندما أصبحت زوجة وأمًّا شابة، بدأتُ اعتناق التزامي الشخصي بإنهاء الجوع في العالم بصورة كاملة، وكثيرًا ما كنت أفكر فيها، وفي عملها

بين أفقر الفقراء في أفقر أحياء كلكتا، وغيرها من المناطق التي يسود فيها الجوع والفقر حول العالم. في أولى رحلاتي إلى الهند، حينما اجتاحني الفقر المروع الذي رأيته، فكرت فيها، وكيف وضعت نفسها في وسط المعاناة الإنسانية طوال حياتها، وكيف أبقت نفسها عضوًا في مجتمع أفقر الفقراء، حتى عندما كان أغنى وأقوى قادة العالم يحتفون بها.

بعد العديد من الرحلات الناجحة إلى الهند، وشعور متزايد بالارتباط بالبلد، قررت البحث عن الأم تيريزا؛ كنت أرغب في لقائها. بعد فترة وجيزة، اكتشفتُ أن أحدًا في دائرة معارفي بدلهي كان مقربًا من الأم تيريزا، وأبدى استعداده لمساعدتي في التواصل معها.

كان ذلك في مايو من عام 1991، حينما كنت في دلهي لمقابلة مسؤولي البنك الدولي فيما يتعلق بمبادرة الجوع خاصتنا، عندما اتصل بي صديقي في وقت مبكر من صباح أحد الأيام ليقول إن الأم تيريزا وافقت على مقابلتي في الساعة السابعة من نفس الأمسية. شعرتُ بسعادة غامرة. لم أستطع تصديق أن هذا الحلم الذي لطالما راودني بالوجود في حضرتها قد تحقق في غضون ساعات قليلة. ألغيتُ أحد اجتماعاتي في الصباح، وذهبتُ إلى القداس في إحدى الكنائس بنيودلهي. وذهبتُ إلى محل لبيع الكتب، واشتريت ثلاثة كتب عنها، إذ فكرتُ أن عليَّ أن أكون أكثر اطلاعًا مما كنت عليه حتى أكون معها. قلقت بشأن ما سأقوله، وما سأرتديه. دخلت في زوبعة من القلق والرهبة والإثارة حيال الشرف الذي ينتظرني. حضرت الاجتماعات الأخرى التي لم أستطع إلغاءها، لكني كنت أبعد ما أكون عن الحضور؛ كان عقلي وقلبي منخرطين تمامًا في ترقّب الفرصة التي تمنيتها طوال حياتي.

رتب صديقي سيارة خاصة، وسائقًا يعرف الطريق إلى منشأتها ليقلّني من الفندق في الساعة السادسة مساء. كان من المفترض أن يذهب بي إلى دلهي القديمة، حيث رابطة المبشرين الخيرية التي تضم دار أيتام الأم تيريزا للأطفال المشردين والأيتام الذين تقل أعمارهم عن عامين. وصل السائق، وسرنا بالسيارة عبر شوارع نيودلهي إلى المدينة القديمة. بعد نحو خمس وأربعين دقيقة من البحث، دخلنا شارعًا ضيقًا للغاية، ومنه إلى بقعة حيث

عُلِّقت لافتة متواضعة على جدار حجري لأحد المداخل، تخبرنا بأننا وصلنا إلى رابطة المبشرين الخيرية – دار أيتام دلهي القديمة. أوقف السائق السيارة في الفناء الأمامي في انتظاري، وبينما أصعد الدرجات الثلاث إلى الباب العتيق، رأيتُ لفافة كبيرة من الجرائد المطوية على عتبة الباب، فانحنيتُ لألتقطها. داخل اللفافة وجدتُ رضيعًا ضئيلًا لا يزال يتنفس، لا يزال على قيد الحياة. كان الرضيع فتاة، حديثة الولادة، صغيرة وهزيلة للغاية. صُدِمتُ ورفعتها برفق من لفافة الجرائد، وضممتها بعناية داخل شالي.

فتحت الباب الخشبي العتيق، ودلفت إلى غرفة مضاءة بمصباحين متدليين من السقف بسلكين. كانت الأرضية الخرسانية النظيفة مطلية باللون الأزرق، وثمة تسعة وثلاثون سريرًا (نعم، قد أحصيتهم)، في كلٍّ منهم طِفلٌ أو طفلان صغيران. وكانت على الأرض حصائر إضافية مبطنة، عليها المزيد من الأطفال على ظهورهم يهدلون، أو جالسين يلعبون. ضمت الغرفة خمسين طفلًا دون الثانية من العمر –صاروا واحدًا وخمسين الآن مع الطفلة التي وجدتها على عتبة الباب– والأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها كانت أصوات الأطفال وهم يهدلون ويلعبون، تتخللها أصوات الراهبات والمساعِدَات وهن يتحدثن ويغنين بلطف للأطفال، ولبعضهن بعضًا.

سَلَّمتُ الطفلة الصغيرة إلى الراهبة التي استقبلتني. كانت ترتدي الساري المألوف باللونين الأزرق والأبيض، المميز لجماعة الأم تيريزا، وبدت سعيدة بوجود طفل صغير آخر تعتني به. عندما قدمتُ نفسي وطلبت مقابلة الأم تيريزا، أخبرتني الراهبة التي أشرفت على الحضانة أن الأم تيريزا ليست موجودة في الوقت الحالي؛ ذهبت إلى المدينة لتخليص فتاتين صغيرتين كانتا قد اتجهتا إلى الدعارة من السجن. كان يفترض بالأم تيريزا أن تعيدهما وتلتمس منهما المساعدة في رعاية أطفال دار الأيتام. في تلك الأثناء، دُعيتُ لغسل يدي ووضع المئزر، والانضمام إلى طاقم الحضانة لرعاية هؤلاء الصغار. ذهبت للعمل مباشرة.

في البداية، حَمَّمتُ طفلة عمياء لا بد أن عمرها كان نحو أربعة عشر شهرًا. ثم أعطوني طفلة ضئيلة مشوهة تبلغ من العمر ثلاثة أشهر، بساق مبتورة.

غنيت بينما أحمم جسدها الصغير المشوه. لطالما انجذبت إلى المحتاجين، وخاصة الأطفال المعوقين، أو المحرومين بشكل أو بآخر. كان هذا المكان جنة إلى حد ما بالنسبة إلي، وغرقت في حالة من القدسية.

كثيرًا ما نُقِلَ عن الأم تيريزا في القصص المروية عنها قولها: «إذا أردت أن تعرفني فانظر إلى عملي، فأنا عملي». والآن شعرت بحضرتها وأنا أطعم وأحمم وأقع في حب أولئك الأطفال. لقد نسيت نفسي في تلك المنشأة المباركة، ولا أعرف كم مر من الوقت قبل أن تُجفلني ربتة على كتفي من راهبة تنقل لي رسالة مفادها: «الأم تيريزا ستقابلك الآن».

قادتني عبر ممر خلف محراب صغير، حيث كانت نحو عشرين راهبة ينشدن صلاة المساء. ثم طلبت مني الانتظار على مقعد عند المدخل. كنت أمام رواق خاوٍ بلا زينة. واقتصر أثاث المدخل على طاولة خشبية بالغة البساطة، مع كرسيين ظهرهما إلى الحائط. وبينما أنا جالسة أنظر إلى الرواق الطويل المظلم، ظهرت شخصية منحنية صغيرة، عرفت على الفور أنها الأم تيريزا.

مشت عبر الظلال باتجاهي، وانحنت هيئتها المألوفة. اعتلت وجهها ابتسامة مشرقة. وبجانبها كان يسير بهدوء كلب لابرادور أسود، وقد بدا إخلاصه لها جليًّا. ها هي ذي، ها هي ذي الأم تيريزا أمامي. أرتج علي، وعجزت عن الكلام، فجثوت على ركبتي وقبلت الخاتم في إحدى يديها الصغيرتين المتغضنتين. ثم دون أن أشعر قبلت قدميها في خفيهما. وضعت يديها فوق رأسي للحظة، ثم أخذت يدي بين يديها وطلبت مني النهوض والذهاب معها إلى الكرسيين والطاولة، حيث يمكننا الجلوس والحديث. جلسنا معًا، وأوشكت أن أبكي بمجرد أن بدأت في الحديث. أخبرتها بأن خُطاها والتزامها كانا شعلة إلهام لي طوال حياتي. أخبرتها بالتزامي وانخراطي التام في عملي على إنهاء الجوع في العالم، وبأن هذا الالتزام بشكل ما قد نبع من نهجها، ومن الطريقة الشجاعة التي اختارت أن تعيش بها حياتها. طلبت منها أن تصلي من أجل ابني المريض ذي الرباع العشرين، ووالدتي التي تعاني من مرض السرطان، ثم بدأنا الحديث عن عملي.

كانت على علم بمشروع مكافحة الجوع وبي. كانت تعلم أنني زعيمة لمنظمتي، وتعلم أن إحدى مسؤولياتي هي جمع التبرعات. أخبرتني بأن جمع التبرعات هو عمل عظيم، وأنها معجبة بي، وبالشجاعة التي كان يلزم التحلي بها لتحمل مسؤولية تمويل جهود القضاء على الجوع.

وصفت نفسها بتواضع بأنها «قلم الرب»، وأخبرتني أنها استطاعت أن ترى في عيني ومن خلال عملي أنني أيضًا «أحد أقلام الرب». أثَّر فيَّ هذا الاعتراف بشدة. شعرت في حضرتها بحب غير مشروط، وصلة عميقة تربطني بالعالم بأسره، خنقتني العبرات، فأكملت حديثي مع انهيار دموعي.

انخرطنا بعمق في هذه المحادثة الحميمية، عندما قاطعنا ضجيج شجار وأصوات عالية قادمة من القاعة.

في البداية شممت رائحتهما، ثم سمعتهما. زوجان هنديان في منتصف العمر، رجل وامرأة، كلاهما بالغ الطول، بالغ الضخامة، يضعان عطرًا فواحًا للغاية، ويظهر عليهما الثراء الشديد. ظهرت المرأة أولًا تتقدم زوجها وتتحرك بعنف تجاه طاولة اجتماعنا الصغيرة. تدلَّت أقراط ماسية من أذنيها ومن أنفها، وغطت ذراعيها أساور فاخرة، كثير منها مرصع بالأحجار الكريمة. كانت تضع مساحيق تجميل كثيفة، وترتدي ساريًا باللونين الأزرق والأبيض، مغطى بالديباج الذهبي والفضي المطرز. كانت شديدة البدانة، وقد برز لحمها من الجزء الأوسط المفتوح من الساري المشدود.

كان زوجها أضخم حجمًا وأعرض، وأكثر بهرجة مما كانت عليه. اعتمر عمامة يتوسطها حجر من الزبرجد فوق جبهته مباشرة، وجلبابًا أبيض اللون مزركشًا، ووضع خاتمًا في كل إصبع من أصابع يديه. بدوا لي في هدوء هذا الرواق مثل وحشين يقتحمان مشهدنا الهادئ الحميمي.

دون أي تحية على الإطلاق لي أو للأم تيريزا، دَسَّت المرأة الضخمة الصاخبة كاميرا في يدي، بينما مضت هي وزوجها يشدان الأم تيريزا من كرسيها ويوقفانها أمام الحائط بينهما. ثم تدافعا مثل دفتي كتاب عملاق على جانبي الأم تيريزا مطالبين بالتقاط صورة لثلاثتهم.

اشتكت المرأة بصوتٍ عالٍ: «لم نحصل على صورة. إننا في حاجة إلى صورة!» وأشارت إليَّ لألتقط صورة بالكاميرا. اشتعلتُ غضبًا؛ جمال لحظتي مع الأم تيريزا تحطم في قبضة السخط الذي تأجج تجاه هذين الدخيلين الوقحين الموسرين. بينما ألتقط الصورة، تجادلت المرأة الطويلة مع الأم تيريزا لترفع نظرها إليها من أجل لقطة ثانية. كانت عنق الأم تيريزا منحنية بسبب الشيخوخة وهشاشة العظام. ولكن دون تردد، وضعت المرأة يدها تحت ذقن الأم تيريزا وأجبرتها على رفعها. صدمني أن يعامل أحد الأم تيريزا بهذه الطريقة، لكن -لأنني أردت انصرافهما- التقطتُ الصورة الثانية. حينها انتزعت المرأة الكاميرا وتوارت هي وزوجها في اندفاع صاخب إلى نهاية الرواق، دون كلمة شكر للأم تيريزا أو لي.

عادت الأم تيريزا إلى كرسيها عند الطاولة ومضت وكأن شيئًا لم يحدث تخبرني بأفكارها عن الموضوع الذي كنا نتحدث فيه سابقًا. لكنني بالكاد استطعت سماعها، أعماني غضب وسخط عارمان تجاه هذين الزوجين. شعرت بالدم يغلي في عروقي، وتعرَّقت راحتاي. ثم حان الوقت لإنهاء اجتماعنا. ودَّعتُها بأعين باكية. قَبَّلَتْ كلتا يدي، وقبلتُ يديها. تعانقنا، ثم افترقنا.

خرجت مرورًا بقاعة الأطفال إلى سيارتي المنتظِرة، واستقررتُ فيها مدة خمس وأربعين دقيقة استغرقتها الطريق إلى المنزل. كنت أنضح عرقًا وأتنفس بصعوبة، أعيد في ذهني مرارًا ذاك المشهد المروع المهين والوقح الذي حدث توًّا. تذكرت اللحظة التي أجبرت فيها المرأة الضخمة الأم تيريزا على رفع ذقنها، وكدتُ أنفجر غضبًا من جديد. راودتني أفكار رهيبة بشأن الدخيلين، واحتدم السخط بداخلي تجاه كل الأغنياء المتسلطين البغيضين والمتغطرسين. توتر جسدي وتغلغلت الكراهية فيَّ.

وبعد مرور نحو خمس عشرة أو عشرين دقيقة في رحلة عودتي إلى الفندق، أصبحت أكثر هدوءًا نوعًا ما. أدركت بشيء من الخجل كيف سمحت لنفسي بالانحدار إلى الكراهية والتحيز في حضرة أحد أكثر الكائنات الروحانية إلهامًا على هذا الكوكب. فكرت مجددًا فيما حدث، وأدركت أن الأم تيريزا لم تكن لديها مشكلة مع الزوجين الثريين. بالنسبة إليها، كانا طفلين

لا أقل ولا أكثر من الأيتام الذين ترعاهم، وقد عاملتهما بحب واحترام ثم عادت بهدوء إلى لقائها معي.

لطالما عددتُ نفسي منفتحة ورحيمة مع الجميع في كل مكان، لكنني رأيت الآن تعصبي الأعمى والحد الذي يتوقف عنده تعاطفي. رأيت تحيزي القبيح، تحيز ضد كل غني وقوي. لم يكن هذان الزوجان من شعبي، كانا شخصين عجزت عن تقبلهما، وإدراجهما في دائرة محبتي. كانا وقحين، كانا قبيحين. كانت تصرفاتهما مخزية ومشينة. وقد استطعت الآن أن أرى أن هذا اللقاء العابر مع هذين الزوجين الموسرين، وتصرفهما بالطريقة التي تصرفا بها، أتاحا لي لأول مرة أن أواجه وأعرف تحيزاتي الشخصية. لم أكن لأتخيل القوة التي سيمتلكها هذا الدرس في حياتي.

وصلت إلى الفندق في وقت متأخر بعد حلول الظلام. كنت منهكة من دوامة المشاعر التي تعرضت لها اليوم، منذ اللحظة التي عرفت فيها بالاجتماع في الصباح الباكر، إلى لحظة اللقاء الحقيقية معها، ثم المقاطعة المزعجة، وغضبي، ثم إدراكي وخجلي. أشعلت شمعة وجلست أكتب رسالة إلى الأم تيريزا. أخبرتها بكل شيء، بما في ذلك الغضب الجامح والكراهية، والاستياء الذي شعرت به تجاه زوارها. أخبرتها كم كنت مصدومة عندما واجهت تحيزاتي وحدود تعاطفي، حتى في حضورها. طلبت منها العفو والمشورة.

بعد أسبوع تلقيت رسالة منها بخط يدها. نبَّهَتني في ردها قائلة إنني على الرغم من إعرابي عن تعاطفي مع الفقراء والمرضى والمساكين والضعفاء طوال حياتي، فذلك لأن هذا هو المكان الذي يزدهر فيه تعبيري عن ذاتي بسهولة. قالت إن الحلقة المفرغة للفقر مفصَّلة بوضوح، ومعروفة على نطاق واسع. أما الأقل وضوحًا، الذي يكاد يكون غير معترف به البتة، فهو الحلقة المفرغة للثروة. لا أحد يعترف بالفخ الذي غالبًا ما تنصبه الثروة، ولا بمعاناة الأثرياء: الوحدة، والعزلة، وقسوة القلب، وجوع وفقر الروح الذي يمكن أن يحل عليهم مع عبء الثروة. قالت إنني لم أهب أي تعاطف يُذكر للأقوياء وذوي السلطة والأثرياء، على الرغم من أنهم يحتاجون إلى التعاطف بقدر ما يحتاج إليه أي أحد آخر على وجه الأرض.

قالت في رسالتها: «لا بد أن تفتحي قلبك لهم، وأن تصبحي تلميذة لهم قبل أن تكوني معلمة. افتحي وجدانك واحتويهم. هذا جزء مهم من عمل حياتك. لا تغلقي الباب في وجوههم، فهم أيضًا جزء من عملك».

كانت هذه فكرة صادمة بالنسبة إلي. بالطبع كان الأغنياء بشرًا ولديهم ويلاتهم، لكنني لم أفكر فيهم قط كمحتاجين. بدأت أدرك هذا الآن. لقد اشترت لهم أموالهم وسائل الراحة المادية، ومستوى حماية معينًا من متاعب وأعباء الحياة اليومية الأكثر اعتيادية. بيد أن أموالهم وأسلوب حياتهم المتميز قد عزلاهم أيضًا عن ثراء الحياة اليومية العادية، عن نعمة الأخذ والعطاء الطبيعية والصحية التي توفرها العلاقات والعمل المفيد، والتي هي أفضل ما في التجربة الإنسانية. إن ثروتهم غالبًا ما تشوِّه علاقتهم بالمال، وتوسع الفجوة بين حياتهم الروحانية وتعاملاتهم بالمال. الاعتداء الجنسي والاعتداء النفسي، وإدمان المخدرات والمشروبات الكحولية، والهجر، والوحشية، كلها جزء من عالم مختل تدور رحاه في مجتمعات قابعة خلف أسوار وقصور، ونوافذ سيارات داكنة. حالات رفض مؤلمة، ودعاوى حضانة، ومعارك قانونية لغرض الحصول على مزيد ومزيد من المال، والنتيجة هي تحجُّر أفئدة أفراد الأسرة، وكرههم لبعضهم بعضًا. يمكن لامتلاك المال والسلطة الوفيرة أن يفاقم هذه الحالات، وأن يجعلها أشد فتكًا ووحشية بشكل لا يطاق.

علمني تنبيه الأم تيريزا وعملي اللاحق مع الأثرياء لجمع الأموال أن الغِنَى -لدهشتي- لا يحمي من المعاناة الإنسانية. تعلمت أن أصحاب الثروات الطائلة -لا أعَمِّم، لكن معظمهم- يكافحون في حياة منعزلة عن سمات الروح، يعيشون محاصَرين في سجن امتياز تتوافر فيه وسائل الراحة المادية، لكن الحرمان الروحي والعاطفي فيه حقيقي ومؤلم. في ذلك السجن تنقطع صلتهم بقيم القلب. يمكن أن يصبحوا تجسيدًا للجانب المظلم للمال. وبالنسبة إلى بعضهم، يمكن للثروة أن تصبح مجرد سلاح يوسع من قدرتهم على إلحاق الضرر.

منذ اليوم الذي تلقيت فيه رسالتها، قطعت التزامًا بفتح قلبي ومقدرتي على التعاطف وحب الأغنياء وذوي السلطة بنفس عمق الالتزام الذي كَرَّسته

للفقراء والجوعى. بصفتي جامعة تبرعات عالمية، سنحت لي الكثير من الفرص لفعل ذلك، وقد رأيت الآن من كثب الحلقة المفرغة للغِنَى، والألم الذي يمكن أن تُلحِقَه بمن يقعون فيها. المال وحده لا يضمن حياة مُرضِية، والثروات الطائلة منه كثيرًا ما تكون عقبة في طريق تلك الحياة.

كان الجوع مُعَلِّمي

في تلك الأيام الأولى في عملي على مشروع مكافحة الجوع، كنت نموذجًا ساطعًا ومرئيًّا لقوة الالتزام، لأنني أيقنت –وما زلت موقنة– في صميم روحي أن من الممكن استئصال الجوع المزمن والمستمر على هذا الكوكب. كان هذا موقفي، وعندما تتخذ موقفًا كهذا وتعمل من منطلقه، تتخذ خطوات وتدابير مختلفة عن تلك التي تتخذها في حالة كنت تعتقد أن الجوع أمر لا مفر منه، وأن جهودك هي مجرد محاولة لجعله «ليس بهذا السوء». عندما تعلم على وجه اليقين أن الأمور لا يمكن تحسينها فحسب، بل يمكن حلها بالكامل، فإنك تنغمس في العمل بطريقة أكثر تعمُّقًا ورسوخًا. لا تعود تتساءل: «ماذا لو؟» بل تسأل: «كيف نفعل ذلك؟» تنظر إلى الأسباب الجذرية، وتتخذ اختيارات مختلفة.

بعد خمس سنوات ناجحة من التحدث وحشد الموارد في الولايات المتحدة وأوروبا لإنهاء الجوع، عندما وصلت أخيرًا إلى الهند وواجهت لأول مرة حجم وتعقُّد الجوع المزمن هناك، كنتُ محطمة، كنتُ سقيمة، ولكن لم يكن من مجال للتراجع؛ ليس كأن بإمكاني أن أقول: «آه، فهمت. لم أعد أريد الاستمرار في هذا الآن لأنه يبدو صعبًا للغاية». لم يخطر ذلك ببالي حتى. بدلًا من التراجع عن مهمة شاقة، أو الانسحاب من موقف يبدو مستحيلًا، أو التنازل عن الالتزام الأصلي والقول بأني لم أعنِ ذلك حقًّا، استمد مشروع مكافحة الجوع قوته من مبادئ التحول الشخصي وتمكين تقصِّي الذات.[1]

---

(1) تقصي الذات هو أسرع طريق للتحرر من الأنوية السامة، وهو وصية العارف الروحاني الهندوسي رامانا مهارشي.

من عليَّ أن أكون لأفي بالعهد الذي قطعته؟

أي نوع من البشر عليَّ أن أجسِّد كي أجعل ذلك يحدث؟

ما الموارد التي عليَّ أن أكون مستعدة لتسخيرها في نفسي وفي زملائي وفي عالمي؟

كان لمشروع مكافحة الجوع نهج فريد. كان كأنما وضع لأجلي، ليعكس نهجي الشخصي في الحياة. وقد أدركتُ بالتجربة أنك لا يمكن أن تخفق إن عِشتَ من هذا المنطلق، بل تصبح أداة أقوى لما هو مطلوب وأساسي لدعم الحياة البشرية. تتعمَّق روح التواضع لديك وتزداد شجاعتك. عندما تتخلى عن أنانيتك، وتوطِّن نفسك في النزاهة، وتنقِّب داخل روحك بحثًا عن العظمة، فسوف تجدها دائمًا هنالك.

بالنسبة إلي، تُرجِمَ ذلك إلى جمع التبرعات. لقد علمت أن بإمكاني أن أجمع -ولسوف أجمع- أي مبلغ من المال لإنجاز المهمة. لم يكن جمع التبرعات لإنهاء الجوع مجرد وظيفة أو هواية، أو موقفًا سياسيًّا بالنسبة إلي، إنما كان تعبيرًا عن التزامي الروحي، ومن ثم كان عليَّ أن أقوم به بطريقة تدعو الناس إلى إعادة التواصل مع هدفهم الأسمى، أو اشتياقهم الروحي، ليكونوا على النحو الذي طالما أرادوه، وأن يحدثوا الفارق الذي طالما أرادوا إحداثه، وأن يدركوا كيفية التعبير عن ذلك بأموالهم. لذلك، بدلًا من الشعور بأن جمع التبرعات هو نوع من ليِّ الأذرع أو التلاعب بالعواطف لاستدرار المال من المانحين، أصبح يمثل لي ساحة يمكنني فيها خلق فرصة للناس لممارسة عظمتهم.

في هذا البعد الروحاني لجمع التبرعات، في تلك المحادثات الحميمية، اكتشفت جروحًا وتناقضات عميقة في الطريقة التي ينظر بها الناس إلى أموالهم. كان أغلبهم يشعرون أن المال استنزفهم، وحوَّلَهم إلى نسخة لا يحبونها من أنفسهم. بعضهم كان يجبر نفسه على الذهاب إلى عمل لا مغزى منه. كان العديد منهم يشعر بالاستعباد بسبب الضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة، أو القهر الذي يفرضه رب العمل، أو بسبب عبء الاضطرار إلى إدارة مشروع عائلي، أو توظيف آخرين. كانت علاقتهم بالمال -مميتة

أو بمعنى أدق مفزعة- وجارحة، كانت تنضح بالمرارة، امتلأت بالتنازلات المؤلمة، بنوع من القساوة. غطت أرواحهم الكدمات والسحجات والندوب. كان أغلبهم مزعزعين، ومنهكين، لم يكونوا ببساطة بأحسن صورة لهم في علاقتهم بالمال. كانت حريتهم منقوصة أو معدومة مع المال، بغض النظر عن مقدار ما يملكونه منه.

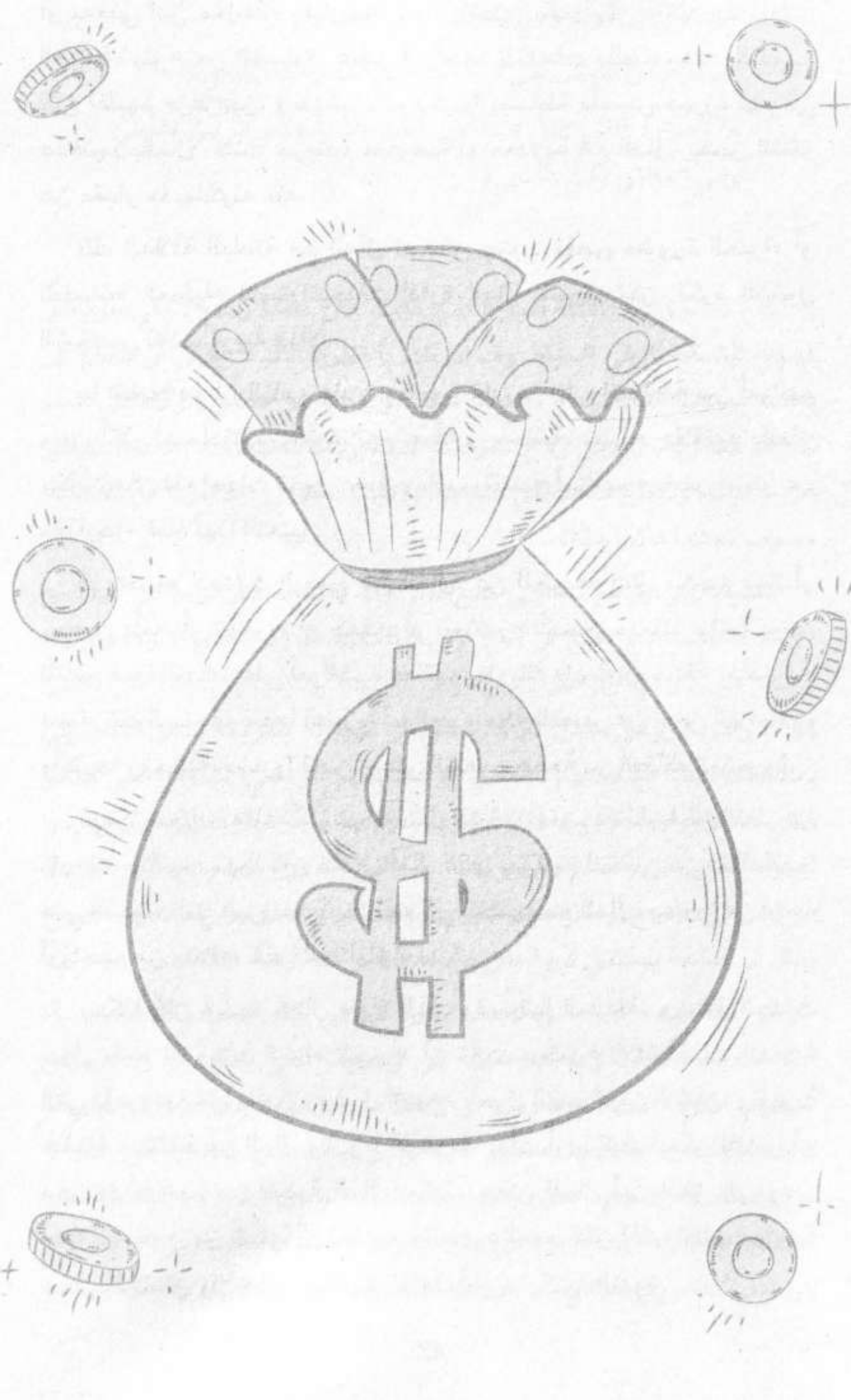
تلك العلاقة الباهتة مع المال لم تكن بسبب نقص مشورة الخبراء أو النصائح العملية؛ فاستراتيجيات إدارة المال كثيرة، لكن فكرة التحول الشخصي كانت غريبة هناك.

ما اتضح هو أن الناس عندما يكونون قادرين على المواءمة بين أموالهم وبين أكثر اهتماماتهم والتزاماتهم عمقًا وروحانية، تصبح علاقتهم بالمال مكانًا يمكن فيه إحداث تحول عميق ودائم. وتصبح أموالهم -بغض النظر عن مقدارها- قناة لهذا التغيير.

في خضم الحديث اليومي عن المال، عن الطريقة التي نكسبه بها، أو نحصل عليه، أو ندَّخره، أو ننفقه، أو نستثمره، أصبح حديثنا ساحة يمكن للناس فيها التركيز على أموالهم وحياتهم بطريقة ملهمة ومختلفة تمامًا. في فضاء تلك الساحة، عندما اعتبروا أموالهم وسيلة للتعبير عن أعمق التزاماتهم وأكثرها روحانية، صاروا قادرين على الشعور بدفعة من الطاقة المتحررة.

لم تكن مجرد لحظة تَجَلٍّ عرضية، بل فكرة ترافقهم دائمًا، بغض النظر عن ظروف حياتهم، مهما كان مقدار المال الذي يملكونه للتعبير عن التزاماتهم؛ ففي اللحظة التي غيروا فيها نظرتهم إلى أنفسهم مع المال، وعبروا عن نزاهة أرواحهم من خلاله، تلقوا المكافأة السارة.

وهكذا كان وسط جمال حياة الهند وقسوتها المذهلة، ووسط الحديث حول جمع التبرعات لإنهاء الجوع، أن رأيت بوضوح الافتراضات المعيبة التي نؤمن بها حول المال، وحول الروح، وحول الفجوة بين الاثنين، وظهرت حقيقة مختلفة عن المال والروح البشرية. بدأت أرى كيف يمكن للناس أن يحرروا أنفسهم من قبضة المال، وكيف يمكن للمال أن يتدفق إلى وعبر حياتهم بطرق من شأنها أن تغذيهم وتغذي عالمهم. لكن ذلك يتطلب مواجهة بعض الحقائق والأوهام الخطيرة، أولها وأبرزها: كذبة الندرة.



الجزء الثاني

الندرة والاكتفاء: رحلة البحث عن الثراء

3

الندرة: الكذبة الكبرى

ثمة قانون طبيعي للوفرة يسود الكون كله،
لكنه لن يتدفق عبر باب الإيمان بالنقص والمحدودية.

- ***بول زايتر***

لقد انغمست طوال هذه السنوات في حياة وظروف الناس، ورأيت العديد منهم يعيشون في ظروف ساحقة، حيث كل حركة وكل محادثة يسوقها نقص الطعام، أو الماء، أو المأوى، أو الحرية، أو الفرص. في حين رأيت آخرين يمتلكون ما يفوق احتياجاتهم بكل المقاييس: مال أكثر، طعام أكثر، سيارات أكثر، ملابس أكثر، تعليم أكثر، خدمات أكثر، حرية أكثر، فرص أكثر، الكثير من كل شيء. ومع ذلك، ومما يثير الدهشة، فإنه حتى في عالم الوفرة المفرطة ذاك، فإن محادثاتهم أيضًا كان يسيطر عليها الأشياء التي لا يملكونها، والأشياء التي يرغبون في الحصول عليها. إننا بغض النظر عن هويتنا أو ظروفنا دائمًا ما نسبح في بحر من الأحاديث حول الأشياء التي لا نملك ما يكفي منها.

أرى ذلك في نفسي. إن أول فكرة تخطر في بالي، وفي بال الكثيرين غيري عند استيقاظنا في بداية اليوم هي: «لم أحظَ بقسطٍ كافٍ من النوم». والفكرة التالية هي: «ليس لدي ما يكفي من الوقت». إن فكرة عدم –الكفاية سواء صحيحة كانت أو لا– تخطر لنا تلقائيًا قبل حتى أن نفكر في التشكيك فيها أو فحصها. نقضي أغلب ساعات وأيام حياتنا في الإنصات إلى، أو شرح، أو الشكوى من، أو القلق بشأن ما ليس لدينا كفاية منه. ليس لدينا وقت كافٍ، لا نحظى براحة كافية، لا نمارس الرياضة بشكلٍ كافٍ، لا نعمل بشكلٍ كافٍ، لا نحصل على أرباح كافية، ليس لدينا سلطة كافية، لا نستمتع بحياة برية كافية، لا نحظى بعطلات نهاية أسبوع كافية. وبالطبع لا نملك مالًا كافيًا –لا يحدث ذلك أبدًا–. لا نتمتع بذكاءٍ كافٍ، ولا بجمالٍ كافٍ، ولا بلياقةٍ كافية، ولا بتعليمٍ كافٍ، ولا بنجاحٍ كافٍ، ولا بثراءٍ كافٍ –لا يحدث ذلك أبدًا–. قبل حتى أن نستقيم جالسين في فُرُشِنا، قبل أن تمس أقدامنا الأرض، نكون قد شعرنا بالفعل بالقصور، نحن بالفعل متأخرون، بالفعل ضائعون، بالفعل نفتقر إلى شيء ما. وبحلول الوقت الذي نخلد فيه إلى الفراش في الليل، تتسابق عقولنا في طرح سلسلة من الأشياء التي لم نحصل عليها، أو ننجزها في ذلك اليوم. نذهب للنوم مثقلين بتلك الأفكار، ونستيقظ على فكرة الافتقار.

تهيمن ترنيمة عدم الكفاية على اليوم، وتصبح نوعًا من الوضع الافتراضي لتفكيرنا في كل شيء، من النقود في جيوبنا، إلى الناس الذين نحبهم، أو قيمة حياتنا. ما يبدأ كتعبير بسيط عن الحياة السريعة، أو حتى الحياة الملآنة بالتحديات، يتحول إلى مسوغ كبير لحياة غير مُرضِيَة، يصبح السبب في عجزنا عن الحصول على ما نريد، أو أن نكون كما نريد، يصبح السبب في عجزنا عن تحقيق الأهداف التي وضعناها لأنفسنا، أو السبب في أن أحلامنا لا تتحقق، أو السبب في أن الآخرين يخيبون آمالنا، أو السبب في تنازلنا عن نزاهتنا، أو يأسنا من أنفسنا، أو عدم اكتراثنا بالآخرين.

تسري الحال نفسها في الأحياء الفقيرة كما في الضواحي: في نيويورك، أو توبيكا، أو بيفرلي هيلز، أو كلكتا. سواء كنا نعيش في ظروف فقيرة إلى الموارد، أو في ظروف غنية بالموارد، حتى وإن كنا محمَّلين بثروات طائلة،

أو وفرة من السلع، أو أي شيء يمكن للمرء أن يحلم به أو يحتاج إليه، فإننا نعيش مع الندرة كافتراض ضمني. إنها شرط محدِّد للحياة لا مراء فيه، وأحيانًا ما يكون غير معلن. ولا يعني ذلك أننا نعاني بالضرورة من نقص في شيء ما، لكن تلك الندرة –الإحساس المزمن بقصور الحياة– تصبح هي المنطلق الذي نفكر منه، ونتصرف ونعيش في هذا العالم. إنها تشكِّل أعمق مشاعرنا تجاه أنفسنا، وتصبح العدسة التي نشهد من خلالها الحياة. من خلال تلك العدسة، تصبح توقعاتنا وسلوكنا وعواقبهما نبوءة ذاتية التحقق عن القصور والفقر وعدم الرضا.

تكمن عقلية الندرة وحالة الندرة تلك في صميم غيرتنا وطمعنا وتعصبنا وخلافاتنا مع الحياة، وهي متأصلة بعمق في علاقتنا بالمال. في عقلية الندرة تكون علاقتنا مع المال تجسيدًا للخوف، الخوف الذي يدفعنا إلى مطاردة لا نهاية لها من أجل المزيد، أو يدفعنا إلى تقديم تنازلات تَعِدُ بطريقة للخروج من مطاردة المال أو الانزعاج بشأنه. سواء في المطاردة أو في التنازلات، نحن ننفصل عن كمالنا ونزاهتنا الطبيعية. نخذل أرواحنا ونصبح أبعد وأبعد عن قيمنا الأساسية والتزاماتنا العليا. نجد أنفسنا محاصَرين في دائرة من القطيعة وعدم الرضا. نبدأ في تصديق الرسائل التجارية والثقافية التي يحركها الربح، والتي تقول بأن المال يمكن أن يشتري السعادة، ونبدأ في البحث خارج أنفسنا لنشعر بالرضا. ونحن نعلم بفطرتنا أن ذلك لن يحدث، لكن ثقافة المال تُخرِسُ الصوت الداخلي الأكثر حكمة، ومن ثم نشعر بأننا مضطرون إلى البحث عن سبل الراحة المؤقتة سريعة الزوال التي يمكن للمال شراؤها.

قد يقترح البعض أن الندرة هي الأساس الحقيقي والطبيعي والحتمي لعلاقتنا بالمال والموارد؛ فبعد كل شيء ثمة قدر معين محدود من كل شيء. منذ أكثر من مئتي عام، في وقت قريب من الثورة الأمريكية، أشار الفيلسوف والاقتصادي الإسكتلندي آدم سميث إلى أن «الجهد الطبيعي لكل فرد لتحسين وضعه» هو أقوى من أي عقبة في طريقه. ثم مضى ليضع المبادئ التأسيسية

لاقتصاد «السوق الحرة» الحديث –في ذلك الوقت– الذي تعتبر فيه «اليد الخفية» للمصلحة الشخصية هي أكثر قوة دافعة طبيعية ومهيمنة.

ولكن ما مدى طبيعية ودقة هذه الفرضية؟ كان العالم في ذلك الوقت – عالم المُنَظِّر الأوروبي الأبيض آدم سميث، الذي تلقَّى تعليمًا تقليديًّا– عالمًا رفض فيه أغلب ذوي البشرة البيضاء السكان الأصليين وذوي البشرة الملونة، ووصفوهم بأنهم «بدائيون» و«همج»، ولم يروا مدى حكمتهم وسعة حيلتهم التي لن تبدأ المجتمعات «المتحضرة» في الاعتراف بها إلا بعد أجيال قادمة. قبلت الطبقات البيضاء المهيمنة في ذلك الوقت التمييز العنصري والديني والجنسي، ومارسته فرضًا أخلاقيًّا واقتصاديًّا. في تلك الأيام، لم تكن المصلحة الذاتية والقومية تسترشد بعد بمفهوم الترابط العالمي، الذي صرنا نعلم اليوم كم يؤثر فينا وفي ثروتنا وأمننا بشكل عميق، ويوسع حتمًا حدود المصلحة الذاتية لتشمل رفاهية كل الناس في كل مكان. استندت المبادئ والهياكل الاقتصادية الأساسية لتلك الحقبة الماضية إلى افتراضات معيبة وتفكير خاطئ – حول الطبيعة، وحول الإمكانات البشرية، وحول المال نفسه.

يقول المؤلف الأوروبي المعاصر برنارد ليتير –وهو مسؤول كبير سابق في البنك المركزي البلجيكي وأحد المصممين الرئيسيين لعملة اليورو– في كتابه «Of Human Wealth»: إن الطمع والخوف من الندرة دخيلان، لا وجود لهما في الطبيعة، ولا حتى في الطبيعة البشرية. لقد أُدمِجَا في النظام المالي الذي نسبح فيه، والذي ظللنا نسبح فيه فترة طويلة، حتى إن تلك الظلال أصبحت شبه شفافة تمامًا بالنسبة إلينا. تعلمنا أن نعتبرهما سلوكًا طبيعيًّا مشروعًا. وقد خلص إلى أن نظام الاقتصاد الذي وضعه آدم سميث هو نظام يمكن وصفه بشكل أدق على أنه عملية توزيع للموارد المحدودة يسوقها الطمع الفردي. إن اقتصاد سميث «الحديث» كله قائم في الواقع على المخاوف البدائية من الندرة والطمع، وأداة التنفيذ –التي أصبح من خلالها كل هذا واقعًا– كانت المال.

عندما نخطو خارج ظلال هذا النظام المشوه البالي والعقلية الناتجة عنه، فإن ما نكتشفه هو أن الندرة كذبة. بصرف النظر عن أي قدر فعلي من

الموارد، فإنه منظومة معيبة وغير مدروسة من الافتراضات والآراء والمعتقدات التي من خلالها نرى العالم مكانًا نحن فيه في خطر دائم، خطر يتمثل في عدم تلبية احتياجاتنا.

من المنطقي افتراض أن أصحاب الثروات الطائلة لا يعيشون في خوف من الندرة في قلب حياتهم، لكنني رأيت أن الندرة طاغية في حياتهم تمامًا كما هي بالنسبة إلى من يعيشون على الهامش ويلبون احتياجاتهم بالكاد. لا شيء ينافي المنطق مثل أن يعتقد من يمتلكون فوائض هائلة أنهم لا يمتلكون ما يكفي. لقد صادفت ذلك مرارًا لدرجة اضطررت معها إلى التساؤل عن مصدر مخاوفهم؛ لا شيء في ظروفهم الفعلية يبرر ذلك. بدأت أتساءل عما إذا كان هذا القلق بشأن امتلاك ما يكفي يعتمد على مجموعة من الافتراضات، وليس الظروف. وكلما تمعَّنتُ في هذه الأفكار وتفاعلت مع أفراد من مجموعة واسعة من الظروف ومجموعة واسعة من الثقافات والأخلاق، تأكَّدَت رؤيتي بأن الافتراض الجوهري للندرة كان متفشيًا. كانت أسطورة الندرة ولغتها هي الصوت السائد في كل ثقافة تقريبًا، ويعلو على صوت المنطق والأدلة. وقد خلقت عقلية الندرة توجهات وسلوكيات مشوهة، وغير عقلانية حتى، لا سيما فيما يتعلق بالمال. ما اكتشفته هو أنه بغض النظر عن موقعنا على سلم الموارد السياسية أو الاقتصادية أو المالية، فإن أسطورة وعقلية الندرة تخلق خوفًا كامنًا من أننا ومن نحبهم أو نهتم لشأنهم لن نمتلك ما يكفي مما يلزم لنحظى بحياة مُرضِيَة أو سعيدة أو مثمرة، أو حتى صالحة للعيش.

إن عقلية الندرة ليست شيئًا نوجِده عمدًا، أو نُبيِّتُ النية لإحضاره إلى حياتنا عن قصد، بل هي موجودة من قبل وجودنا، وعلى الأرجح ستبقى لما بعدنا، خالدة في أساطير ولغة ثقافتنا المالية. ومع ذلك، لدينا خيار بشأن ما إذا كنا سنصدقها أم لا، وما إذا كنا سنتركها تتحكم في حياتنا أم لا.

أساطير الندرة السامة

لا سُلطة للأساطير والخرافات إلا بقدر ما نؤمن بها. ولكن عندما نؤمن، نعيش بالكامل تحت تأثير تعويذتها في ذاك الوهم. إن الندرة كذبة، لكنها مُرِّرَت على أنها حقيقة، وبأساطير قوية تؤكِّد نفسها، وتطالب بالإذعان، وتثبط التشكيك أو السؤال.

في عملي مع الناس من شرائح مختلفة على سلم المال والموارد، وجدتُ أن بإمكاننا تفكيك منظومة المعتقدات والافتراضات تلك، تلك الطريقة المهيمنة في النظر إلى الحياة، والابتعاد عنها قليلًا، وتحرير أنفسنا من قبضتها، وأن نرى بأنفسنا –كل منا في حياته– ما إذا كانت تلك طريقة صالحة لعيش الحياة. عندما نفكك عقلية الندرة إلى محتوياتها، نجد ثلاث أساطير مركزية استطاعت أن تحدد علاقتنا بالمال، وأن تحول دون وصولنا إلى تعامل أكثر صدقًا وإشباعًا معه.

الأسطورة السامة 1#: عدم وجود ما يكفي

أول أسطورة سائدة عن الندرة هي عدم وجود ما يكفي: لا يوجد ما يكفي لسد حاجة الجميع. ليس ممكنًا أن ينجو الجميع. لا بد من التخلي عن أحدهم. يوجد الكثير من البشر، أكثر بكثير مما ينبغي. لا يوجد ما يكفي من الطعام. لا يوجد ما يكفي من الماء. لا يوجد ما يكفي من الهواء. لا يوجد ما يكفي من الوقت. لا يوجد ما يكفي من المال.

أصبح عدم وجود ما يكفي سببًا في قيامنا بعمل يحطُّ من شأننا، أو سببًا في ارتكاب أخطاء لا نفتخر بها في حق بعضنا بعضًا. يولِّد عدم وجود ما يكفي خوفًا يدفعنا إلى التأكد من ألا نكون نحن أو من نحبهم الشخص الذي يتعرض للسحق أو التهميش أو التخلي عنه.

بمجرد أن نقرر أن عالمنا ناقص، يصبح إجمالي طاقة حياتنا، وكل ما نفكر فيه، وكل ما نقوله، وكل ما نفعله –بالمال على وجه الخصوص– تجسيدًا لجهودنا للتغلب على هذا الإحساس بالنقص وخوفنا من الخسارة أمام الآخرين أو التخلي عنا. يصبح من النبل والمسؤولية أن نحرص على

الاعتناء بمن يخصنا، بغض النظر عمن نعتبره كذلك. فإذا لم يكن هناك ما يكفي الجميع، بدا الاعتناء بنفسك وبمن تهتم لأمرهم -حتى ولو على حساب الآخرين- أمرًا مؤسفًا، ولكن لا مفر منه، بل وهو مشروع إلى حد ما. مثل لعبة الكراسي الموسيقية التي يلعبها الأطفال. بوجود عدد مقاعد أقل بمقعد واحد عن عدد اللاعبين، ينصبُّ تركيزك على عدم الخسارة، وألا تكون الشخص الذي ينتهي به المطاف في نهاية التدافع دون مقعد. لا نريد أن نكون الفقراء، لذا نتنافس لنجني أكثر من الآخرين، عازمين على البقاء متقدمين عن الهلاك الوشيك الذي يطاردنا.

ينعكس العوز والخوف على الطريقة التي ندير بها حياتنا، وعلى الأنظمة والمؤسسات التي ننشئها للتحكم في الوصول إلى أي مورد نعتبره ذا قيمة أو محدودًا. نحن أعضاء المجتمع العالمي تقودنا استجاباتنا المبنية على الخوف في بعض الأحيان -في الطلب على النفط الأجنبي على سبيل المثال- إلى وضع رغباتنا المادية فوق صحة وسلامة ورفاهية الشعوب والدول الأخرى. وفي مجتمعاتنا نحن، نستجيب لخوفنا من عدم وجود *ما* يكفي بإقامة أنظمة تصبُّ في صالحنا، أو تقصي الآخرين من الوصول إلى الموارد الأساسية، مثل المياه النظيفة، أو المدارس الجيدة، أو الرعاية الصحية المناسبة، أو السكن الآمن. وفي عائلاتنا، يدفعنا عدم وجود *ما* يكفي إلى شراء ما يزيد على احتياجنا -أو حتى رغبتنا- من بعض الأشياء، وإلى تقدير أناس أو تفضيلهم، أو تملُّقهم على أساس قيمتهم بالنسبة إلينا فيما يتعلق بالمال بدلًا من صفاتهم الشخصية.

الأسطورة السامة 2#: المزيد أفضل

الأسطورة السامة الثانية هي أن *المزيد أفضل*. المزيد من أي شيء أفضل مما لدينا بالفعل. إنها الاستجابة المنطقية إن كنت تخشى عدم الكفاية. لكن التفكير بهذه الطريقة يؤدي إلى ثقافة تنافسية قائمة على التكديس والاستحواذ والطمع، وهو ما يفاقم المخاوف، ويسرع من وتيرة السباق. ولا شيء من ذلك يزيد من قيمة الحياة. الحقيقة هي أن التدافع من أجل المزيد

يفصلنا عن خوض تجربة القيمة الأعمق لما نكسبه أو نمتلكه بالفعل. عندما نأكل أسرع مما يجب أو أكثر مما يجب، لا يسعنا تذوق ولو قضمة واحدة من الطعام. عندما نركز باستمرار على الشيء التالي –الفستان التالي، السيارة التالية، الوظيفة التالية، العطلة التالية، تحسين المنزل التالي– لا يعود بوسعنا أن نشهد النعم التي لدينا الآن. في علاقتنا بالمال، تلهينا أسطورة *المزيد أفضل* عن العيش بيقظة وثراء أكبر مع ما نملكه.

إن أسطورة *المزيد أفضل* هي مطاردة بلا نهاية، وسباق دون فائزين. إنها مثل عجلة هامستر نركض داخلها؛ ننطلق، ثم ننسى كيف نتوقف. ثم في النهاية يصبح السعي وراء المزيد ممارسة إدمانية، وكما هي الحال مع أي إدمان، يكاد يكون من المستحيل أن توقف العملية وأنت عالق في قبضته. لكن بغض النظر عن المسافة التي تقطعها، أو سرعتك، أو عدد الأشخاص الذين تتجاوزهم، لن يمكنك أن تفوز؛ ففي عقلية الندرة، حتى الكثير لا يكفي.

ليس من المنطقي بالنسبة إلى شخص يكسب أربعين ألف دولار سنويًّا أن يرى شخصًا غيره يكسب خمسة ملايين دولار سنويًّا ويجادل مع ذلك حول مكافأة نهاية الخدمة ويرغب في خمسة عشر مليون دولار أخرى على الأقل. بعض الناس الذين يملكون ثروات تكفيهم ثلاثة أضعاف أعمارهم يقضون ليلهم ونهارهم قلقين من خسارة أموالهم في البورصة، أو التعرض للسرقة أو الاحتيال، أو ألا يكون لديهم ما يكفي لتقاعدهم. يمكن أن تطمس هذه المخاوف والضغوط المالية أي إنجاز حقيقي لأي امتياز مالي في حياتهم. ما الذي عساه يدفع من يملكون ملايين الدولارات إلى الظن بأنهم في حاجة إلى المزيد؟ إنهم يظنون ذلك لأن الأسطورة السائدة تقول ذلك. الجميع يظن ذلك، ومن ثم يظنون هم أيضًا ذلك. حتى من يملكون الكثير لا يمكنهم التوقف عن المطاردة. المطاردة من أجل المزيد –بغض النظر عن ظروفنا المالية– تتطلب انتباهنا، وتستنزف طاقتنا، وتنتقص من فرصتنا في الشعور بالإشباع. عندما نصدق أن *المزيد أفضل*، لن يمكننا الوصول أبدًا؛ فأينما كنا لن نكتفي، لأن *المزيد أفضل* دائمًا. إن الأشخاص الذين يتبعون هذه العقيدة عن وعي أو عن غير وعي –وهذا يشملنا كلنا إلى حد ما– قد حُكِمَ عليهم بحياة خاوية من

الإشباع. إننا نفقد القدرة على بلوغ أي وجهة. لذلك حتى من يملكون الكثير، في ظل ثقافة الندرة هذه، لا يمكنهم التوقف عن المطاردة.

أسطورة *المزيد أفضل* تضللنا بطريقة أعمق. إنها تقودنا إلى تحديد هويتنا وفقًا للنجاح المالي والإنجازات الخارجية. نحكم على الآخرين بناءً على ما لديهم، وكم يملكون، وننسى العطايا الداخلية غير المحدودة التي يقدمونها للحياة. تخبرنا جميع التعاليم الروحية العظيمة أن ننظر إلى الداخل لنجد الكمال الذي نتوق إليه، لكن مطاردة الندرة لا تتيح أي وقت أو مساحة نفسية لهذا النوع من التأمل الذاتي. في سعينا وراء المزيد، نغفل عن السعة والاكتمال الموجودين داخلنا بالفعل في انتظار أن يُكتَشَفا. إن رغبتنا في توسيع صافي ثروتنا تلهينا عن اكتشاف وتعميق قيمتنا الذاتية.

الاعتقاد بأننا في حاجة إلى الامتلاك، وإلى امتلاك أكثر مما يمتلكه الطرف الآخر، أو الشركة الأخرى، أو الأمة أخرى هو القوة الدافعة لكثير من أوجه العنف والحرب والفساد والاستغلال الموجود على وجه الأرض. في حالة الندرة، نؤمن بأن علينا أن نملك المزيد – المزيد من النفط، المزيد من الأراضي، المزيد من القوة العسكرية، المزيد من الحصة السوقية، المزيد من الأرباح، المزيد من الأسهم، المزيد من الممتلكات، المزيد من القوة، المزيد من المال. وفي الحملة الرامية إلى الربح، غالبًا ما نحاول تحقيق أهدافنا بأي ثمن، حتى مع المخاطرة بتدمير ثقافات وشعوب بأكملها.

هل تحتاج البلدان الأخرى إلى الوجبات السريعة الأمريكية؟ أو مدن الملاهي؟ أو السجائر؟ أم وسعت الشركات الأمريكية أسواقها بدهاء على الصعيد الدولي لزيادة أرباحها بغض النظر عن تأثيرها على الثقافات المحلية، والزراعة، والاقتصاد، والصحة العامة على الرغم حتى من الاحتجاجات الواسعة على وجودهم في بعض الأحيان؟

هل نحتاج حقًّا إلى أو حتى نرغب في كل الملابس والسيارات والبقالة والأدوات التي نحضرها إلى المنزل في رحلات تسوقنا؟ أم أننا نتصرف باندفاعية، ونستجيب لنداء ثقافة المستهلك، والإغواء الصريح والمقصود للموضة والطعام والإعلانات عن المنتجات الاستهلاكية؟ هل يحتاج الطفل

البالغ من العمر خمس سنوات إلى أكثر من بضع هدايا عيد ميلاد مختارة بعناية ليشعر بالاحتفال؟ لصالح من نعطي الأطفال أكثر مما يحتاجون إليه؟ أو حتى يقدروه في المرة الواحدة؟

إن الرغبة الجامحة غير المبررة في المزيد تغذي الاقتصاد والثقافة وطريقة الحياة غير المستدامة التي خذلتنا، ومنعتنا من الوصول إلى الجوانب الأكثر عمقًا ومغزى في حياتنا وفي أنفسنا.

الأسطورة السامة 3#: هكذا تسير الأمور دائمًا

الأسطورة السامة الثالثة هي أن *هكذا تسير الأمور دائمًا*، ولا مفر من ذلك. لا يوجد ما يكفي لسد حاجة الجميع، والمزيد أفضل دون ريب، ولا يحظى بالمزيد إلا الآخرون. ليس هذا عادلًا، ولكن حريٌّ بنا أن نلعب اللعبة؛ لأن *هكذا تسير الأمور دائمًا*، ونحن في عالم ميؤوس منه وبائس، وغير منصف، وغير عادل، ولن يمكنك أبدًا الفكاك من هذا الفخ.

هكذا تسير *الأمور* دائمًا ليست سوى أسطورة أخرى، لكنها الأسطورة الأكثر سيطرة على الأرجح؛ لأنك تستطيع دائمًا الاحتجاج بها. عندما يسير أمر ما بطريقة معينة لفترة طويلة، وتجعله التقاليد أو التوقعات أو العادات مقاومًا للتغيير، عندئذ يبدو من المنطقي، والبديهي ببساطة أن الطريقة التي سار بها في الماضي هي الطريقة التي سيسير بها مستقبلًا. هنا يستقر العمى والخمول والغفوة، والأهم من كل ذلك التسليم بالندرة. يبث فينا التسليم مشاعر اليأس وانعدام الحيلة والتشاؤم. ويبقينا التسليم كذلك على الدرب، حيث يصبح نقص المال ذريعة للإحجام عن الالتزام والمساهمة –بما لدينا من وقت وطاقة وإبداع– لإحداث فارق. يمنعنا التسليم من التشكيك في مدى تنازلنا أو استغلالنا الآخرين في سبيل المال الذي تتيحه لنا وظيفة، أو مهنة، أو علاقة شخصية، أو فرصة عمل.

تبرر أسطورة *هكذا تسير الأمور دائمًا* الطمع والتعصب، والتقاعس الذي تعززه الندرة في علاقتنا بالمال، وبقية الجنس البشري. لقد حمت تلك الأسطورة على مر أجيال تجارة الرقيق الأمريكية القديمة، التي بنت

الأغلبية الثرية من خلالها المزارع والمدن والإمبراطوريات التجارية والثروات العائلية، والتي بقي الكثير منها حتى اليوم. وعلى مر أجيال أكثر عملت على حماية وتشجيع العنصرية المؤسسية، والتمييز الجنسي، والتمييز الاجتماعي والاقتصادي ضد الأقليات العرقية والدينية الأخرى. لقد مكنت عبر التاريخ –ولا تزال حتى اليوم– رجال الأعمال والقادة السياسيين غير الشرفاء من استغلال الآخرين لتحقيق مكاسبهم المادية.

وعلى الصعيد العالمي، تمكِّن تلك الأسطورة من يمتلك القدر الأكبر من المال من أن يمارس أكبر قدر من السُلطة، وأن يشعر بالتشجيع والحق في فعل ذلك. فالولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال تضم 4 بالمئة من سكان العالم، وتنتج 25 بالمئة من التلوث الذي يساهم في الاحتباس الحراري. وفقًا لتوقعات البيئة العالمية لعام 2000 –وهو تقرير بيئي للأمم المتحدة صدر عام 1999– فإن الاستهلاك المفرط للأقلية الغنية من سكان الأرض واستمرار فقر الأغلبية هما السببان الرئيسيان للتدهور البيئي. وفي الوقت نفسه، فإن الدول النامية التي تتبنى نماذج اقتصادية غربية –حتى في الديمقراطيات السياسية– تكرر الأنماط التي تضع القوة المفرطة في أيدي قلة من الأغنياء، وتصمم المؤسسات والأنظمة الاجتماعية التي تصب في صالحهم، وتفشل في معالجة أوجه عدم المساواة المتأصلة، والعواقب التي تقوض الصحة والتعليم وسلامة الجميع.

نحن نقول إننا نشعر بالسوء تجاه أوجه عدم المساواة في العالم، لكن المشكلات تبدو متجذرة بعمق لا يمكن التغلب عليه. لذا نستسلم لأسطورة *هكذا تسير الأمور دائمًا*، ونقر بأننا عاجزون عن تغيير الأمور. وبهذا التسليم نتخلى عن إمكاناتنا البشرية، وعن إمكانية المساهمة في عالم مزدهر ومنصف وصحي.

تمثل أسطورة *هكذا تسير الأمور دائمًا* أحد أصعب الأجزاء في تغيير علاقتنا بالمال، لأنك إن لم تستطع التخلي عن المطاردة، وقهر إحساس العجز والتشاؤم الذي ينتج عنها عاجلًا أو آجلًا، فأنت عالق. إن لم تكن مستعدًّا للتشكيك فيها، فمن الصعب دحر الأفكار التي جعلتك عالقًا. يجب أن نكون

مستعدين للتخلي عن أسطورة *هكذا تسير الأمور دائمًا*، حتى ولو للحظة، والتفكير في احتمالية ألا تكون ثمة طريقة محددة تسير بها الأمور، إنما ثمة طريقة نختار أن نتصرف بها، وطريقة نختار أن نستغل بها الظروف.

«الأقوال المأثورة» تحد من إمكاناتنا

في أي ثقافة تنقل الأساطير دروسًا أخلاقية، وقد أنتجت أساطير الندرة إرثًا من المعتقدات –«الأقوال المأثورة»– التي نعتنقها كحكمة شعبية أو حقائق شخصية. عندما كنت طفلة، اعتادت جدتي أن تقول لحفيداتها: «تزوجن المال، وسيأتي الحب لاحقًا». اعتدنا أن نضحك كلما قالت ذلك، وكانت تقهقه بعينين لامعتين، لكنها في الحقيقة آمنت بذلك؛ فهذا هو ما فَعَلَته. عندما تزوجت في عام 1900 تقريبًا، تزوجت أغنى رجل أمكنها العثور عليه، ثم وجدت طريقة لتحبه، وقد أرادت أن تمرر هذه النصيحة إلينا. وعلى الرغم من أننا كنا نضحك من تعليقاتها، فقد انطبعت فينا. كان على جميع حفيداتها فيما بعد الإفلات من منظومة المعتقدات في حياتنا إن أردنا أن نكون أحرارًا في العثور على شركاء محبين يتمتعون بمؤهلات أعمق من النقود.

في عقلية الندرة وأساطيرها، يعاني كل منا من أقوال مأثورة تدور حول المال. يصل إلينا بعضها في صورة أمثال شعبية، مثل تلك التي اعتادت جدتي ترديدها، والتي تقدم تعليمات ناقصة أو معيبة: *لا تنفق آخر قرش لديك. ما دمت مضطرًا إلى السؤال عن السعر، فلن يمكنك تحمله. المال ليس مهمًا. ليس من اللائق الحديث عن المال.* لكن الواقع هو أنه لا بد أحيانًا أن يكون المرء مستعدًا لإنفاق آخر قرش لديه لأهداف سامية، ولأن يراعي السعر كمسألة مبدأ، حتى وإن كان يملك أكثر مما يكفي لشرائه، ولأن يكون صريحًا ومنفتحًا بشأن المسائل المالية بدلًا من أن يكون مترددًا أو حذرًا.

الأقوال المأثورة الأخرى شخصية، من صنعنا نحن، وتعبر عنها أنماط سلوكنا الواعي أو اللاواعي فيما يتعلق بالمال. في بداية مسيرتي المهنية كجامعة تبرعات على سبيل المثال، كنت أعمل في الغالب على أساس تطوعي، ولم أشعر بمشكلة في طلب المال ما دام من أجل الآخرين. وفي حياتي

الشخصية، كان من دواعي سروري أن أدع زوجي يتعامل مع الشؤون المالية للعائلة، مما يعفيني من تلك المسؤولية المعقدة. ومع ذلك، بمرور الوقت، أدركت أن الدروس التي تعلمتها بلا قصد، والأقوال المأثورة التي ألفتها واتضح أنها مقيِّدة، كانت أنني لا أستطيع أن أتوقع كسب لقمة العيش من عملي، وأنني لست شريكة بالكامل ومسؤولة ومساهمة في الشؤون المالية لعائلتي. ما زلت أمنح وقتي وطاقتي بحرية، وما زلت أثق بزوجي في إدارة أمور الأسرة المالية، لكني أيضًا وسعت من خبرتي لأكون أكثر تقبلًا لكسب المال، وأكثر مسؤولية في إدارته. كانت هذه مسألة نضج شخصي بالنسبة إلي، وخطوة نحو بناء علاقة أكثر صدقًا مع المال.

ربما تبدو تلك الأقوال المأثورة مألوفة لك. أو ربما عملت من أجل المال معظم حياتك، لكنك كنت عزوفًا عن طلب زيادات تستحقها عن جدارة، أو بقيت في وظيفة لا مستقبل لها بدلًا من استثمار وقتك وطاقتك في البحث عن وظيفة جديدة، أو التدرب على نوع مختلف من العمل. ربما تنعم بميراث وتشعر بأن لك حقًّا في ثروة الأسرة، أو ربما تشعر بالذنب حيال ذلك. ربما تتجنب موازنة دفتر الشيكات أو دفع فواتيرك لأن الواقع الأبيض والأسود لهذه الأرقام يقول شيئًا لا تريد سماعه. ربما تخشى التصريح برأيك حيال المال في علاقة لأنك تخشى التداعيات. ربما تمنعك مخاوفك المادية من التصريح برأيك في أي شيء.

إن أغلب أقوالنا المأثورة عن المال هي نتاج لغة الندرة المقيِّدة في ثقافتنا. في تلك اللغة، توحي كلمة النجاح بأن أحدهم يجني الكثير من المال. ورجل الأعمال الناجح هو ببساطة من يجني الكثير من المال. لا تدخل جودة المنتج في هذا الحكم، أو مكان العمل، أو مستحقات الموظفين، أو أسلوب الإدارة، أو الممارسات التي تتبعها منظمته في الشراكة والمساهمة المدنية. في لغة الندرة، يظهر أولئك الذين يدرون أرباحًا كبيرة من الأعمال الاستغلالية أو غير المستدامة على أنهم أكثر «نجاحًا» من المعلمين على سبيل المثال، أو الموظفين العموميين الذين يجنون أقل، لكنهم يعملون على جعل مجتمعاتنا أماكن مستنيرة، ومراعية، وحانية للعيش والعمل.

إن لكلمة ثري جذورها في الرفاهية، والتي لا تعني فقط امتلاك مبالغ كبيرة من المال، ولكن أيضًا حياة ثرية ومُرضِيَة. وعلى النقيض من ذلك، غالبًا ما يؤدي المال الزائد إلى خلق شعور بالاستحقاق والعزلة يحد من وصول الفرد إلى الثروة الحقيقية المتمثلة في التواصل والتفاعل البشري.

تصف كلمتا *الفقر والإملاق* الظروف والبيئات الاقتصادية، ولكن هاتين الكلمتين تستخدمان في كثير من الأحيان بطرق تنتقص من إنسانية وإمكانات من يملكون القليل من المال.

جعلنا مصطلح «الفنانون الجياع»[1] نقبل بأن يكون الإبداع ذا قيمة متدنية في مجتمعنا. فهو يشير إلى أن أولئك الذين يعتمدون منا على المواهب الإبداعية لكسب عيشهم يجب أن يتوقعوا رواتب منخفضة، ويحق لبقيتنا استغلالهم، أو التقصير معهم من الناحية المادية، وبخسهم قيمتهم من الناحية الإنسانية.

هذه المسميات وغيرها من الأقوال المأثورة القائمة على الندرة هي مجرد تراكيب لغوية، لكنها صارت جزءًا لا يتجزأ من تفكيرنا، وبمجرد النطق بها تعزز أساطير الندرة، وتعطي المال قوة تدميرية هائلة. ثمة تدفق دائم للرسائل من وسائل الإعلام والإعلان والتسويق، ومن آبائنا وأجدادنا، ومن أصدقائنا يعزز ويوطِّن نفسه عميقًا في تفكيرنا، ويقودنا إلى الإيمان بعدم وجود *ما* يكفي. *عليك الحصول على حصتك. المزيد أفضل.* وعليك أن تلعب اللعبة.

بكمنستر فولر وعالم «أنا وأنت»

لقد كان في عملي لإنهاء الجوع والالتزام الذي أيقظه في داخلي أن بدأت أرى هذا البناء الكامل للندرة وأساطيرها، ولغتها، وأقوالها المأثورة المنتشرة. رأيت كم هي منغرسة في حياتي، وكذلك في حياة أصدقائي وعائلتي، وحياة من عملت معهم في بلدان فقيرة مثل بنغلاديش، وبلدان ثرية، مثل: فرنسا،

(1) مصطلح يطلق على الفنانين الذين اختاروا التضحية بالماديات وإغراءات عالم المادة للتركيز على فنونهم.

أو إنجلترا، أو الولايات المتحدة. وقد أتيحت لي الفرصة –فيما ثبت أنه نقطة تحول بالنسبة إلي– أن أستمع إلى العالم الاستقرائي والإنساني العظيم ريتشارد بكمنستر فولر (باكي). كان باكي في السبعينيات يتحدث على نطاق واسع عن أساطير العلوم الأساسية التي منعتنا من رؤية دقيقة للعالم وقدرته على استيعاب حياة مزدهرة للجميع.

أصبح باكي فيما بعد صديقًا ومرشدًا، ولكن في المرة الأولى التي سمعته يتحدث فيها، عرفته ببساطة عبقريًا مثيرًا للجدل –مصممًا ومهندسًا ومعماريًا–، الذي كان يلقي سلسلة من الخطب حول العالم بعنوان: «Integrity Days». كنت متطوعة عندما كان يلقي خطابه في سان فرانسيسكو، وفي قاعة احتوت على ألفين أو نحوهما من الحضور، أتذكر أنني جلست في الصف قبل الأخير من المقاعد أشاهد ذلك الكهل الضئيل البليغ المتألق على المنصة وهو يعبر بحماسة كبيرة عن أفكاره وتجلياته حول الطريقة التي يسير عليها العالم. لم تكن أفكاره بليغة فحسب، ولم تكن استفزازية فحسب، بل كانت ثورية وتحويلية كليًا بالنسبة إلي.

لقد تأثرت بحديثه وأوجه الاختلاف التي كان يطرحها، ولكن ما غير حياتي كان قوله بأننا قد عشنا قرونًا، وربما آلاف السنين نعتقد أنه لا يوجد ما يكفي لسد حاجة الجميع، وأن علينا أن نقاتل ونتنافس لكسب تلك الموارد لأنفسنا. ربما كان تصورًا صحيحًا في وقت ما، أو ربما لم يكن –كما قال– لكن في هذه المرحلة من التاريخ –في السبعينيات– صرنا قادرين على فعل المزيد بموارد أقل، لدرجة أن الأسرة البشرية قد وصلت بوضوح إلى نقطة فيها بالفعل ما يكفي الجميع في كل مكان لتلبية أو حتى تجاوز احتياجاتهم ليعيشوا حياة مثمرة وصحية نسبيًا. وقال إن هذه اللحظة تمثل تقدمًا دراماتيكيًا في تطور الحضارة والبشرية.

قال إنه سواء كان ذلك إدراكًا لشيء موجود بالفعل أو لحظة تحول في وضع الحضارات، في كلتا الحالتين يمكن أن يكون ذلك أهم نقطة تحول في تطورنا؛ لأنه يعني أننا نستطيع الانتقال من عالم «إما أنا وإما أنت» –عالم إما أنجو فيه أنا وإما تنجو أنت، حيث علينا التنافس والتقاتل لنرى من يفوز– إلى

عالم «أنا وأنت»؛ حيث نستطيع جميعنا النجاة. في هذا العالم يمتلك الجميع ما يكفي من الغذاء، وما يكفي من الماء، وما يكفي من الأرض، وما يكفي من المساكن، وما يكفي من الأساسيات ليعيش كل منا حياة مُرضِيَة ومثمرة.

كنا على مشارف لعبة مختلفة تمامًا، وقد تنبأ باكي أننا قد نحتاج إلى خمسين عامًا لإجراء التعديلات اللازمة في عالمنا حتى نتمكن من الانتقال من نموذج «إما أنا وإما أنت» إلى نموذج «أنا وأنت»، النموذج الذي يقول إن العالم يمكنه أن يسع الجميع دون إقصاء أي أحد أو أي شيء. وقال إن نظامنا المالي -نظام مواردنا المالية- سيتعين عليه تعديل نفسه لتجسيد ذلك الواقع، وقد يستغرق إجراء هذا التعديل منا عقودًا، ولكن لو فعلنا، فسوف ندخل حينئذ حقبة وزمنًا وعالمًا حيث الطرق الأساسية التي نرى ونفكر بها في أنفسنا وفي العالم الذي نعيش فيه مختلفة لدرجة يصعب معها التعرف عليه.

أسرتني هذه الخطبة، هذه الرؤية، والتجلي الفريد لتحول الأساس نفسه لطريقة تعاملنا مع بعضنا بعضًا، قلبت عالمي رأسًا على عقب. أتذكر أن دموعي بدأت في الانهمار وأنا جالسة أفكر في الآثار المترتبة على ما يقوله. أتذكر أنني فكرت في أن تلك ليست مجرد وجهة نظر مثيرة للاهتمام في محاضرة ثقافية، إنها لحظة من الإدراك الباهر والعميق لشيء عرفته طوال الوقت في صميم قلبي، وقد صاغه هذا العالم الاستقرائي الموقر -عالم يمتلك المعرفة والمؤهلات- وأجرى البحوث اللازمة لدعم هذا النوع من الفكر. لم تفارقني لحظة الإدراك العميق تلك قط.

كان باكي يعمل أيضًا من نظرة عالمية متغيرة لم تبدأ في الظهور إلا بعد أول هبوط بشري على سطح القمر، بواسطة طاقم *أبوللو 11* في صيف عام 1969. الصور التاريخية المذهلة من القمر للأرض قد أعطت البشرية أول رؤية واضحة لكوكبنا، والذي وصفه باكي بأنه «سفينة فضاء أرضية». في تلك اللحظة انتقلنا من كوننا جزءًا من نظام، إلى الابتعاد بما يكفي عن النظام، لدرجة استطعنا معها رؤية الأرض ككل، واستطعنا أن نرى هشاشتها وجمالها، وشموليتها، وكمالها الرائع. ولعلي أغامر حين أقول إنها كانت بداية تشكل مجتمع عالمي، ووعي عالمي، وإنسانية عالمية. ومن هنا أصبح هذا الإدراك للموارد المحدودة -ولكن الكافية- لهذا الكوكب بجميع من يعيشون

عليه –البشر والنباتات والحيوانات على حد سواء– هو الواقع المحتمل للمستقبل.

كانت تلك النظرة إلى مجتمعنا العالمي ورؤى باكي وتجلياته معي حينما انخرطتُ في جهود القضاء على الجوع.

سر الجوع وصراعنا مع الندرة

يبدو أن الجوع والندرة مرتبطان بشكل واضح وحتمي. كيف عساي أن أعمل في عمق الأماكن التي يندر فيها الطعام والماء، وفي الوقت نفسه أصرُّ على أن الندرة كذبة؟ كل ما يمكنني قوله هو أن الوقائع القاسية والمذهلة لتلك التجربة هي التي أجبرتني على النظر إلى أبعد مما هو واضح. لقد جاهدت لفهم مأساة الجوع. الجوع ليس مرضًا غامضًا، ليس جينًا متحورًا، أو قوة طبيعية جامحة، فنحن نعرف ما يتعين علينا فعله عندما نرى طفلًا جائعًا. نعرف ما يحتاج إليه المرء حينما يتضور جوعًا. إنه في حاجة إلى طعام. لا شيء في المشهد العالمي للموارد يفسر سبب جوع خُمسِ البشر ومعاناتهم من سوء التغذية. إن العالم غارق في الطعام؛ لدينا من الطعام على الأرض في هذه اللحظة أكثر مما نحتاج إليه لإطعام الجميع عدة مرات. وهو زاخر بالنفايات. في العديد من البلدان –بما فيها الولايات المتحدة– يحصل المزارعون على أموال مقابل عدم زراعة الطعام. كما أن تسمين الماشية يستهلك موارد كافية لإطعام كل طفل وبالغ جائع.

في عام 1977، عندما قَطَعتُ التزامًا بالعمل للقضاء على الجوع في العالم، افترضتُ أن الناس جياع بسبب أنهم لا يملكون ما يكفي من الطعام، وأننا لو أوصلنا الطعام فقط إلى الجوعى ستنحل مشكلة الجوع المزمن في العالم. بدا الموضوع كله منطقيًّا جدًّا. ولكن إذا كان الحل يكمن في تطابق إمدادات الغذاء العالمية مع عدد الجياع في العالم، فما الذي عساه يفسر الإحصائيات والحقائق المأسوية العنيدة للجوع التي يبدو معها أننا عاجزون عن إيجاد حل؟ كيف يمكن أن يموت 41000 إنسان –معظمهم من الأطفال دون سن الخامسة– كل يوم من الجوع والأسباب المرتبطة بالجوع في عالم به طعام يكفي ويزيد لسد حاجة الجميع؟

هل يُعقَلُ أن لا أحد يهتم؟ عندما يستغيث الأطفال الجوعى طلبًا للطعام فإنهم لا يستغيثون بصفتهم بنجلاديشيين أو إيطاليين، أو أطفالًا من الحي الفقير من بلدتنا، إنهم يستغيثون بصفتهم بشرًا. وبهذا المستوى من بشريتنا، علينا أن نستجيب. ألا نستطيع سماع هذه الاستغاثة والاستجابة كأفراد مهتمين من أسرة البشر؟ ما الذي يدفع الكثير منا إلى غض الطرف وصم الآذان عن صرخة طفل، وإلى اختيار أن يعتنوا «بمن يخصُّهم» فقط، حتى عندما يكون لدينا الكثير لإطعام «من يخصُّنا» والآخرين أيضًا؟

ومع ذلك، لو أن الاهتمام هو الحل، فلماذا لا تؤدي التبرعات الضخمة من الطعام والمال التي يقدمها بعض الناس إلى حل دائم؟

هل يمكن أن تكون المشكلة في التوزيع؟ كيف ذلك، في حين أن المشروبات الغازية الأمريكية هي عمليًّا في متناول الجميع على وجه الأرض؟

هل يمكن أن تكون مشكلة لوجستية؟ كيف ذلك، في حين أن أقوى الدول مثل دولتنا لديها قدرات لوجستية لإيصال الصواريخ والقنابل المسلحة لشن ضربات عسكرية دقيقة في أي مكان في العالم تقريبًا؟

هل هي السياسة؟ هل نحن من الأنانية والانتهازية لدرجة أننا ندع طفلًا جائعًا يموت لأننا نختلف كبالغين حول الأيديولوجيات السياسية أو الاقتصادية؟

ما الذي يجعلنا نسمع الاستغاثة ونخفق مع ذلك في الاستجابة بشكل فعال؟ كلما طال الوقت الذي أقضيه مع أناس يعيشون في جوع، ومع أناس يعملون أو يقدمون المال لإطعامهم، رأيت بوضوح أن السبب في الجوع المزمن لا يكمن فقط في غياب الطعام. إن ما يسبب الجوع والمجاعة أمر أكثر عمقًا من ذلك؛ لأنه مهما كانت كمية الطعام التي يمكنك نقلها من النقطة أ إلى النقطة ب –على الرغم من أنها قد تحدث فرقًا هائلًا لعدد من الأشخاص فترة من الوقت– فإنها لا تحل مسألة الجوع.

يعلمنا التاريخ هذا الدرس. لقد أدى تدفق المساعدات إلى إثيوبيا في عام 1985 إلى إطعام الكثير من الناس فترة من الوقت، لكنه لم يحل مشكلة الجوع في ذلك البلد. لا تزال إثيوبيا دولة جائعة وفقيرة. وقد أطعمت المساعدات الغذائية المرسلة إلى الصومال خلال الأزمة التي حدثت هناك في عامي 1993

و1994 قليلًا من الجياع، لكنها في الواقع أججت العنف والفساد اللذين انتشرا إبان الحرب الأهلية هناك. المساعدات الغذائية التي تدفقت إلى بيافرا خلال حرب بيافرا، والمساعدات الغذائية إلى كمبوديا خلال الأزمة الكمبودية، لم تكن أي من المساعدات أمرًا سيئًا، فقد أمدَّت بعض الناس بالطعام، لكنها أيضًا لم تحل مشكلة الجوع المزمن والمستمر على المدى الطويل.

في تلك الأحداث التي شهدت عمليات ضخ هائلة للمساعدات الغذائية، مرة تلو أخرى، إلى الحد الذي أصبحت معه عملية روتينية، كانت المساعدات الغذائية تتعرض للسرقة، ويُعاد بيعها من قبل سماسرة السلطة الفاسدين، الذين يتغذون على الجشع والكسب غير المشروع المنتشر في البلدان المحاصرة. وعلاوة على ذلك، أدت الكميات الضخمة من المساعدات الغذائية إلى انكماش السوق المحلية، مما يعني أن هؤلاء المزارعين الذين زرعوا الحبوب لم يعد بإمكانهم بيعها، لأن الطعام المجاني كان موجودًا في كل مكان –لفترة على الأقل– حينما انتهى التدافع على تخزينه والسيطرة عليه. أصبحت الحلقة الكارثية للمساعدات والفساد والأسواق المعطلة والاستثمارات الزراعية الكارثية جزءًا من مشكلة بدلًا من حل. ولم تؤدِّ تلك الحلقة إلا إلى استمرار الأسباب الجذرية للأزمة.

في نهاية المطاف، كان التأثير المجتمعي لذاك النوع من المساعدات الضخمة هو أن الناس في الطرف المتلقي –حتى من حصلوا على حصة من الطعام– أصبحوا أكثر عجزًا، وأشد فقرًا مما كانوا عليه من قبل. لقد شعروا بالوهن والعجز بسبب حقيقة أنهم لا يستطيعون الاعتناء بأنفسهم، صاروا متلقين للمعونة، ويدينون بالفضل للغرباء لإنقاذهم مرة تلو أخرى. أحسُّوا بالضآلة والضعف، وغالبًا ما قُمِعَت الفرصة المستقبلية لاكتفائهم الذاتي، وتقلصت بسبب السلوك الذي كان عليهم إظهاره وعرضه في هذه المواقف للحصول على الطعام «المجاني». في كل مرة تدفقت فيها الأموال أو المساعدات إلى المجتمعات من خلال أنظمة تستند إلى افتراضات الندرة هذه، كانت الانفراجة قصيرة الأجل، وتترك طرفي الصفقة شاعرين بالعجز.

لقد ناضلت مع هذا السؤال سنوات –كما ناضل معه كل من يجاهد للقضاء على الجوع– بحثًا عن إجابات قد تقترح حلًا لهذه المأساة المستمرة. عندما

تأملت المعتقدات الكامنة التي يتشاركها جميع البشر في كل مكان –كل نظام، كل مؤسسة، كل وجهة نظر، وحتى كل أولئك الذين يعانون من الجوع– أدركت أن هناك افتراضات جوهرية عطلت كل جهد تقريبًا لحل المشكلة. يمكن أن تعزى جميعها إلى الأساطير، وعقلية الندرة.

بغض النظر عن ظروفنا الاقتصادية:

عندما نعتقد أنه *لا يوجد ما يكفي*، وأن الموارد شحيحة، حينها نتقبل أن البعض سيحصل على ما يحتاج إليه والبعض الآخر لن يفعل. نبرر لأنفسنا أن أحدهم مُقَدَّرٌ له أن ينتهي بالطرف الأقصر من العصا.

عندما نعتقد أن *المزيد أفضل*، وأن نساوي بين امتلاك المزيد وأن نكون أكثر ذكاءً أو قدرة، عندها يفترض أن الآخرين الذين يفتقرون إلى تلك الموارد هم أقل ذكاءً وقدرة، بل وحتى أقل قيمة كبشر. ونشعر بأن من حقنا استبعادهم.

عندما نعتقد أن *هكذا تسير الأمور دائمًا*، فإننا نتبنى موقفًا يائسًا. نسلم بأن المشكلة غير قابلة للحل. نتقبل حقيقة أن لا أحد من أفراد أسرة البشر –الأغنياء منهم والفقراء– يمتلك ما يكفي من المال، أو الطعام، أو الذكاء، أو الحيلة ليعطي حلولًا دائمة.

من خلال الطعن الممنهج في الفرضيات الخاطئة حول الجوع المزمن والمساعدات الغذائية، كشف مشروع مكافحة الجوع أسطورة الندرة، وفتح مجالات جديدة للأسئلة والاحتمالات، ونجح في النهاية في تقديم مساهمة كبيرة في القضاء على الجوع، وذلك من خلال تمكين الناس من ملء سطور تعافيهم بأنفسهم. في جميع الحالات، سواء أفرادًا كانوا أو مجموعة كبيرة من السكان. كان الكشف عن أكاذيب وأساطير الندرة هو الخطوة الأولى والأقوى في التحول من العجز والاستسلام إلى التمكن والاعتماد على الذات.

إننا كثيرًا ما نفلسف التساؤلات الكبرى غير المجابة عنها في الحياة. وقد حان الوقت للنظر إلى الإجابات التي لا مجال للتساؤل فيها. والإجابة الأكبر في ثقافتنا هي علاقتنا بالمال، ففيها نحتفظ بشعلة الندرة وأساطيرها حية، وندفع ثمن ذلك باهظًا.

4

الاكتفاء: الحقيقة المدهشة

عندما تتخلى عن محاولة الحصول على المزيد مما لا تحتاج إليه فعلًا، تحرر بذلك محيطات من الطاقة تمكنك من إحداث فرق بما تملكه. وعندما تحدث فرقًا بما تملكه، فإنه يتوسع ويتضاعف.

لقد مر ما يقرب من عشر سنوات منذ لقائي الأول شعب الأشوار الأصليين في الإكوادور، ولكن لا يزال يمكنني أن أتذكر تجربة لقائهم، وكوني بينهم لأول مرة –وهو نوع من التجارب مختلف تمامًا عن مقابلتي الأولى للجوع والفاقة في الهند–. في الغابات المطيرة مع الأشوار، رأيت أناسًا يتمتعون برخاء الطبيعة، لم يربحوا في مباراة اقتصادية تنافسية لينعموا بالرخاء، ولم يحققوا هذا الرخاء على حساب أي أحد. لم يتغلبوا على أي أحد في أي شيء. كان رخاؤهم وليدًا لطريقة تعاملهم مع أنفسهم ومع بعضهم بعضًا، ولأنهم يعيشون وفقًا للقوانين الحقيقية، القوانين الثابتة لعالم الطبيعة، التي تحكمنا جميعًا في النهاية.

كانت ثقافتهم خالية من المال؛ فقد حدثت أول مواجهة لهم معه حينما غامروا بالخروج من الغابة، وكان بالنسبة إليهم شيئًا غريبًا وإضافيًّا، ليس جزءًا من حياتهم اليومية، أو حتى من وعيهم. وعلى الرغم من عدم وجود مال،

أو ملكية، أو اكتناز للسلع، أو أي من وسائل الراحة التي يزخر بها أسلوب حياتنا الغربي، لم يكن لديهم ما يوحي بالندرة، لا نقص، ولا خوف من عدم وجود ما يكفي لسد احتياجاتهم. لا مطاردة من أجل المزيد، ولا استسلام، أو اعتقاد بأنهم يعيشون حياة أقل من غيرهم. عاشوا، وما زالوا يعيشون تجربة الكفاية، أو ما أسميه: الاكتفاء. بدلًا من السعي وراء المزيد، يعتزون بما هو موجود بالفعل ويخدمونه بعناية. الواقع أن جهودهم اليوم مكرسة لحماية الموارد الموجودة هناك –في الغابات المطيرة– من أجلنا جميعًا. الثروة بالنسبة إلى الأشوار تعني شعورهم بسعة وثراء اللحظة، ومشاركة ذلك مع بعضهم بعضًا.

وبالنسبة إلى من يعيشون منا في ثقافات المال، فلم تزل لدينا فرصة العثور على نفس الاتزان والحرية في بيئتنا، وفي وجود المال. إن أحد أعظم الدروس وأكثرها إثارة للدهشة عن الاكتفاء وعلاقتنا بالمال تعلمتها من أناس كان نصيبهم من المال قليلًا أو معدومًا، مثل الأشوار، أو من أناس واجهوا أعتى الصراعات للنجاة في مواقف لا يمكننا حتى تخيلها. تجلى أحد هذه الدروس في قرية نائية في السنغال.

السنغال بلد ساحلي صغير في أقصى الطرف الغربي للقارة الإفريقية. خلال فترة تجارة الرقيق الأولى كان مستعمرة فرنسية مزدهرة، ولا تزال قلاع مالكي العبيد التاريخية بأبراجها المحصنة التي تشبه السجون قائمة حتى اليوم، وقد صارت الآن مناطق جذب سياحي، ونصبًا تذكارية كئيبة للوحشية البشرية والاقتصادية في ذاك الوقت.

تغطي المنطقة الأكبر من السنغال صحراء الساحل الشاسعة والزاحفة، التي تتوسع كل عام تجاه البحر. وتعد منطقة الساحل بيئة قاسية، غير صالحة للعيش، حتى بالنسبة إلى النباتات والحيوانات التي بطبيعتها صحراوية. رملها ناعم كالغبار، وله ظل برتقالي باهت. نعومته وسهولة انتشاره تجعلان كل شيء بالقرب من حافة الصحراء مغطى بالرمال البرتقالية المصفرة: الشوارع، والمنازل، والنباتات، والطرق، وحتى الناس.

كنا هناك –ثمانية عشر من مساهمي وزعماء مشروع مكافحة الجوع– لمقابلة أهل قرية في قلب الصحراء، والحديث عن حاجتهم إلى إيجاد مصدر جديدٍ للمياه، أو مكان جديد للعيش. عندما انطلق سائقونا بعرباتهم على الطريق من المدينة إلى عمق الصحراء نفسها غُطِّينا بتلك الرمال بالغة النعومة، أخذت تنسل إلى رئتينا مع كل نفس. وفي أثناء قيادتنا على الطريق الوعرة تجاه الريح البرتقالية، قلت أعداد من نراهم من الناس والنباتات والحياة البرية، ثم سرعان ما اختفى كل شيء باستثناء الأرض القاحلة. كان الجو حارًا وجافًا، يتجاوز 95 درجة فهرنهايت، وكنت أعتمر قبعة وأضع منديلًا على وجهي لتجنب تنفس الرمال. كانت الصحراء جرداء لدرجة بدا معها من المستحيل أن يعيش أي إنسان في هذا المناخ.

سرنا فترة على طريق وعرة غير ممهدة، ثم اختفت في الرمال، وبدأ سائقونا القيادة في الصحراء المفتوحة اعتمادًا على البوصلة فقط. كان سائقونا السنغاليون يعرفون الصحراء جيدًا، وعند نقطة معينة توقف السائق الرئيسي في السيارة الأمامية وأوقف المحرك، ثم فعل الاثنان الآخران نفس الشيء. وبعد هنيهة، استطعنا سماع صوت الطبول الخافت. ابتسم سائقنا الرئيسي، وشغل محركه، وبدأ يقود سيارته نحو صوت الطبول. في أثناء القيادة، ارتفعت أصوات الطبول شيئًا فشيئًا، وسرعان ما استطعنا رؤية بقع صغيرة متحركة في الأفق. بينما نقترب أكثر فأكثر، ظننا أن البقع حيوانات من نوع ما، ثم عندما ازددنا قربًا أدركنا أنهم أطفال، عشرات الأطفال يركضون نحو سياراتنا، يتفجرون حماسة.

كنا في مكان لا تظهر فيه أي بوادر للحياة، ويرحب بنا أطفال مبتهجون مهللون يفيضون بالحيوية والنشاط. اغرورقت عيناي بالدموع، واستطعت رؤية رفاقي في السفر يتأثرون بنفس الطريقة بتلك التحية البهيجة. استمر المزيد من الصغار في التدفق نحونا، وقد انتصبت على مسافة خلفهم شجرتا باوباب كبيرتان وحدهما في الفضاء الشاسع المقفر. الباوباب شجرة منقذة للحياة، يمكن أن تنمو من دون ماء تقريبًا، وتوفر الظل، وحاجز طبيعي لصد الرياح للناس الذين يعيشون في الصحراء.

أمامنا، وتحت شجرتي الباوباب، تجمع نحو مئة وعشرين شخصًا في الظل الثمين. كان الطبالون في ساحة وسط الحشد، واستطعنا أن نرى بعض النساء يرقصن داخل الدائرة. وعندما تقلصت المسافة بيننا، ملأ قرع الطبول الهواء بطاقة حماسية، وبدا أن الاحتفال يزداد حدة. أقللنا بعض الأطفال ومنحناهم جولة بسياراتنا بينما ركض الآخرون إلى جانبها. بدا أن هذا المشهد المذهل نشأ من العدم. ها هم أولاء رجال ونساء وأطفال يرقصون ويقرعون الطبول، ويهتفون ويصفقون، ويصيحون بعبارات الترحيب لوفدنا الصغير الزائر.

خرجنا من سياراتنا، وركضت عشرات النساء إلينا مرتديات ملابس سنغالية تقليدية جميلة مع أغطية للرأس وفساتين طويلة فضفاضة وملونة. كانت الطبول تدق، والأطفال يصرخون، والنساء يصحن بسرور، والرجال يغنون. كان ترحيبًا لا مثيل له.

بدا أنهم يعرفون أنني القائدة، فسحبوني إلى وسط الدائرة، حيث رقصت النساء حولي ومعي. جرفتني اللحظة وأنا أحرك جسدي في انسجام مع أجسادهن في إيقاع طبيعي مُحرّر. هلّلوا وصفقوا. انضم إليَّ زملائي المسافرون، ورقصنا وصفقنا وضحكنا معًا. بدا وكأن الزمان والمكان توقفا. لم يعد الطقس حارًا أو جافًا، لم يعد رمليًا أو عاصفًا، اختفى كل ذلك، وغشانا الاحتفال. كنا على قلب رجل واحد.

ثم توقفت الطبول فجأة. آن للاجتماع أن يبدأ. جلس الجميع على الرمال. عرف الرئيس عن نفسه، ووجه لي تعليقاته. وبمساعدة مترجمنا، أوضح الرئيس أن قريتهم تقع على بعد عدة كيلومترات، وأنهم جاؤوا للترحيب بنا ممتنين لتطوعنا بالشراكة. قال إنهم أناس أقوياء وقادرون، وإن الصحراء هي موطنهم الروحي، لكنهم وست عشرة قرية أخرى تقع إلى الشرق قد بلغوا نقطة تدفعهم فيها ندرة الماء إلى الحافة بلا خيارات متاحة. لم يعرف قومهم سوى الحياة في هذه الصحراء، وهم فخورون بهذه الأرض، لكنهم يدركون أن ليس باستطاعتهم الاستمرار دون بعض التغيير في وضع المياه.

لم تُقدَّم خدمات حكومية لهؤلاء الناس حتى في أوقات الأزمات. كانوا قومًا أميين، لم يتم احتسابهم في التعداد. لا يستطيعون حتى التصويت. لم تكن حكومتهم تكن لهم تقديرًا يُذكَر. كانت لديهم قدرة هائلة على التحمل، لكن آبارهم الضحلة قد أوشكت على الجفاف، وكانوا يعلمون أنهم سيحتاجون إلى شيء خارج تفكيرهم الحالي ليستطيعوا عبور موسم الجفاف التالي.

كانوا مسلمين، وعندما جلسنا معًا في حلقة لمناقشة الوضع، تولى الرجال زمام الحديث. لم تكن النساء في الدائرة الأساسية، بل جلسن في الدائرة الثانية، حيث يستطعن السماع والمشاهدة، لكنهن لم يتحدثن. استطعت أن أستشعر قوة النساء من خلفي، وشعرت بأنهن سيلعبن دورًا أساسيًّا في الحل. في هذه الأرض القاحلة ذات اللون البرتقالي، لم يبدُ من الممكن وجود حل، لكن موقف أولئك الناس وصمودهم وكرامتهم كان لها رأي آخر. كان ثمة مخرج، ومعًا سنجده.

ثم طلبت مقابلة النساء على حدة. كان مطلبًا غريبًا في هذه الثقافة المسلمة، حيث الملالي والرئيس مخولان للتحدث نيابةً عن الجميع، لكنهم سمحوا بذلك. اجتمعت النساء من مجموعتي ونساء القبائل معًا على الأرض الساخنة، واقتربن من بعضهن بعضًا. كان مترجمنا رجلًا، وسمح له الملالي بالانضمام إلينا.

في هذه الدائرة من نساء القبائل، تولت العديد من النساء القيادة، وتحدثن على الفور، وقلن إن من الواضح لهن أن ثمة بحيرات تحت الأرض أسفل المنطقة، يمكنهن الشعور بها، ويعرفن أنها هناك. رأينها في الرؤى، واحتجن إلى مساعدتنا للحصول على إذن من الرجال لحفر بئر عميقة بما يكفي للوصول إلى الماء. لم يسمح الرجال بذلك، لأنهم لم يصدقوا أن الماء موجود، ولم يرغبوا أيضًا في قيام النساء بهذا النوع من العمل؛ ففي عرفهم، يُسمح بأنواع معينة من العمل للنساء. النسيج والزراعة كان مسموحًا بهما. التخطيط وحفر البئر لم يكونا كذلك.

تحدثت النساء بقوة، وحيوية مقنعة. بدا لي جليًّا أنهن موقنات بما يقُلنه، ويمكن الوثوق بهن للعثور على الماء. كل ما احتجن إليه كان إذن الرجال

ليتبعن غريزتهن الواضحة. كانت تلك هي المساعدة التي احتجن إليها من جهات خارجية. كان هذا ما احتجن إليه منا.

شعرت بدفعة من الالتزام والطاقة الجماعية. نظرت إلى ما حولي. كان الجو حارًّا بما يكفي لتحميص الخبز، وثمة الآلاف من الذباب، وامتلأ فمي ورئتاي بالرمال. كان أكثر مكان غير مريح يمكنك أن تتخيل الوجود فيه، ومع ذلك أتذكر أنني لم أشعر بأي عطش أو مشقة، لم أشعر إلا بقدرة تلك النساء الجريئات الجميلات.

عندما انطلقنا في صحراء الساحل، كنت أخشى أن نلتقي أناسًا يائسين يتضورون جوعًا ومرضًا وفقرًا. احتاج هؤلاء القوم بالتأكيد إلى مزيد من الطعام والماء، لكنهم لم يكونوا «فقراء». لم يكونوا مستسلمين، كانوا توَّاقين إلى إيجاد طريقة للتغلب على هذا التحدي، واستطارت فيهم نار الإمكانات. كانوا بئرًا للقوة وثروة من المثابرة والبراعة. لقد أرادوا شراكتنا –وليس الهبات، أو المال، أو الطعام– وكان الاحترام والشراكة المتكافئة هو ما قدمناه.

بعد العديد من المحادثات مع كل من الرجال والنساء، عقدنا اتفاقًا مع الملالي والرئيس بأننا سنبدأ عملنا مع النساء لأن لديهن رؤية. ومع شراكتنا، وافق الرجال على السماح للنساء ببدء العمل في حفر البئر. على مدار العام التالي، مع تقنين المجتمع إمداداته الحالية من المياه بعناية، بدأت النساء في الحفر بالأدوات اليدوية والمعدات البسيطة التي جلبناها لهن. حفرن في الأرض أعمق وأعمق، وغنين، وقرعن الطبول، واعتنين بأطفال بعضهن بعضًا في أثناء العمل، لم يشككن قط في وجود الماء هناك.

راقب الرجال بتشكك، لكنهم سمحوا بمواصلة العمل. أما النساء، فلم تراودهن ذرة شك، كُنَّ على يقين تام من أنهن إذا حفرن بعمقٍ كافٍ، سيجدن الماء هناك. وقد كان! وصلن إلى البحيرة التي رأينها تحت الأرض في رؤيتهن.

في السنوات التي تلت ذلك، بنى الرجال والنساء نظام ضخ، وبرج مياه للتخزين. لم يمتد الماء إلى قرية واحدة فحسب، بل سبع عشرة قرية. لقد تحولت المنطقة بأسرها. مجموعات القيادة النسائية في جميع القرى السبع

عشرة كانت مراكز العمل. أقيمت نظم الري، وتربية الدجاج. افتتحت فصول محو الأمية، وأعمال الصباغة الفنية. ازدهر الناس وأصبحوا أعضاء مساهمين في بلدهم، يواجهون تحديات جديدة كل يوم ويقابلونها بنفس روح الكرامة والالتزام. أصبحت النساء الآن جزءًا محترمًا من المجتمع بطريقة جديدة، وصلن إلى الزعامة، وامتلأت القبيلة فخرًا بأن شعبها وعملها والأرض التي عاشوا عليها قد أثبتت أنها مفتاح ثرائهم.

الاكتفاء: استرداد قوة ما لديك بالفعل

كل واحد منا لديه الخيار للرجوع خطوة والتخلي عن عقلية الندرة. بمجرد أن يفعل، يكتشف الحقيقة المدهشة للاكتفاء. ولا أعني بالاكتفاء وجود كمية معينة من أي شيء. الاكتفاء ليس أعلى درجتين من الفقر أو أقل درجة من الوفرة، إنه ليس مقياسًا لما يكفي بالكاد أو أكثر مما يكفي. ليس الاكتفاء بالكم على الإطلاق، إنه تجربة، سياق نصنعه، ميثاق، إنه علم بأن لدينا ما يكفي، وأننا نكفي.

يقبع الاكتفاء داخل كل واحد منا، ويمكننا استدعاؤه. إنه اختيار واعٍ وحريص ومتعمَّد للطريقة التي نفكر بها في ظروفنا. يستخدم المال في علاقتنا به بطريقة تعبر عن نزاهتنا؛ يستخدمه بطريقة تعبر عن القيمة بدلًا من أن تحدد القيمة. الاكتفاء ليس كناية عن البساطة، أو تقليل التوقعات أو خفض سقفها. الاكتفاء لا يعني ألا نجتهد أو نطمح. الاكتفاء هو عملية توليد وتمييز وتعريف أنفسنا بقوة ووفرة مواردنا الحالية ومواردنا الداخلية. الاكتفاء سياق ينبع من داخلنا ليذكرنا بأننا لو نظرنا إلى ما حولنا وداخل أنفسنا، فسوف نجد ما نحتاج إليه. ثمة دائمًا ما يكفي.

عندما نعيش في سياق الاكتفاء، نعثر على الحرية والنزاهة الطبيعية، ننخرط في الحياة من منطلق شعورنا بالكمال بدلًا من الحنين اليائس للكمال. نشعر بأننا مدعوون بالفطرة لمشاركة الموارد التي تتدفق في حياتنا –وقتنا، وأموالنا، وحكمتنا، وطاقتنا، أيًّا كان القدر الذي تتدفق به هذه الموارد– لخدمة

أسمى التزاماتنا. في سياق الاكتفاء، تتدفق الموارد منا وإلينا وعبرنا، تندمج مصالحنا المالية وأرواحنا لخلق حياة ثرية ومُرضية وذات مغزى.

الاكتفاء هو الحقيقة. الاكتفاء يمكن أن يكون أرضًا صلبة، حالة تولد علاقة جديدة تمامًا مع الحياة، ومع المال، ومع كل شيء يمكن أن يشتريه المال. أومن بأن هناك ما يكفي في الطبيعة، وفي الطبيعة البشرية، وفي العلاقات التي نتشاركها مع بعضنا بعضًا ليضمن لنا حياة مزدهرة ومُرضية، بغض النظر عن هويتك أو مكانك في سلسلة الموارد. أومن بأنك إن كنت مستعدًّا للاستغناء، الاستغناء عن مطاردة تملُّك أو مراكمة المزيد دائمًا، والاستغناء عن تلك الطريقة في إدراك العالم، يمكنك عندئذ أن تأخذ كل هذه الطاقة والاهتمام، وتستثمرها فيما لديك بالفعل. وعندما تفعل، ستجد كنوزًا لا تتخيلها، وثروة من العمق والتنوع المدهش.

إن الحياة والتفكير من منظور الاكتفاء، وإنشاء هذا الإطار المرجعي للحياة هو أمر قوي وبالغ الأهمية في عصرنا. في علاقتنا بالمال يمكننا أن نواصل الكسب والادخار والاستثمار وإعالة أنفسنا وعائلاتنا، لكننا نعيد صياغة العلاقة بإدراك وتقدير جديدين لما لدينا بالفعل. بهذه الرؤية الجديدة تصبح الموارد متدفقة في حياتنا كما فيضان من التغذية، وشيئًا نتشرف بأن نكون أوصياء عليه في الوقت الحالي، بدلًا من أن تكون شيئًا ينفلت باستمرار من قبضتنا أو يتضاءل. تتوقف علاقتنا بالمال عن كونها تجسيدًا للخوف وتصبح تجسيدًا لإمكانية مثيرة. يمكن لسياق الاكتفاء أن يحوِّل علاقتنا مع المال، ومع مواردنا، ومع الحياة نفسها.

لا أقول إن الصحراء بها ماء وفير، أو إن بومباي بها طعام للمتسولين. إنما أقول إنه حتى في ظل وجود ندرة حقيقية في الموارد الخارجية، فإن الرغبة والقدرة على الاكتفاء الذاتي فطرية وكافية لمواجهة التحديات التي تقابلنا. إنه في اللحظة نفسها التي نوجه فيها انتباهنا إلى هذه الموارد الداخلية –فقط عندما نفعل ذلك في الواقع– يمكننا أن نرى بوضوح أكبر أن الاكتفاء بداخلنا وفي متناول يدنا، ويمكننا أن نبدأ في الإتيان باستجابات فعالة ومستدامة لأي نقص يواجهنا في الموارد. عندما نتخلى عن مطاردة المزيد، ونفحص

ونختبر الموارد التي لدينا بطريقة واعية، نكتشف أن مواردنا أعمق مما كنا نعرف أو نتخيل. عندما نغذي انتباهنا، تتسع أصولنا وتنمو.

هذا ينطبق بصفة خاصة على علاقتنا بالمال، وقوة الالتزام الروحي لتوسيع وتحسين ثروتنا. وينطبق بصفة خاصة عندما ننظر إلى الصراعات التي تثقل كاهلنا بشأن المال، والراحة العميقة التي نختبرها عندما نوائم بين المال والروح.

والكفاح من أجل الاكتفاء لا علاقة له بمقدار ما تملكه من مال. إنما يدور كله حول علاقتك به. إن بعضًا من أعظم الدروس التي تعلمتها عن الكفاح من أجل الاكتفاء كانت من أناس يملكون حينها من المال أكثر مما قد يراه أغلبنا في حياته كلها، ومع ذلك يعيشون حياة غير مُرضية تمامًا بالنسبة إليهم. كانوا مثقلين بالفوائض أو منسحقين جراء تدافعهم على المزيد، وأضاعوا التجربة المغذية للاكتفاء والكفاية.

نساء ميكروسوفت: تفويت نقطة الاكتفاء

دُعيتُ في عام 1998 للتحدث إلى مجموعة من المديرين التنفيذيين رفيعي المستوى في ميكروسوفت، التي كانت آنذاك الشركة الأسرع نموًا، وواحدة من أكثر الشركات ربحية -إن لم تكن الأكثر ربحية- في العالم. كنت متحمسة للذهاب؛ حيث كان من المقرر أن أتحدث إلى مجموعة من كبار السيدات التنفيذيات حول وضع المرأة في العالم النامي. كنت قد عدت توًا من المؤتمر العالمي الرابع للمرأة في بكين، وأتوق إلى مشاركة ما تعلمته من شهادات النساء اللاتي حضرن المؤتمر وقصصهن الملهمة. بعض أولئك النساء جئن من بلدان فقيرة تخضع فيها النساء لقمع يفوق خيالنا.

في الرحلة من سان فرانسيسكو إلى سياتل، حجزت لي ميكروسوفت تذكرة في الدرجة الأولى -كانت الأجواء أكثر تدليلًا من مقعد الدرجة الاقتصادية الذي اعتدته- وعندما نظرت إلى المقاعد المريحة والركاب المهندمين الجالسين فيها، أدركت أنني بصدد الدخول إلى عالم منعزل، والتحدث مع نساء يعشن ويعملن في ذاك العالم كل يوم. كانت النساء اللائي

سيحضرن سلسلة المحاضرات العليا من أعلى المستويات التنفيذية في الشركة. وقد قيل لي سابقًا باختصار إن متوسط صافي ثروة هؤلاء النساء كان 10 ملايين دولار، ومتوسط أعمارهن ستة وثلاثون، ومعظمهن -أكثر من نصفهن- لديهن أسرة وأولاد. أدركت أنني كنت ذاهبة إلى قلب شركة في طليعة التكنولوجيا العالمية، وأنني سأتحدث إلى فئة تتجاوز كل الحدود ليس فقط في هذا المجال، لكن أيضًا في حياتهن الخاصة كنساء ثريات وناجحات للغاية، وصغيرات للغاية ليشغلن هذه المناصب.

عندما فكرت فيهن في أثناء رحلة الليموزين إلى حرم شركة ميكروسوفت، أدركت أكثر فأكثر إمكانية أن أحدث فرقًا ذا مغزى في حياتهن من خلال إقامة رابطة بينهن وبين أكثر النساء افتقارًا إلى الموارد في العالم، وهي فئة يبلغ تعدادها مئات الملايين. فكرت فيما قد تعنيه تلك الرابطة لكلا الفئتين، وكم كنت محظوظة لأن باستطاعتي السير في كلا العالمين.

في حرم شركة ميكروسوفت مترامي الأطراف، رافقني أحدهم إلى مبنى مكتبي أنيق، ثم إلى غرفة اجتماعات لتناول شاي بعد الظهر مع مجموعة صغيرة من النساء اللائي كن سيخضن نقاش المساء. طلبت حضور اجتماع بعد الظهيرة المصغر هذا لأنني أردت معرفة هؤلاء النساء من كثب، والحديث مع بعضهن لمعرفة كيف يمكنني التواصل بسهولة أكبر لاحقًا مع نساء هذه الحياة وتلك المهنة غير المألوفة.

في أثناء تناول الشاي، تحدثت هؤلاء النساء العشر الشابات المفعمات بالحيوية والمليئات بالثقة عن حياتهن في المنزل والعمل. كان لسبع منهن أزواج وأطفال في المنزل. وعندما طلبت منهن وصف يوم بسيط من حياتهن، أخبرنني بروتين مماثل يتسم بالضغط الشديد: يستيقظن مبكرًا، غالبًا في الساعة 5:30 أو 6 صباحًا، وبالنسبة إلى معظمهن كانت الوجبة الوحيدة التي يحظين بها مع أطفالهن هي الإفطار -إنْ حدث-. كان لديهن مربيات، ومدبرو منزل يعيشون معهن. ست من العشرة كان أزواجهن يعملون أيضًا في ميكروسوفت. وقالت أغلبهن إنهن يطعمن أطفالهن ويعتنين بهم ويلبسنهم في الصباح، بعدها، إما يرسلنهم إلى المدرسة مع المربية، وإما

يوصلنهم بأنفسهن، ثم يذهبن إلى العمل ويباشرنه من الإنترنت في الثامنة صباحًا. لا تأخذ أغلبهن استراحة غداء، ويعملن خلال ساعات العشاء المعتادة حتى التاسعة مساءً، وأحيانًا حتى العاشرة مساءً. يعدن إلى المنزل، ويتناولن عشاءً متأخرًا مع أزواجهن، يقبلن أطفالهن النائمين ويتمنين لهم ليلة هانئة. وبعد العشاء يعدن إلى العمل على الإنترنت حتى الساعة الواحدة صباحًا في بعض الأحيان. في الصباح التالي –بالنسبة إلى أغلبهن يكون هذا بعد بضع ساعات– يبدأن من جديد. اعتادت معظمهن إحساسًا ما بالندم: في كل يوم يتعهدن بالعودة إلى المنزل في وقت أبكر، ليحظين بمزيد من النوم، وممارسة المزيد من التمارين الرياضية، والقيام بالأمور التي يفتقدنها في حياتهن، وفي كل يوم يفشلن في تحقيق أي تقدم في هذه الالتزامات.

بعدها سألتهن عن عطلات نهاية الأسبوع. تعمل أغلبهن في المكتب أيام السبت. في بعض الأحيان كن يأخذن استراحة لحضور حفلة رقص للأطفال أو مباراة كرة قدم، لكن بخلاف ذلك يكنَّ عادة في المكتب حتى الساعة 5 أو 6 مساءً في أيام السبت. سألتهن عن أيام الأحد. قالت أغلبهن إنهن يبقين في المنزل في أيام الأحد، لكنهن اعترفن بانجذابهن إلى الحاسوب أكثر من أي نشاط آخر، وغالبًا يكن على الإنترنت لنصف اليوم على الأقل.

في كل يوم، وكل أسبوع، وكل شهر يتعهدن لأنفسهن ولأزواجهن وأطفالهن بالانتهاء من المشروع التالي، والوفاء بالموعد النهائي التالي، وحينها سيبقين في المنزل مدة أطول، ويكن حاضرات لوقت أطول، ويغذين علاقتهن مع أطفالهن، لكن نادرًا ما يحدث هذا، وقد شعرن بإحباط مزمن بسبب تلك الوعود التي لا يفين بها.

قلن إن نمط العمل والحياة الأسرية هذا طبيعي أكثر منه استثنائي وسط زملائهن. كن جميعًا يملكن الكثير من المال، ويمكنهن شراء أي نوع من الخدمات لمساعدة أطفالهن وعائلاتهن، وهذا ما فعلنه، أكثر مما أحببن الاعتراف به. وقلن بأسف إن اللعبة التنافسية التي كنَّ جزءًا منها في هذا المركز القوي في الشركة تتطلب مثل هذا التفاني الكامل، الذي كان أولويتهن كلما لزم الأمر. جاءت عائلاتهن في المرتبة الثانية. شعرن في كل مرة بالضيق

وخيبة الأمل في أنفسهن بسبب بعض التنازلات التي كنَّ يقدمنها في حياتهن الأسرية.

ثم سألتهن عن معرفتهن بالعالم، ومن هم أصدقاؤهن، وما نوع الحديث الذي يشاركن فيه خارج العمل. أفضين إليَّ واحدة تلو الأخرى بأن حياتهن مقتصرة على شاشات حواسيبهن. أغلب محادثاتهن تحدث عبر الإنترنت، وتدور حول تطوير برنامج جديد، أو تحقيق أهداف الأداء والإنتاجية. كنَّ يعرفن القليل عن العالم الخارجي، سواء في سياتل أو في الولايات المتحدة، وبالطبع لا يعرفن شيئًا عن الناس في الدول النامية، أو النساء في بلدان أخرى من العالم. تحمسن لمعرفة أنني سأتحدث في ذلك المساء عن نساء العالم النامي، لكن هذا لم يكن جزءًا من محادثاتهن أو جزءًا من واقعهن بأي حال من الأحوال. لم يكن لديهن الوقت ولا الرفاهية لتضمين أي أحد أو أي شيء بخلاف ما يفرض نفسه عليهن في الوقت الحالي.

تحدثنا عن ثرواتهن. بصرف النظر عن ممتلكاتهن المادية –التي لم يكن لديهن سوى قليل من الوقت للاستمتاع بها– لم يشعرهن المال إلا بقدر ضئيل من الرضا. قلة قليلة منهن كنَّ يتبرعن بالمال، ولم تقتطع أي واحدة منهن وقتًا لقضاء الإجازات. مكنتهن ثروتهن –واستخدامها كما فعلن لشراء خدمات رعاية الأطفال والرعاية المنزلية– فقط من العمل بجد أكبر ووقتًا أطول. لم تمنحهن الحرية أو الحيوية التي أملن فيها ذات يوم، بل وكنَّ يتوقعنها، وكن يتعهدهن لأنفسهن أن يحصلن عليها يومًا ما. يومًا ما سيتقاعدن ويعشن في سعادة دائمة.

في تلك الليلة حضرت نحو مئة امرأة مأدبة عشاء كبار التنفيذيين. استهلَّت المؤلفة والمؤرخة ريان إيسلر الحديث، وتكلمت عن آخر ألف عام من تاريخ المرأة، مستعينة بأوجه التمييز التي وضعتها في كتابها «The Chalice and the Blade: Our History, Our Future». وصفت ما تسميه نموذج العمل المسيطر، الذي يسود فيه الرجال والمبادئ الذكورية التقليدية، والاختلافات بينه وبين ما تسميه نموذج الشراكة، الذي يتميز بالمبادئ الأنثوية للتعاون والشراكة. بعدها حان دوري.

لاستكمال الحديث من منظور البحث العلمي والتاريخي الذي قدمته إيسلر، ارتكز حديثي على تفاصيل الحياة اليومية، وتجربة النساء اللائي يعشن في أوضاع فقيرة الموارد مثل السنغال، أو بنغلاديش. كن نساء يعملن من ست عشرة إلى ثماني عشرة ساعة في اليوم، مثل سيدات ميكروسوفت، وتدور حياتهن حول إعالة أطفالهن وأسرهن، لكن علاقتهن ببعضهن بعضًا كانت تجعل ما يلاقينه من قساوة في حياتهن محتملًا. اندهشت سيدات ميكروسوفت حينما عرفن أنهن بين أعلى 1 في المئة من نساء العالم ممن يملكن الخيارات والفرص لاستخدام الموارد المالية بالطريقة التي يخترنها، وبالطريقة التي كنَّ يشكِّلن بها حياة عائلاتهن. دعوتهن للتواصل مع مليار امرأة يعشن على دولارين إلى خمس دولارات في اليوم.

شاركتهن ما عرفته وما رأيته، عن التزام نساء العالم النامي تجاه عائلاتهن، وعن الغناء والرقص الذي ساعدهن على الاستمرار، وقدرتهن على إشراك أطفالهن ليس فقط في المصاعب، ولكن أيضًا في الاحتفال بالحياة والحب. أخبرتهن عن المصاعب الهائلة التي تعيشها هاته النساء، وعن القمع والتهميش والقهر الذي تعرضن له، وعن الشجاعة التي حيين بها كل يوم. وأخبرتهن عن تجربة هؤلاء النسوة مع توطين أنفسهن في التقدير والعرفان والوعي بالقليل الذي يمتلكنه، وعن فضل العلاقات التي تقاسمنها، والتي ولَّدتها الحاجة. في تلك الظروف القاسية كان كل شيء بالأخير يدور حول المجتمع. كل شيء بالأخير يدور حول رعاية بعضنا بعضًا. كل شيء بالأخير يدور حول التعاون والشراكة، وضمان حصول الجميع على فرصة. بفضل هذه الروابط وهذا الاهتمام، لم تنجُ هاته النساء فحسب، بل اختبرن ثراءهن الحقيقي.

استجابت المديرات التنفيذيات بتأملات صادقة لحياتهن الخاصة، واحتمالية أن يكون للرغبة الجامحة في التطور في العمل ثمن أبهظ مما قصدته أي منهن، أو حتى قبلته عن وعي؛ الوقت الضائع والتجربة التي لا تُعوَّض لسنوات عائلاتهن الشابة، أو العلاقات الهادفة مع الناس والحياة من

حولهن والعالم البعيد. كان اكتشاف أن الحياة قد تفوتهن بالكامل ملموسًا وحقيقيًّا.

لم أكن أحثهن على ترك الشركة، أو فعل أي شيء بخلاف إقامة هذا التواصل ومعرفة المزيد عن أخواتهن حول العالم. لكن مناقشتنا أمر أولئك النسوة اللائي يعشن في ظروف صعبة لا ترحم قد خلقت فرصة لهؤلاء السيدات التنفيذيات للتراجع خطوة، والنظر إلى المطاردة التي يعشنها كل يوم، والتفكير فيما إذا كنَّ يردن مواصلة المشاركة فيها بنفس الدرجة من الغفلة والانغماس.

كانت وقفة التفكير تلك مهمة للعديد من النساء هناك. في تلك اللحظة، تمكنت النساء من تعطيل ولائهن الأعمى لمطاردة المزيد –المزيد من المال، المزيد من المكانة في الشركة، المزيد من الإنجازات–، وتأمُّل الخضوع الذي شعرن به مع سيطرة المطاردة على حياتهن. منحتهن تلك اللحظة أيضًا الفرصة للتفكير في الرضا الحقيقي الذي وهبه لهن عملهن وأسرهن، وتقديرهن لمواهبهن وإنجازاتهن الخاصة، والشركة التي أيدتهن واحتفت بهن كقادة. كانت جديدة بالنسبة إليهن فرصة الإحساس الواعي بهذا الرضا عن أسرهن ومهنهن.

أتذكر وقوفي أمامهن، ورؤيتي وجوههن تعكس تجربة الاكتمال بدلًا من النقص. أتذكر تعبيراتهن الفَرِحَة عندما دعوتهن للعثور على شريكة، واقتطاع بعض الوقت لتسرد إحداهما للأخرى كل الأشياء التي تقدرها وتعتز بها في أسرتها وعلاقاتها المباشرة في العمل والمنزل. غمر القاعة شعور بالاكتمال وهن يقفن واحدة تلو الأخرى ويشاركن إدراكهن للاكتمال والاكتفاء في حياتهن، ومدى غياب تلك التجربة في السابق في خضم تدافعهن من أجل المزيد.

كانت هؤلاء النساء في صدارة اللعبة في مسيرتهن المهنية، ونمط حياتهن الثري، لكن اللعبة التي كنَّ يلعبنها سلبتهن كل شعور بالنصر أو الإنجاز، وكانت قواعدها مبنية على مبدأ الندرة: كان عليهن الحصول على المزيد، والمزيد لم يكن قط كافيًا، ولم تنتهِ المطاردة قط. رأيت في قصصهن أننا حتى

عندما نَعِدُ أنفسنا بأننا سوف نتوقف في مرحلة ما، فإن هذا الوعد بالذات هو جزء من المغالطة والتبرير الخانع للاستمرار في اللعبة، جولة أخرى، صفقة أخرى، أو أيًّا كان ما نرغب في الاستمرار فيه. رأيت أيضًا جمال وقوة إنشاء بيئة يمكنك فيها الخروج من عقلية الندرة ولو حتى لحظة، لترى أنها ليست سوى فكرة. ليست أمرًا حتميًّا، وليست لا مفر منها، وليست ميؤوسًا منها. الأمور لا تسير هكذا دائمًا. لقد تعلمت أن حتى أكثر الناس اندفاعًا يمكنهم التوقف وإلقاء نظرة، والقيام بذلك ولو لحظة يمكن أن يترك أثرًا عميقًا ودائمًا في الطريقة التي يمضي بها المرء في حياته.

في السنوات التي تلت هذا اللقاء، كتب إليَّ بعض من هؤلاء النساء ليخبرنني أنهن تقاعدن، وشاركنني بعض الأفكار والتجارب التي نتجت عن هذا القرار. كتب بعضهن ليخبرنني أنهن أعدن صياغة تجربة عملهن في الشركة، ومضين يعشن في الحقيقة نفس الحياة، لكن صرن يرينها من منظور الاكتمال والامتنان بدلًا من منظور الخوف والمنافسة وحب البقاء. انخرط بعضهن بعمق في النشاط الاجتماعي، وسافرن مع عائلاتهن إلى البلدان النامية في العطلات. أصبح بعضهن يدركن متعة المساهمة واستثمار الأموال في الشراكات الخيرية لقهر أوضاع الجوع والفقر، أو أوجه عدم المساواة الفادحة. انتقل بعضهن من العمل في ميكروسوفت إلى مؤسسة بيل وميليندا جيتس حديثة التأسيس، وهي الآن واحدة من أكبر المؤسسات وأكثرها تقدمًا في العالم.

كانت تلك الأمسية لقاءً لن أنساه أبدًا. كان لدى هؤلاء النساء الكثير، ليس فقط الثراء المادي، بل أيضًا القدرة العميقة على الاهتمام والتواصل، والتي بدت بعيدة المنال بالنسبة إليهن في ظل حياتهن المتعجلة والموسرة. كانت رغبتهن في بناء علاقات مع عائلاتهن ومع نساء أخريات في ظروف تتطلب مساهمتهن –وحتى مع توقهن إلى إحداث فارق– تجسيدًا قويًّا للطاقة الروحية والإمكانيات الموجودة فينا جميعًا. في تلك الليلة، كان كنز صحوتهن هو ما ملأ قلبي.

الاكتفاء في متناول اليد دائمًا

ما الكفاية؟ كل منا يحدد ما يكفيه، لكن نادرًا ما نسمح لأنفسنا بخوض تجربة الكفاية تلك. ما تلك النقطة التي نكتفي عندها حيث يصبح لدينا كل ما نريده ونحتاج إليه دون فائض؟ قلة قليلة منا يمكنهم أن يتذكروا لحظات الحياة التي شعروا فيها بذلك. أغلبنا مثل نساء ميكروسوفت، يتجاوزون نقطة الكفاية كما لو أنها غير موجودة. ثمة مرحلة يصبح فيها امتلاك ما يزيد على احتياجنا عبئًا. ننال أكثر مما نستحق ونأكل حد التخمة وتغرقنا الفوائض، ولا نكف عن البحث عن الرضا بطرق مختلفة. ذلك لأن تجربة الرضا عن الحياة ليست موجودة في مطاردة الرضا، أو مطاردة المزيد من أي شيء.

يمكن لكل واحد منا من خلال علاقته بالمال وبالآخرين وبالحياة أن يسترد أرض الاكتفاء تلك، أرض الكفاية. يمكننا إعادة اكتشاف الاستيفاء والرضا. وأعظم معلمي الاكتفاء هو الطبيعة وقوانين الأرض الطبيعية – قوانين لا تتعدل، قوانين لا تخضع للمناقشة في مجلس الشيوخ. تلك هي القوانين التي نعيش بها، سواء اعترفنا بها أم لا.

قالت عالمة البيئة العظيمة دانا ميدوز: إن أحد أكثر قوانين الأرض أصالة هو قانون الاكتفاء. وكتبت ذات مرة أن الطبيعة تقول: «لدينا الكثير وليس المزيد: الكثير من التربة، الكثير من الماء، الكثير من أشعة الشمس. كل شيء يولد من الأرض ينمو إلى حجمه المناسب ثم يتوقف. الكوكب لا يكبر، لكنه يتحسن. تتعلم مخلوقاته وتنضج وتتنوع وتتطور وتخلق جمالًا وتجديدًا وتعقيدًا مذهلًا، ولكنها تعيش ضمن حدود ثابتة».

نماذج الطبيعة موجودة في كل مكان من حولنا، وهي في متناول أيدينا في أي لحظة لتعلمنا ما نحتاج إلى تعلمه لصنع طفرة في علاقتنا بالحياة كي تغدو مستدامة. وتسمح لنا منزلة الاكتفاء تلك بتحويل ثقافتنا غير المستدامة إلى ثقافة مستدامة.

هل يمكننا كأفراد وجماعات أن نتخلى في علاقتنا مع المال وبقية الموارد عن فرضية أن المزيد –بغض النظر عما هو– أفضل؟ هل يمكننا إدراك أن

الأفضل لا يأتي من المزيد ولكن من تعميق تجربتنا لما لدينا بالفعل؟ بدلًا من أن يكون النمو خارجيًّا من خلال كسب وتكديس المال أو الأشياء، هل يمكننا إعادة تعريف النمو لنراه كإدراك وتقدير لما لدينا بالفعل؟

أومن بأن الاكتفاء مبدأ دقيق. الكفاية مكان يمكنك الوصول إليه والمكوث فيه. لذلك غالبًا ما نفكر في «الوفرة» على أنها النقطة التي نعرف عندها أننا وصلنا حقًّا، ولكن ما دمنا نظن أننا سنجد الوفرة في كمية مفرطة من شيء ما، فسوف تظل بعيدة المنال. أما الوفرة الحقيقية فموجودة؛ إنها تنبع من الاكتفاء، من إدراك جمال وكمال ما هو موجود. الوفرة حقيقة من حقائق الطبيعة. إنها قانون أساسي للطبيعة، يقول بأن هناك ما يكفي وهو محدود. محدوديته لا تشكل تهديدًا، بل تشكل علاقة تطالب باحترام الموارد وتقديرها، وإدارتها مع العلم بأنها ثمينة، إدارتها بطرق تحقق الخير الأكبر لمعظم الناس. أستطيع أن أرى في الحركة البيئية أن السعي وراء الاستدامة ربما يكمن في إدراك أن لدينا ما نحتاج إليه بالفعل - وذلك ليس معناه أن المورد يتلاشى، وأن علينا ادخاره لأنه يتناقص، وإنما معناه أن لدينا ما نحتاج إليه، بالضبط ما نحتاج إليه، ومن ثم لا بد أن نحدث فرقًا به. لا بد أن نعلم أنه مورد محدود وثمين، لكنه كافٍ.

هذا المنظور، -الذي يتسق مع قوانين عالم الطبيعة- من شأنه أن يقدم مجموعة جديدة من المبادئ أو الفرضيات لثقافة مالية مختلفة تمامًا. إنه يعلمنا كيف نكون أوصياء على المال بدلًا من جامعين له، يعلمنا كيف نتحرى الجودة والذكاء في استخدامنا للموارد المالية بطرق تعكس ثراءنا الداخلي، بدلًا من العرض المبهرج لثرواتنا الخارجية المتراكمة. عندها، سواء مليارديرًا أمريكيًّا كنت أو فلاحًا غواتيماليًّا، أمًّا عزبة في حي فقير أو مديرة من الطبقة المتوسطة، فإن تجربة الكفاية والتوجيه النزيه للمال وبقية الموارد ستعيد تعريف الحياة بطريقة تجعل الاكتفاء والاكتمال في متناول الجميع. لا يوجد تضحية في ذلك، يوجد رضا.

الاكتفاء أسلوب حياة يمنحنا قدرًا هائلًا من الحرية والإمكانية. عوضًا عن أساطير الندرة التي تخبرنا أن الطريقة الوحيدة لتعريف العالم هي *أن ليس*

به *ما* يكفي، وأن *المزيد أفضل*، وأن *هكذا* تسير الأمور *دائمًا*، تؤكد لنا حقيقة الاكتفاء أن ثمة ما يكفي الجميع؛ الأمر الذي يشجعنا بدوره على المشاركة والتعاون والمساهمة.

ربما لا ندير حياتنا والعالم من حولنا بطريقة تتيح لنا تجربة ذلك طوال الوقت، لكن الحقيقة هي أن ثمة ما يكفي، وأن أي وفرة أو ثروة حقيقية لا تتدفق من الفوائض، إنما تتدفق من إدراكنا للاكتفاء، واطمئناننا بأن هناك ما يكفي. كما قال بكمنستر فولر في سبعينيات القرن الماضي، فإن هذا العالم يتسع للجميع دون استبعاد أي أحد أو شيء، وقد صرنا الآن نمتلك القوة والموارد اللازمة لبناء عالم «أنا وأنت» بدلًا من عالم «إما أنا وإما أنت». ثمة *ما* يكفي *الجميع*، ولكن للوصول إلى تجربة *الكفاية* هذه، علينا أن نكون مستعدين للتخلي عن عمر كامل من دروس وأكاذيب الندرة.

في الحكاية الشعبية المعاصرة «*هيرشل وعفاريت حانوكا*» للكاتب إريك كيميل، عزمت مجموعة من العفاريت المرعبة على تدمير احتفالية مدينة صغيرة، لكن هيرشل غلبهم بدهائه واحدًا تلو الآخر. كان من بينهم عفريت نهم، فقدم له هيرشل جرة من المخلل، لكن عندما مد العفريت يده إلى داخل الجرة وأمسك بحفنة منه، تملكه الغضب عندما وجد أن قبضته الممتلئة علقت في الجرة. وقبل أن يصب جام غضبه على هيرشل، سمعه يقول: «هل أخبرك كيف تكسر التعويذة؟»

صرخ العفريت: «نعم! ما عدتُ أطيق هذا الوضع!»

فأجاب هيرشل: «تخلَّ عن المخلل. إن جشعك هو التعويذة الوحيدة التي تبقيك سجينًا».

لسنا وحوشًا جشعة عديمة العقل، لكن الخوف من الندرة جعلنا نلف أيدينا حول كل ما نستطيع ونطمع في المزيد. وما دمنا متمسكين بهذا الخوف، فسوف نبقى عالقين في الفخ، بأيادٍ ممتلئة، ولكن بقلوب ملآنة بالخوف وعدم الرضا. عندما نتخلى عن الخوف والرغبة غير المشروطة في المزيد سنتحرر

أنفسنا من ذاك السجن. يمكننا أن نأخذ وقفة ونتأمل الطريقة التي نعيش بها مع ما لدينا، وما إذا كانت ممارساتنا المالية تخدم التزاماتنا الروحية.

عندما نتخلى عن محاولة الحصول على المزيد مما لا نحتاج إليه حقًا، نحرر قدرًا هائلًا من الطاقة التي احتكرتها المطاردة. نعيد توجيه تلك الطاقة والاهتمام نحو تقدير ما لدينا بالفعل، ما هو موجود بالفعل، وإحداث فرق به. لن نكتفي بملاحظة ما لدينا بالفعل، بل سنحدث فرقًا به. عندما تحدث فرقًا بما لديك، فإنه لن يكف عن التوسع.

أدركت آن مورو ليندبرج منزلة الكفاية الرائعة تلك عندما قالت في كتابها «*Gift from the Sea*»:

> *لا يمكن لأحد أن يجمع كل الأصداف الجميلة على الشاطئ، يمكنه فقط أن يجمع القليل، وهذا القليل دائمًا ما يكون أجمل. إن قوقعة قمرية واحدة أكثر إبهارًا من ثلاث، فالواحدة تعد عينة مثالية، وليس ضروريًا أن تكون قوقعة نادرة، لكن يكفي أن تكون قوقعة فريدة من نوعها. يراها المرء مستقلة بذاتها، محاطة بالفضاء، مثل الجزيرة. ذلك لأن الجمال لا يزهر إلا عندما يكون محاطًا بالفضاء. فقط في الفضاء تكون الأحداث والأشياء والأشخاص فريدة من نوعها وذات مغزى، ولهذا السبب تصبح جميلة.*

في السنوات العديدة التي عملت فيها وتفاعلت مع الناس في عالم جمع الأموال، سواء كانوا أناسًا يمكننا أن نطلق عليهم صفة الأثرياء، أو أناسًا من الطبقة الوسطى، أو من ذوي الموارد الأقل، أصبحت تجربة الرضا والاكتفاء في متناول أيديهم عندما استغلوا الموارد التي لديهم –أيًا كان مستواها– واختاروا أن يصنعوا فرقًا بها. عندما استخدموا ما يملكون لدعم مُثُلهم العليا والتزاماتهم، وللتعبير عن أعمق قيمهم، اتسعت تجربتهم لثرائهم الحقيقي.

تجارة الاكتفاء

اعتدت افتراض أن عالم التجارة بعيد كل البعد عني وعن عملي. ومع ذلك شعرت أن مبادئ الاكتفاء يجب أن تكون صالحة وقيمة في سياق الأعمال التجارية كما هي في الأعمال الخيرية، أو المبادرات الاجتماعية والاقتصادية العالمية، أو في التحول الشخصي. ولكن عالم التجارة اليومية بدا بعيدًا وليس بقريب؛ ففي عملي لجمع الأموال، كنت أتعامل بشكل حصري تقريبًا مع الأفراد، نادرًا ما طلبت المال من الشركات أو المؤسسات التي تدعمها الشركات، لم تتقاطع طرقنا ببساطة.

في نفس الوقت، رأيت أن طاقة التجارة وريادة الأعمال المتجذرة في مبادئ الاكتفاء تؤدي إلى النجاح والنمو المستدام، في حين أن الإخفاقات سيئة السمعة في السنوات الأخيرة –مشروع إنرون على سبيل المثال– تقدم دليلًا دامغًا على أن الأعمال المتجذرة في عقلية الندرة –«هات ما لي بسرعة»– لا تؤدي إلا إلى عدم الاستقرار المالي، وتثبت في النهاية أنها غير مستدامة، حتى لو بدت المكاسب قصيرة الأجل مثمرة جدًّا.

أدركت في أثناء تأليف هذا الكتاب أن العديد من الأشخاص الذين شجعوني وحثوني على تأليف الكتاب هم من بين أنجح رواد الأعمال وزعماء التجارة وقادة المؤسسات في العالم. أصحاب ملايين ومليارات ممن تحظى حكمتهم في أمور التجارة والاقتصاد والمال باحترام كبير. كانت حياتنا في الغالب تتقاطع خارج ميدان التجارة، من خلال المصالح المتبادلة كناشطين وفاعلي خير. تعرفت بهم كأصدقاء وزملاء في ذلك السياق.

وعلى مر السنين –سواء مستشارة كنت، أو ببساطة مراقِبة– شهدت النجاح الخرافي للمشروعات التجارية التي تتبنى الاكتفاء مبدأ إرشاديًّا، وتستخدم الموارد بشكل إبداعي وفعَّال، وتجمع بين المسؤولية الاجتماعية والالتزام العميق بالخدمة والجودة. كانت تلك شركات في اليابان وإنجلترا والسويد وألمانيا والولايات المتحدة، وغيرها من البيئات شديدة التنافس. لم تتخل عن السعي وراء الربح، أو التزامها بزيادة حصتها في السوق،

وإنما سعت ببساطة إلى تحقيق أهدافها مع اهتمامٍ واعٍ بالنزاهة في تطوير المنتجات، والتصنيع والتسعير، والعمالة والإدارة، وتجربة المستهلك.

بول دولان هو رئيس شركة فيتزر فاينياردز، وصانع نبيذ من الجيل الرابع يحب المجال الذي يعمل به، ويحب الأرض، ويحب عالم الطعام والنبيذ. وهو أيضًا مدير تنفيذي استثنائي ورائد في تنمية الممارسات المستدامة لشركته ومجاله، وفاعل خير نشط وشريك مساهم في سعينا للحفاظ على الغابات المطيرة.

دعا بول مجموعة منا –في أثناء عملنا في تحالف الباتشاماما للحفاظ على الغابات المطيرة– لزيارته ذات يوم في مقر شركته فيتزر فاينياردز بهوبلاند، كاليفورنيا. لقد أراد أن يظهر لنا التحول غير العادي الجاري في شركته –التغيير الذي يتغلغل الآن في مجال صناعة النبيذ كله بأمريكا.

لقد وطَّنَ بول وزملاؤه أنفسهم على الوضوح التام في علاقتهم بالمال، على اعتبار أنه مشروع مربح ذو مسؤولية اجتماعية. ويتضمن بيان مهام الشركة الالتزامات التالية:

> *نحن مزارعون، ومنتجون ومسوقون للخمور بأعلى جودة وقيمة، واعون بيئيًا واجتماعيًا. نعمل في تناغم واحترام للروح البشرية، وملتزمون بنشر الوعي حول الاستمتاع بالطعام والنبيذ في أسلوب حياة يسوده الاعتدال والمسؤولية. نحن حريصون على النمو والتطوير المستمر لموظفينا وشركتنا.*

هذه المهام قيد التنفيذ التام في كل بوصة من أرض شركة فيتزر، ولدى كل فرد من العاملين هناك. تعتبر فيتزر مشروعًا مستدامًا من الناحية البيئية، حيث تزرع العنب العضوي خاصتها، لتثبت للعاملين في هذا المجال أن المبيدات الحشرية والمواد الكيميائية والتلاعب بالتربة من خلال وسائل غير طبيعية لم يعد ضروريًا، أو حتى مجديًا.

في الحقول التي سببت فيها القوارض مشكلة، وضعوا منازل للبوم. يحد البوم من تعداد القوارض بصورة طبيعية، فضلًا على الجمال الذي يضفيه

على المنطقة بأكملها من خلال حضوره وحده. وحيثما وُجِدَت مشكلة مع أي نوع من الحشرات، صنعت فيتزر منازل جذابة لمفترسها الطبيعي.

أولت الشركة نفس الاهتمام للسلامة البيئية والاستدامة في كل جانب من جوانب عملها: من صناعة النبيذ، إلى صيانة أسطول الشاحنات والعربات الكهربائية المستخدمة للتجوال في الأراضي. تسعى الشركة جاهدة للعمل بما يحافظ على السلامة البيئية. وفي كل خطوة من خطوات تقديم النبيذ إلى السوق، يعمل بول وزملاؤه على وضع ممارسات مستدامة بيئيًّا؛ ممارسات تحترم الأرض، وتنتج أيضًا نبيذًا أفخر، وذا مذاق أفضل وأكثر روعة. حبه للأرض، وحبه لشعبه، وحبه لصناعته، والتزامه بالمسؤولية واللطف تجاه المواطنين الذين يستمتعون بالنبيذ مع طعامهم كان ملهمًا لنا جميعًا. الروح التي أدار بها هذا المشروع كانت باهرة، والأقوى كان التزامه المطلق بإثبات كفاية التربة والنباتات والحيوانات والحشرات، والدورة الطبيعية بأكملها إذا احترمناها ورعيناها وفهمناها جيدًا.

وأخيرًا، ما يبهر حقًّا زملاءه ومنافسيه في صناعة النبيذ والعالم أجمع هو النجاح المالي المتزايد لشركة فيتزر فاينياردز. تعد مزارع الكروم الخاصة بالشركة أرضًا للعجائب في الممارسات البيئية المستدامة، والنبيذ الذي تنتجه من أرفع مستويات الجودة، والعائدات تلبي وتتجاوز التوقعات كل عام. أما بول، فقد قطع التزامًا الآن باستخدام نبيذه الحائز على الجوائز وممارساته التجارية المربحة كنموذج لتحويل الصناعة بأكملها في الولايات المتحدة والعالم.

في وجودي مع هذا الرجل اللطيف والرائع، رأيت مدى اعتناقه العميق لمبادئ الاكتفاء، وكيف يهيئ مكانًا وحديثًا في المجال تندمج فيه هذه المبادئ والربحية.

تنتشر الآن الشركات المسؤولة اجتماعيًّا في كل مكان، وتفتح آفاقًا جديدة، وتُظهِرُ ممارسات جديدة تدر المال بشرف، ولا تستنفد موارد العالم بلا رجعة. أودوالا للعصائر، باتاجونيا لمعدات التنزه، بن آند جيري للمثلجات، ووركينج أسيتس للهواتف، بادي شوب، إسبريت، إنترفيس كاربيت، وتستمر القائمة.

إن الاستثمار المسؤول اجتماعيًا هو أكبر فئة أصول متنامية في أمريكا. ثمة فرص كافية في كل مكان للعيش في حيز الاكتفاء، واختيار تلك المنتجات والخدمات التي تحترم الموارد، وتجلُّ منزلة الكفاية عن وعي.

هل يمكن أن تكون الحقيقة المفاجئة –الحقيقة الكاشفة لعصرنا– هي أن علاقتنا بالمال قائمة على منظومة غير مدروسة مسلم بها من الفرضيات التي تحفزنا على التصرف بطرق تسلبنا الرضا والاستيفاء الذي نبحث عنه في الحياة؟ هل المفتاح لتغيير اقتصادنا وثقافتنا المنفلتة غير المستدامة، وهذه الحقبة المروعة التي نعيشها في تطور الحضارات، هل تراه يكمن في مواجهة واعتناق الحقيقة المدهشة التي تفيد بأن ثمة ما يكفي؟ أن لدينا ما يكفي، أننا نكفي، وأن في قلب كل ظرف ثمة إمكانية وفرصة؟

في الفصول القادمة سوف نرسي مبادئ الاكتفاء، والخطوات التي ينبغي اتخاذها لعيش حياة قائمة على الاكتفاء. في ذلك السياق، سننظر إلى المال بطريقة جديدة، سننظر إلى المال على أنه تدفق، مثله مثل الماء، وليس كمية ثابتة من شيء يتعين علينا جمعه. سنلقي نظرة على القوة التي تجعل الأشياء تنمو حقًا من حيث القيمة –العمق، والجودة، والرضا– من خلال فعل التقدير ومفعوله. سنلقي نظرة على الطريقة التي يمكن بها للموارد الموجودة –عند جمعها معًا في تعاون– أن تخلق مصدرًا جديدًا للازدهار. وسوف نرى كيف يمكن لمبادئ أو حقائق الاكتفاء –التي تتسق مع قوانين عالم الطبيعة والغرائز الأعمق لطبيعتنا البشرية– أن تكون المبادئ الجديدة الحاكمة لعصرنا.



الجزء الثالث

الاكتفاء: الحقائق الثلاث



5

المال كالماء

المال تيار، رسول، قناة لنوايانا.
المال يحمل تفويضًا من روحنا.

قابلت جيرترود في قبو كنيسة في هارلم، وقد تعلمت من جيرترود –المرأة التي قد يعتبرها أغلب الناس فقيرة نسبيًا– بعضًا من أقوى الدروس التي تعلمتها عن المال على الإطلاق. كانت جيرترود هي من علمتني أن المال كالماء.

كان ذلك في عام 1978، في بداية حياتي مع جمع الأموال من أجل مشروع مكافحة الجوع، حيث طلب مني بعض قادة المجتمع إقامة حفل لجمع التبرعات في هارلم. لم أكن واثقة أن جمع التبرعات في هارلم فكرة جيدة، ولكن طُلِبَ مني الحضور، ووافقت على الذهاب في ليلة الأربعاء التالية. ثم تلقيت مكالمة للحضور في وقت مبكر من صباح نفس اليوم للقاء الرئيس التنفيذي لشركة أغذية ضخمة في شيكاغو. كانت شركة أغذية شهيرة، واحدة

من عمالقة هذا المجال، وعلى الرغم من ضيق الوقت لاستقلال طائرة من شيكاغو إلى نيويورك، فقد التزمت بعقد كلا الاجتماعين.

بعد حل مشكلة التوقيت في ذهني، التفتُّ إلى أمور مهمة أخرى. بدأت التفكير في اللقاء الفعلي مع رئيس شركة الأغذية هذا، الذي ربما هو أكبر مساهم محتمل تعاملت معه على الإطلاق. أكثر ما أقلقني على الفور هو ماذا أرتدي. أي صورة أريد أن أظهر بها؟ هل تنعكس ملابسي بطريقة سلبية غير مقصودة على مهمتي؟ كنت أسأل نفسي أسئلة لا تخطر ببالي في العادة. الطريقة التي كنت أستعد بها لهذا الاجتماع أشعرتني بعدم ارتياح شديد، وبأنني غريبة على نفسي. ثم كان أن ازداد الوضع سوءًا.

ما زلت أتذكر شعوري عندما خطوت داخل المصعد في تلك البناية بشيكاغو. كانت ناطحة سحاب، ولا يمكنك الصعود إلى مكتب الشركة باستخدام مصعد واحد. عليك أن تستقل سلسلة من المصاعد، منتقلًا من مصعد إلى آخر. وبينما أصعد طابقًا تلو آخر، ازداد توتري وبدأت أتعرق. كلما صعدت طابقًا، سيطر عليَّ شعور بأنني أنفصل عن بقية العالم. حتى الهواء وجودة الصوت تغيَّرا، حتى خيَّم الهدوء والرهبة على الأجواء. شعرت كما لو أني أصعد إلى قمة جبل. بدا الهواء رقيقًا، وشعرت ببعض الدوار.

لم أُزَوَّد بكثير من التفاصيل عن هذه المساهمة، ولكن هذا ما قيل لي: تعاني شركة الأغذية في الآونة الأخيرة من بعض الانتكاسات في العلاقات العامة، حيث أُدِينوا بارتكاب بعض الأعمال السيئة، ولديهم مشكلة في صورتهم العامة، لذلك شعر قادة الشركة أن التبرع لمشروع مكافحة الجوع والظهور بمظهر الداعمين للقضاء على الجوع في العالم قد يساعد في تحسين هذه الصورة.

أدخلني أحدهم إلى مكتب الرئيس التنفيذي. كان جالسًا إلى مكتبه، وجلستُ في مواجهته على الجانب الآخر. امتدت خلفه النوافذ من الأرض حتى السقف لتعرض منظرًا رائعًا لأفق المدينة، لكن الإضاءة الخلفية جعلتني بالكاد أرى وجهه. لم يكن مسموحًا لي سوى بخمس عشرة دقيقة من وقته، لذا تحدثت سريعًا عن مهمة وعمل منظمتنا، والتحديات التي تواجهنا للقضاء

على الجوع في العالم. تحدثت عن شجاعة الجوعى، والشراكة التي يجب علينا جميعًا أن نقيمها معهم لمساعدتهم في التزامهم الشجاع بإطعام أنفسهم وأطفالهم، وتهيئة الظروف لحياة صحية ومثمرة. عندما انتهيت وقدمت طلبي، فتح درج مكتبه وسحب شيكًا مطبوعًا سابقًا بقيمة 50000 دولار ومرره إليَّ عبر المكتب.

كان من الجلي أنه يرغب في رحيلي بأسرع ما يمكن. أخبرني مظهره الذي تعوزه الحماسة ونبرة صوته أنه يفتقر إلى أي اهتمام حقيقي بعملنا، أو التواصل مع فقراء الموارد، أو إحداث أي نوع من الفرق في جهود القضاء على الجوع في العالم. كانت هذه خطوة استراتيجية بحتة؛ لقد أراد التخلص من عبء الشعور بالذنب والخجل من الأخطاء العلنية التي ارتكبتها الشركة، وأراد تحسين مظهر الشركة في وسائل الإعلام. من الناحية المالية البحتة، كان من المفترض أن تكون صفقة بسيطة: منحي هذا الشيك بمبلغ 50000 دولار سيتيح لشركته فرصة إصلاح سمعتها. ولكن عندما مرر الشيك تجاهي، شعرت بأنه يمرر إليَّ جريمة الشركة مع النقود. لقد منحني المال وجريمة الشركة.

كان اجتماعنا مُحرِجًا، لكنني جامعة أموال، وحديثة العهد للغاية بجمع المال، وكان لدي رحلة طيران لألحق بها. وضعت الشيك في حقيبتي. شكرته، وتوجهت عائدة عبر متاهة الغرف الداخلية والغرف الخارجية، وهابطة باستخدام العديد من المصاعد.

بينما أهبط طابقًا تلو الآخر، داهمني شعور غريب في معدتي، وعرفت أنه لم يكن بسبب استقلال المصعد. لم أكن سعيدة، على الرغم من شعوري بأنه حريٌّ بي أن أكون. كان هذا الشيك أكبر مبلغ تسلمته من مساهم واحد، وكنت أعرف أن الجميع في مشروع مكافحة الجوع سيكونون في غاية السعادة. لكنني شعرت أيضًا أنني تسلمت جريمة الشركة وعارها مع المال. شعرت بالقذارة والغثيان. نزلت باستخدام المجموعة الأخيرة من المصاعد، واستوقفت سيارة أجرة لتقلني إلى المطار، وشعرت بالانزعاج من الأمر كله، لكنني لم أكن واثقة مما عليَّ فعله غير ذلك.

وصلت إلى نيويورك وسط عاصفة ممطرة، وشققت طريقي إلى هارلم، ثم إلى مبنى كنيسة قديم. هبطت السلالم إلى غرفة الطابق السفلي، حيث تجمع نحو خمسة وسبعين شخصًا من أجل حفل جمع التبرعات. كانت البيئة مختلفة لأقصى حد عن مكتب الطابق الأخير الذي تركته توًّا قبل ساعات قليلة. كانت السماء تمطر، والماء يتسرب في جميع أنحاء الغرفة التي التقينا فيها. وُضِعت الدلاء بترتيب استراتيجي بمحاذاة الجدران الخارجية لالتقاط الماء المتساقط. كان ضجيج متواصل يتردد في الخلفية من صوت المطر بالخارج، والقطرات المتساقطة من الجدران والسقف في الداخل. شعرت بالارتياح والخجل في آنٍ واحد، كنت مرتاحة في هذا التجمع أكثر مما كنت في جناح الشركة، لكنني أدركت أيضًا أنني الوجه الأبيض الوحيد هناك، وأن الفستان الحريري الذي اخترته لإثارة إعجاب الرئيس التنفيذي بدا الآن متصلفًا وسخيفًا. نظرت إلى الحضور، وعرفت أن هؤلاء الجالسين لا يملكون الكثير من المال ليقدموه. تحدثت إليهم عن التزام مشروع مكافحة الجوع تجاه إفريقيا، حيث فكرت في أنها ستكون الأكثر صلة بحياتهم وتراثهم. عندما حان وقت طلب التبرعات كانت راحتاي تتعرقان، وبدأت أتساءل عما إذا كان هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب القيام به. تقدمت وقدمت الطلب، وسكنت الغرفة تمامًا.

بعد ما بدا وكأنه وقفة صمت طويلة، نهضت امرأة. كانت جالسة إلى جوار الممر في صف بالقرب من المؤخرة. كانت في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات من عمرها، وكان شعرها رماديًّا مفروقًا من المنتصف، ومرفوعًا في كعكة أنيقة. عندما نهضت كانت طويلة، ونحيلة، ومنتصبة، وفخورة.

قالت: «يا فتاة، اسمي جيرترود، وقد أعجبني حديثك وأعجبت بك. والآن، ليس لدي دفتر شيكات، وليست لدي بطاقات ائتمان. بالنسبة إلي، المال يشبه الماء كثيرًا؛ يندفع في حياة بعض الناس مثل النهر الهائج، لكنه في حياتي يتدفق مثل مجرى هزيل. لكنني أريد أن أمرره بطريقة تفيد معظم الناس. أرى أن ذلك حقي وواجبي، وهو أيضًا مصدر بهجتي. معي خمسون دولارًا في محفظتي كسبتها من غسل ملابس امرأة بيضاء، وأريد أن أعطيكِ إياها».

قطعت الممر وسلمتني الدولارات الخمسين خاصتها. كانت من فئة خمسة دولارات، وعشرة دولارات، ودولار واحد. ثم منحتني عناقًا كبيرًا. وبينما تتراجع إلى مقعدها، بدأ الآخرون يصعدون ويقدمون مساهماتهم الخاصة من فئة دولار واحد، وخمسة، وعشرة، وعشرين دولارًا. تأثرت حدّ البكاء. لم أتمكن من الإمساك بكل العملات النقدية في يدي، لذا عند حد معين، فتحت حقيبتي ووضعتها على الطاولة لتكون بمكانة سلة للنقود. كانت هذه اللحظات وتدفق الناس للتبرع بأموالهم أشبه بطقس ديني. ساد شعور بالنزاهة والحب. كان مقدار المال الذي تلقيناه –ربما 500 دولار على الأكثر– أثمن لدي من أي مبلغ رأيته من قبل. وأدركت أنه في أسفل الحقيبة نفسها، تحت كل هذه النقود، يوجد شيك بقيمة 50000 دولار. عندما رأيته، أدركت أيضًا أن الدولارات الخمسين الخاصة بجيرترود كانت أكثر قيمة بالنسبة إلي، وأنها في النهاية ستفعل للقضاء على الجوع أكثر مما سيفعله الشيك الذي يحوي مبلغًا أكبر بألف ضعف.

لقد حمل المال الذي تلقيته من جيرترود طاقة التزامها لإحداث فرق –بصمة روحها–. وبينما قبلت المال، شعرت بدفقة من الإلهام والطاقة المتجددة لما رأيته فيها من تجسيد للنزاهة والغاية. شعرت بأن مبادئ منظمتي وبرامجها تتأكد، ليس فقط بفضل الدولارات الخمسين خاصتها، ولكن أيضًا بفضل مساهمتها الروحية. جاءت أموال جيرترود من الروح، وليس من حساب مصرفي يهدف إلى تخفيف الشعور بالذنب أو شراء الإعجاب. لقد أرست هذا المعيار لكل شخص في الغرفة في تلك الليلة، وشعرت بأن المال الذي قدموه كان «مالًا مباركًا». كان المبلغ نفسه ومقدار ما قد يشتريه ثانويًا بالنسبة إلى قوة المال وهو يتحرك بهدف ونية وطاقة روحية في أثناء المساهمة. علمتني جيرترود أن قوة المال مستمدة حقًا من الغاية التي نمنحه إياها، ومن النزاهة التي نوجهه بها تجاه العالم. كانت عطية جيرترود عظيمة، وساعدني صفاؤها على استعادة صفائي.

في اليوم التالي، أرسلت الشيك بقيمة 50000 دولار بالبريد إلى الرئيس التنفيذي لشركة الأغذية، وغمرني الارتياح لشعوري بأنني أعيد الذنب والعار

اللذين حملتهما أيضًا. شعرت بأنني تحررت من العبء. أرسلت خطابًا مع الشيك أقترح فيه أن يختار الرئيس التنفيذي منظمة يشعر بالالتزام تجاهها، وأشكره على أخذنا في الاعتبار. لم أتلقَّ أي رد من الرئيس التنفيذي في ذاك الوقت، ولكنه تواصل معي مرة أخرى بعد سنوات ليختتم أول تعامل مُحرِج بيننا بعمل مذهل وجميل، الذي سوف أشاركه لاحقًا في هذا الفصل.

الندرة مقابل الكفاية: كيف نشعر بالتدفق؟

علمتني جيرترود أن المال مثل الماء. يتدفق المال في حياتنا جميعًا؛ أحيانًا مثل نهر مندفع، وأحيانًا مثل القطرات. عندما يتدفق، يمكن أن ينقي ويطهر وينمي ويغذي. لكن عندما يُحتجَز أو يُحتفَظ به فترة أطول من اللازم، فيمكنه أن يصبح راكدًا وسامًّا لمن يحتجزونه أو يكدسونه.

المال كالماء، مجرد رسول. يمكنه أن ينقل الطاقة المباركة والإمكانات والنوايا، أو ينقل السيطرة والهيمنة والإثم. يمكنه أن يكون تيارًا، أو عملة للحب –قناة للالتزام– أو ناقلًا للألم أو الأذى. يمكن أن يغمرنا المال ونغرق في فوائضه، وعندما نحتجزه وراء سدٍّ من دون داعٍ، فإننا نعوق دورته على حساب الغير.

في حالة الندرة، لا يظهر المال كتدفق، ولكن كمقدار؛ شيء نجمعه ونحتفظ به، ونختزنه. نقيس تقديرنا لذاتنا من خلال صافي ثروتنا، ودائمًا وأبدًا يكون *المزيد أفضل*. أي انخفاض في الميزانية يعتبر خسارة تنقص منا.

أما بالارتكاز على الاكتفاء، فإن حركة المال داخل وخارج حياتنا تبدو طبيعية. يمكننا أن نرى هذا التدفق على أنه صحي وحقيقي، ونسمح بتلك الحركة بدلًا من القلق منها أو الاكتناز. في سياق الاكتفاء، ندرك ونحتفي بقوة المال في الخير –قوتنا على فعل الخير به– ويسعنا اختبار الرضا في توجيه التدفق نحو مُثُلنا والتزاماتنا الأسمى. عندما ننظر إلى العالم على أن فيه ما يكفي، وأننا نكفي لجعل العالم صالحًا للجميع في كل مكان دون إهمال أحد، فإن أموالنا تحمل تلك الطاقة، وتولد العلاقات والشراكات التي يشعر فيها الجميع بالقدرة والتقدير، بغض النظر عن ظروفهم الاقتصادية.

لم تحتفظ الأم تيريزا باحتياطيات نقدية. عندما زرتها في دار الأيتام في الهند، سألتها عما إذا كان لديها أي نصيحة حول جمع الأموال، فأجابت أن طريقتها في جمع الأموال هي الصلاة، وأن الله قد أمدَّها دومًا بما تحتاج إليه، لا أكثر ولا أقل. لقد عملتْ دون احتياطيات، واثقة من أن الله سيرزقها دائمًا، وكان الله عند حسن ظنها. كانت تدير أكثر من 400 مركز في 102 دولة، ودائمًا ما بدا أن لديهم ما يحتاجون إليه بالضبط. دون إفراط ولا زيادة، ولكن أيضًا دون نقص.

أغلبنا لا يمكنه أن يتخيل الحياة بهذه الطريقة، وأنا لا أقترح ذلك حتى، لكن معرفة أن الأم تيريزا أدارت عملية ناجحة بملايين الدولارات بهذه الطريقة تجعلك تفكر من جديد في المال والتدفق.

الإنفاق مقابل الاكتناز

منذ سنوات مضت، تحدَّت زميلتي ومرشدتي جوان هولمز –رئيسة مشروع مكافحة الجوع– المساهمين «أن يُعرَفوا بما ينفقونه، وليس بما يكتنزونه». لم أنسَ هذه الكلمات قط، وبدأت أرقب الأنماط والعادات التي رأيت الناس يتبعونها في هذا الصدد، وتأثيرها الناتج في حياتهم – بما في ذلك حياتي.

في الأنظمة الاقتصادية القديمة، كانت مبادئ الاستدامة والكفاية هي المبادئ المحورية. كانت قيم المشاركة والتوزيع والإنفاق –وليس الاكتناز– هي أسلوب الحياة. ساد مفهوم «المشاعات»[1] وحمايتها من أجل المنفعة العامة، بدلًا من الملكية الفردية و«المقتنيات» الشخصية. كان كل شيء في هذه الثقافات يُنقَل ويُتبادل من شخص إلى آخر، ويُمنَح، ويُستَلَم، ويُمَرَّر، وتزداد قيمته دائمًا.

تروِّج أساطير الندرة التي تحرك الثقافة والحكمة الشعبية للتملك والادخار، والتجميع والاكتناز. لكن في سياق الاكتفاء، يحول الاكتناز بعد مرحلة معينة دون تدفق الموارد وإيجاد طريقها إلى تحقيق أقصى فائدة لها. ومن المفارقات أن حالة الندرة تولد تراكمًا للفوائض، الأمر الذي يقلل فقط

(1) المشاعات هي الموارد الطبيعية والثقافية المتاحة لجميع أعضاء المجتمع.

من قيمة ما لدينا الكثير منه. أصبحنا مثقلين بفوائضنا؛ إنها تزاحم تفكيرنا وحياتنا. صرنا مرتبطين بممتلكاتنا، وبطريقة ما، بدأنا نظن أن ما لدينا يمثل هويتنا، وأصبحت مشاركة أي شيء أصعب وأصعب، لأنه كلما تضاءلت قيمته بسبب فيضان الزيادة شعرنا بأننا أقل قيمة، ويجب علينا الحصول على المزيد.

لا يمكن العثور على الثروة الحقيقية أو الرفاهية في الرصيد الثابت، بغض النظر عن حجم تراكم الأصول المالية. الثروة تنبع من المشاركة والعطاء، والإنفاق والتوزيع، وتغذية وسقاية المشاريع والناس، والهدف الذي نؤمن ونهتم به، باستخدام الموارد التي تتدفق إلينا ومن خلالنا. الاكتناز باعتدال –أو ادخار المال– هو جزء من نهج مسؤول للمالية الشخصية. ولكن عندما تمنعنا «مقتنياتنا» من استخدام المال بطرق ذات مغزى تؤكد على قيمة الحياة، يصبح المال غاية في حد ذاته، وعائقًا أمام الرفاهية.

تمامًا كما ينبغي للدماء أن تتدفق إلى جميع أجزاء الجسد للحفاظ على الصحة، يكون المال مفيدًا عندما يتحرك ويتدفق، ويُساهَم به، ويشارَك، ويوجَّه ويُستثمَر فيما يؤكد على قيمة الحياة. عندما يتباطأ الدم ويبدأ في التوقف أو التجلط، يمرض الجسم. عندما يتباطأ الماء ويركد، يصبح سامًا. ويمكن لاكتناز واحتجاز كميات كبيرة من المال أن يكون له نفس التأثير السام في حياتنا.

كما أعلنت جيرترود بوضوح، كان المال يتدفق عبر حياتها، ليس بطريقة رأتها محدودة، وليس بطريقة تراكم فيها المال لدرجة كبيرة، ولكن بطريقة مكنتها من استقبال المال وتوجيهه بما يتفق مع أسمى التزاماتها وقيمها. عندما نرى المال على أنه شيء يتدفق عبر حياتنا وعبر العالم، ندرك أنه لا ينتمي حقًا إلى أي شخص، أو يمكننا القول إنه ينتمي إلى الجميع، والفرصة المتاحة لنا هي السماح لهذا المورد بالحركة عبر العالم كالماء بطريقة تغذي معظم الناس، وتهدف إلى تحقيق الهدف الأسمى.

يمكن القول إن جامع الأموال الماهر هو وسيط للطاقة المقدسة للمال، يساعد الناس على استخدام المال المتدفق عبر حياتهم بأكثر طريقة مفيدة

تتسق مع تطلعاتهم وآمالهم للإنسانية. يمكن القول إن المستشار المالي الماهر هو في الحقيقة شخص يمكنه إلهام العميل لفعل نفس الشيء، استثمار المال بطرق تساهم بشكل أكبر في حياة هادفة ومُرضية. يمكن القول إن كل واحد منا لديه الفرصة في حياته لإدارة تدفق المال، مهما كان المقدار الذي يأتي في طريقنا.

في هايتي قول مأثور يقول: «إذا حصلت على قطعة من الكعك وأكلتها كلها، فسوف تشعر بالجوع. أما إذا حصلت على قطعة من الكعك وشاركت نصفها، فسوف تشعر بالشبع والرضا». إن أسعد الناس الذين عرفتهم وأكثرهم بهجة هم من يعبرون عن أنفسهم من خلال توجيه مواردهم المالية – كلما امتلكوها– تجاه التزاماتهم الأسمى. إن عالمهم هو عالم يكمن فيه الشعور بالثراء في مشاركة ما لديهم، والعطاء والإنفاق والتعبير عن أنفسهم بصدق من خلال المال الذي يتركونه يتدفق.

المال يحمل طاقة الروح

تمامًا كما وصفت جيرترود قطرات المال كشيء تفتخر بتمريره، وترغب في تمريره «لتحقيق أكبر منفعة لأغلب الناس». فإن المال بالنسبة إلى كل منا بأي قدر هو مجرى يعمل على نقل الطاقة والأهداف.

لقد حول الأشخاص والأسر من ذوي الموارد المالية القليلة جدًّا –وأولئك من ذوي الثروات المالية الهائلة– تدفقهم المالي نحو الأسباب والالتزامات التي تطرب لها قلوبهم، ولم تزل أموالهم تنقل إلى العالم نفس الطاقة المبهجة التي تؤكد على قيمة الحياة إلى العالم، ولم تزل تحدث فرقًا. لا يعيش هؤلاء الناس في خوف من فقدان ما لديهم، أو خوف من عدم وجوده، وأنه لن يكون كافيًا أبدًا. إنهم ينعمون ببركة الموارد، وبالتقدير والعرفان لحصولهم على ما يحتاجون إليه بالضبط، أو أكثر مما يحتاجون إليه، وبالتركيز على جعل المال قناة، أو تجسيد لامتنانهم وغايتهم، موَّل هؤلاء الأشخاص المستنيرون بعضًا من أهم المؤسسات الاجتماعية والتحولات المحفزة في العالم، وكثير منهم كانوا أشخاصًا ذوي إمكانات متواضعة.

وقد عملت من كثب أيضًا مع عائلات وأفراد يملكون ثروات كبيرة، بعضهم سببت لهم ثرواتهم جراحًا عميقة. على العكس من قناعاتنا، فإن حياة أغلب هؤلاء الأشخاص درب من الفوائض والخواء. عندما تكون الثروة والامتيازات هي الظرف السائد، وحيث يحدد المال الحياة والشخصية، غالبًا ما يكون الخوف من فقدانها عميقًا. يتصرف الناس بشكل دفاعي مستميت للحفاظ على المال، والحصول على المزيد والمزيد منه، واستخدام ما لديهم لسد حاجتهم للسيطرة على الآخرين. تصبح الحياة لعبة لا بد أن يفوزوا بها بأي ثمن، والمال الذي يسيطرون عليه يضاعف من قدرتهم على قهر الآخرين وتحقيرهم، والحط من شأنهم، حتى يتمكنوا من البقاء في القمة. يمكن أن تقسو علاقتهم بالآخرين، وتلوثها المخططات والريبة، مع نزاع داخلي مفجع وصراعات على السلطة. يتفشى إدمان الكحول والمخدرات في العائلات التي تعتبر جزءًا من «المجتمع الراقي» للأثرياء. تظهر انتهاكات الثقة الشخصية والخصوصية في الاعتداء الجنسي والعنف. إن تلك العائلات الثرية ليست غريبة عن أخبث التجاوزات التي تغذيها ثقافة المال.

شفاء عائلة: الاختيار الشجاع الذي اتخذته باربرا

رأيت مرة تلو الأخرى أناسًا يمنحون المال بطريقة حررتهم من فخ الاكتناز والاستحواذ، وجعلتهم ينفتحون على تجربة حياتية مع المساهمة. كانت باربرا -وهي امرأة في أواخر الستينيات من عمرها- المستفيدة من ثروة تراكمت عبر خمسة أجيال لعائلة في نيو إنجلاند. ميزت تلك الثروة عائلتها منذ زمن بعيد، بحيث لم يكن أي أحد من العائلة أو خارجها ينظر إلى العائلة بأي منظور سوى أموالها. وبقدر ما يتذكر أي أحد، عاشوا حياة الرقي الحقيقية لـ «المال النبيل»، وليس حياة بالغة البهرجة وفقًا لمعايير الثروة المعاصرة. كان أفراد الأسرة موجودين لخدمة الثروة وحمايتها، وتمثيلها، واستخدامها لتعزيز مكانة الأسرة الفائقة، التي لا تشوبها شائبة في نظر الجمهور. في اختيارهم الملابس والمدارس والأصدقاء، وحتى الزيجات، كان يُتوقع منهم أن يضعوا في اعتبارهم احترام الثروة واحترام أفراد الأسرة القائمين عليها. كانت قيمة أي فرد في أسرتهم انعكاسًا لمكانته في التسلسل الهرمي للسلطة والمكانة، والوصول إلى ثروة العائلة.

بالنسبة إلى باربرا وشقيقتيها، أصبح هذا الميراث بمكانة لعنة، تجلت في إدمان الكحول، الذي شلَّ قدرة جيل واحد على تربية الجيل التالي بشكل مسؤول، وأنتج جيلًا آخر من الأطفال الأثرياء العاطلين.

عندما قابلتُ باربرا في أوائل تسعينيات القرن الماضي، كانت تتعافى من إدمان الكحول، وتكافح لمساعدة أطفالها الثلاثة البالغين على مواجهة إدمانهم ومشكلاتهم الأخرى. تحت ضغط الأسرة للاحتفاظ بالثروة، وخوفًا من تبديدها، لم تتبرع باربرا وأقرباؤها بأي مال تقريبًا. بدلًا من ذلك، استخدموه في التصدي للأزمات التي تعصف خلف واجهة «رابطة اللبلاب»[1]. كانت الكوارث الشخصية والمالية حالة دائمة للعديد من أقربائها وأطفالها البالغين. وقد رأت أن أموال الأسرة تُنفق وتُستنفد بطرق أزعجتها واستنزفت ليس ثروتها فحسب، بل روحها أيضًا.

بدأ حديثنا الأول باهتمام باربرا بأن تصبح مساهمة في مشروع مكافحة الجوع. في تلك المحادثة، تحدثَتْ عن رغبتها في إيجاد مغزى لحياتها، وإضفاء معنى أكبر لثروتها على العالم. قدمت مساهمتها الأولى دون الكشف عن هويتها، لمعرفتها أن عائلتها ستغضب من مثل هذا التبرع الكبير، الذي اعتبروه في النهاية من «أموالهم». ولكن مع زيادة التزامها وسخائها، اتخذَتْ خطوة جريئة بإعلان أنشطتها وإسهاماتها لأفراد الأسرة. وقد غضبوا -كما توقّعَتْ- في البداية، ثم أخذت تجندهم شيئًا فشيئًا في العمل الفعلي، وتدعوهم للانضمام إلى شراكات مع أناس لا يختلفون عنهم كثيرًا، كانوا يكافحون من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي في ظل ظروف صعبة.

خطا أبناؤها وبقية أعضاء الأسرة واحدًا تلو الآخر من حياتهم التي يركزون فيها على أنفسهم إلى العالم الأكبر الذي اختبروا فيه مثل هذه الشراكة الصادقة. أصبحوا يعرفون أنفسهم بشكل مختلف، من خلال التعاون الإيثاري مع الآخرين، وكشركاء نافعين ومنتجين وقادرين على إحداث فرق. كان التحول في حياتهم الفردية وفي حالة الأسرة ملحوظًا. نجحت باربرا

---

(1) رابطة اللبلاب هي رابطة تضم ثماني من أشهر الجامعات وأقدمها في الولايات المتحدة الأمريكية، من بينها هارفارد وييل وكورنيل.

في تغيير طاقة وتدفق أموال الأسرة، واستثمرتها بقصد شفاء وبناء عائلات قوية –عائلتها وعائلات الآخرين–، وحمل المال تلك الطاقة وذلك الشفاء في حلقة مكتملة.

تعرف على التدفق: أين يذهب المال حقًّا؟

هل تعرف تدفق المال في حياتك؟ هل أنت على دراية بكيفية وصوله إليك؟ هل تحدد عن وعي أين تريد أن يذهب مالك؟ عندما تتمكن من رؤية الطريقة التي يتدفق بها المال في حياتك، يمنحك ذلك قوة لمعرفة مكانك في علاقتك به وأين تريد أن تذهب به.

إذا أردت صورة واضحة لأولوياتك في الحياة وهويتك وما تهتم لأمره، راجع دفتر شيكاتك وفواتير بطاقتك الائتمانية وكشف حسابك المصرفي، ففيهم يمكنك أن ترى التدفق بالأبيض والأسود. ربما يذهب المال إلى السيارات والملابس، ربما إلى التعليم أو السفر.

حياتك ليست منفصلة عن الطريقة التي يتدفق بها المال إليك ومن خلالك إلى غايات أخرى. هل يأتيك المال عن طريق عمل؟ أو علاقات؟ أو ربما ميراث يحمل طاقة الالتزامات وقِيَمه المغذية والمولدة؟ أم يأتيك عن طريق عمل أو علاقات تستنزفك أو تستغلك أنت أو الآخرين أو البيئة؟ يمكن للعلاقة غير الصحية مع الطريقة التي تكسب بها المال أن تقمع حياتك. الطريقة التي نجني بها المال والطريقة التي ننفقه بها لها تأثير. إن لها أهمية. إنها تُحدث فرقًا حقيقيًّا. وإدخال ذلك الوعي في علاقتك بالمال، أن تصحح مسار ذلك التدفق، هو خطوة شجاعة وتمكينية ومهمة.

معرفة التدفق هو مجرد استعراض من دون لوم أو إدانة. يمكننا أن نشهد كيف يأتي المال إلينا، وكيف ننفقه، ندخره، نمنحه الآخرين، وفي مهمة تقصِّي حقائق ماليتنا الشخصية، نبدأ في رؤية التدفق على أنه ممثل لقِيَمنا. في بعض الأحيان يتناسب ما تكتشفه مع تصورك عن نفسك، وفي أحيان أخرى لا يحدث ذلك. وعندما لا يحدث، ثمة فرصة لمراجعة التدفق، والطريقة التي تديره بها وتوجهه. عندما تعرف التدفق دون إصدار أحكام جيدة أو

سيئة، تمتلك المعرفة الذاتية الضرورية لاتخاذ قرارات واعية تجعل إنفاقك متسقًا مع رؤيتك لنفسك والتزاماتك الأسمى.

توجيه التدفق: قوتنا كمستهلكين

لا يتطلب الأمر ثروة عائلية لتوجيه الدولارات إلى العالم بقوة التزاماتك ونزاهتك. في سنوات شراكتي مع باربرا، وآلاف المساهمين الآخرين بعدها، رأيت نفس القوة التحويلية لأي قدر من المال. كل واحد منا –كأفراد– يمنح المال هذه القوة الولّادة عندما يتخذ حتى أكثر الخيارات الروتينية بهدف. يمكننا أن نضع المال عن وعي في أيدي المشاريع والبرامج والشركات والبائعين الذين نحترمهم ونثق بهم، وحتى أن نختار دفع الضرائب كوسيلة للتعبير عن التزامنا واستثمارنا كمواطنين.

إن لدينا قوة أكبر مما ندرك بكثير لتوجيه مواردنا المالية بطرق تدعم وتمكن وتعبر عما نؤمن به. يتطلب توجيه التدفق شجاعة، لكن مع كل خيار، نستثمر في العالم كما نتخيله. يمكننا على سبيل المثال أن نختار بوعي ما إذا كنا سننفق أموالنا على المنتجات أو وسائل الترفيه التي تعد عنيفة ومدمرة لنفسية أطفالنا، أو أن نستثمر في الأنشطة التي تثري تجربتهم في الحياة وتعمق تقديرهم لها. يمكننا أن نختار إما الإنفاق على مظهر النجاح وإما الموضة، وإما استثمار أموالنا بطرق تغذي الحياة الداخلية. يمكننا استخدام هذا المورد المهيب الذي يمثله المال في تأييد تلك الشركات التي تدعم منتجاتها وأفرادها رفاهية أطفالنا ومجتمعاتنا، أو يمكننا أن ننغمس في إنفاقه للحصول على المزيد ببساطة لأننا نستطيع، ونجد أنفسنا نكتنز الأشياء التي في نهاية المطاف تثقل كاهلنا بالفوائض فقط، وتنشر الفوضى في منازلنا، وينتهي بها الأمر في مكب النفايات. أعرف ذلك لأنني فعلته بنفسي!

التسوق من أجل آية: نداء صحوتي

عندما وُلِدَت حفيدتي الأولى آية، في عام 1999، طِرتُ من الفرحة لمجيئها. لم أطق صبرًا للتسوق من أجلها. استحوذ كل متجر للأطفال وكل

إعلان على مخيلتي، وأخذني في عالم من الكنوز الوردية الجميلة الخاصة بالفتيات الصغيرات. عندما صار عمرها ثلاثة أشهر، اتفقتُ مع زوجة ابني حليمة أن نذهب للتسوق وشراء ملابس الأطفال. كانت كل ملابس الأطفال التي أُهدِيَت لها وقت ولادة آية قد ضاقت، وحان الوقت لشراء بعض الأشياء الجديدة. بسبب جداول أيام الأسبوع المزدحمة، خططنا لأن تكون رحلة التسوق في عطلة نهاية الأسبوع، حيث يمكننا تخصيص اليوم كله لها. خططنا أن نلتقي في مركز تسوق كبير بمقاطعة مارين، على بعد نحو نصف الساعة من منزلي. كانت حليمة قادمة من أوكلاند مع الطفلة، وكانت ابنتي سمر قادمة من بيتها في سوساليتو. ثلاث نساء وطفلة – كنا على وشك أن نحظى برحلة تسوق قوية!

قبل أن أغادر المنزل بفترة وجيزة رن الهاتف، وكان المتصل ابني زاكري، والد آية. عرفت من نبرة صوته أنه يريد أن يخبرني بشيء جاد. قال: «أمي، أعرف أنك ستذهبين للتسوق اليوم مع حليمة، وأريد أن أخبركِ كم هو مهم بالنسبة إلينا أن نشتري أشياء لابنتنا منتجة ومصنعة بطرق نشعر بالرضا عنها».

مضى يسرد قائمة المتاجر التي لا يريداننا أن نشتري منها. إحدى سلاسل المتاجر المحلية العصرية كان معروفًا عنها أنها تستخدم عمالة الأطفال في إندونيسيا. متجر آخر محترم لم تكن لديه سياسة ضد استخدام الأصباغ السامة، ولم يرغب زاكري وحليمة في أن تذهب أموالهما لدعم الشركة.

ثم تابع زاكري، بلطف، ولكن بحزم، طالبًا مني ألا أشتري لآية أكثر مما تحتاج إليه، فلم يرغبا في بدء نمط من الإسراف. وطلب مني شراء الأشياء فقط من المتاجر أو العلامات التجارية التي تعتمد ممارسات التصنيع الطبيعي والمستدام، وممارسات العمل العادلة. قال إنه وحليمة أرادا أن تكون الأشياء التي اشترياها –والأشياء التي أشتريها لابنتهما– متوافقة مع قيمهما. ثم حدد عددًا قليلًا من المتاجر التي من المرجح أن نجد فيها تلك العلامات التجارية.

أتذكر أني صُدِمتُ كليًّا بعد هذه المحادثة. لم تتطابق كلماته مع صورة فورة التسوق التي ملأت ذهني. لم يخطر ببالي التفكير بتلك الطرق عند شراء

الملابس لحفيدتي الجديدة. نشأتي، وتأهيلي، والطريقة التي أرى بها هذه الطفلة الوليدة وشعوري تجاهها، كل شيء كان مغمورًا بأصوات ثقافتي وتاريخ أسرتي، ولم ألحظ أنني كنت منغمسة تمامًا. لقد وقعت تحت تأثير تعويذة التسوق التي تستهدف الجدات. لقد أغووني، ووقعت في الفخ حتى النخاع. ها أنا ذي، ناشطة اجتماعية أعمل على وقف عمالة الأطفال في البلدان النامية وتنظيف البيئة، ومع ذلك عميت تمامًا عن حقيقة أنني كنت على استعداد لشراء أي شيء وكل شيء لحفيدتي الحبيبة دون أي وعي بالمكان الذي جاء منه، ومن صنعه، وكيف صُنع، وأي عواقب نتجت عن ذلك.

أدركت أيضًا أنني كنت لأشتري أكثر بكثير مما تحتاج إليه. ما جال بخاطري كان عددًا لا نهائيًا من الفساتين والجوارب والقلنسوات الوردية. ثم توقفت مسيرة هذا العرض الذي لا طائل من ورائه بفضل المحادثة مع ابني. كنت أعرف أنه على حق، وحليمة أيضًا أبلغتني بنفس المعايير في محادثات سابقة. ومع ذلك، ما مدى سهولة الانغماس في نزوة الشراء، وترك عادات المستهلك الواعية ليوم آخر. كل التأهيل الذي خضعت له في المجال، وكل ما شهدته من ظروف وحشية ومصانع استغلالية في آسيا، كل التزامي طمسه فرحي الكبير بماراثون التسوق من أجل حفيدتي هذا. تطلب الأمر نداء صحوة من ابني كي أرى أنني لم آخذ كل تلك الدروس وأطبقها في الحياة الواقعية. ليس في حياتي الخاصة بأية حال، ليس حتى تلك اللحظة.

بوجهٍ مُخَضَّب، ولكن بامتنان، وعدته أن أحترم طلبه. قابلت ابنتي وزوجة ابني في مركز التسوق، وتسوقنا بنوع من الوعي لم أعهده يومًا. تفحصنا الملصقات. سألنا أسئلة. وتعرفنا على الأقمشة ومنشأ الخامات. اخترنا المتاجر التي كان الناس فيها على دراية بالحرفيين الذين يقفون وراء منتجاتهم، واشترينا القدر الكافي تمامًا من الملابس للأشهر القليلة التالية من حياة الصغيرة آية.

بحلول الوقت الذي انتهينا فيه، زال شعوري بالتخوف مما بدا أنه قيود مفروضة على روح التسوق. كنت متحمسة! ازدادت متعة شراء الأشياء الجميلة لحفيدتي بفضل رضاي عن استثمار أموالي في خدمة الشركات والحرفيين

الذين حاكوا السترات الصوفية، أو وضعوا حشوة اللحاف. شعرت بالرضا عند الدفع لبائعي المتجر مقابل خدمتهم الطيبة والمراعية. اختتمنا رحلة التسوق بشعور من الإنجاز والتحقق، لم نثقل أنفسنا بأكثر مما ستستخدمه آية، فقط كمية مناسبة من الملابس ومعدات الأطفال للأشهر القليلة القادمة من طفولتها. كان مُرضيًا أن أوجِّه تدفق أموالي وأستثمره بمعاييري الخاصة، وأنفقه على الناس والأماكن التي أشعر بالرضا عنها.

جمع التبرعات: نافذة على التدفق والروح

أحب طلب المال من الناس. إن جمع التبرعات بالنسبة إليَّ بمكانة نداء، وليس المهمة المرعبة أو الالتزام المرهق الذي يفترض أن يكونه. جمع التبرعات عمل شاق، لكنني أعتقد أيضًا أنه عمل مقدس. إنه يمنح فرصة قوية ومميزة لخوض حديث حميمي مع شخص آخر حول طبيعة التزاماته العليا. تمكنهم هذه الأحاديث من توجيه الأموال التي تتدفق في حياتهم نحو تلك الالتزامات العليا بطريقة ما. إن جمع التبرعات بأكمله يدور حول التدفق: تحريره، ودعوته، وتوجيهه، وتمكين الناس من تجربة الإشباع الذي يوفره التدفق بأنفسهم، أينما كان موقعهم من طريقه.

في أثناء جمع التبرعات من الناس حول العالم، وجدتُ أن الجميع في كل مكان يرغبون في المساهمة بأموالهم لصنع فارق في العالم – سواء كانت لديهم بضع روبيات هندية أو كواشات زامبية[1]، أو يملكون ملايين من الينّات، أو مئات الآلاف من الدولارات، فإن جميعهم في النهاية يريدون وضع أموالهم في تدفق. والعمل الخيري على أي مستوى يمكن الناس من إعادة التواصل مع هذه العلاقة بالمال. في التفاعلات الخيرية، يمكننا العودة إلى روح المال: المال كحامل لنوايانا، والمال كطاقة، والمال كعملة للحب والالتزام والعبادة، المال كفرصة لتغذية تلك الأشياء التي نهتم لأمرها.

عندما نكون في ميدان الروح، نسقي المال الذي يتدفق في حياتنا بتلك الطاقة. هذا النوع من الوصل الروحي يخلق تدفقًا لما أسميه: المال

(1) الكواشا هي العملة المحلية لجمهورية زامبيا.

المبارك، المال الذي يملك قوة مذهلة. على الرغم من أنني لم أجمع التبرعات من الشركات والمؤسسات إلا في مراتٍ قليلة، فأنا أعلم أن القرارات في تلك الكيانات يتخذها أناس أيضًا في النهاية، وعندما ينخرط الناس بأرواحهم بصدق، فإن الالتزامات التي يقطعونها بالمال يمكنها أن تغذي العالم.

بالإضافة إلى الشرف الذي حظيت به في هذا النوع من التفاعل الحميمي والملهم مع الآخرين كجامعة تبرعات، رأيتُ أيضًا أناسًا يكتشفون ثروتهم. وبهذا أعني أنهم يشاهدونها بعمق، وفي العديد من الحالات تكون تلك المرة الأولى. حدث هذا حتى مع أناس يقعون تحت أقل خط فقر يمكن أن نتخيله في أي بلد على وجه الأرض، وحدث مع أناس من بين أصحاب المليارات في العالم. تنبع تجربة الثراء الحقيقي من المشاركة وتجسيد مبدأ امتلاكك ما يكفي. هذا الاقتباس الجميل عن الشاعر الهندي رابندرانات طاغور يعبر عن تجربة الاكتفاء تلك:

لقد عشت على الجانب الظليل من الطريق وراقبت حدائق
جيراني تنعم بأشعة الشمس.
شعرت بأنني فقير، وتنقلت جائعًا من باب إلى باب.
كلما أعطوني أكثر من فائضهم المهمَل، أصبحت أكثر وعيًا
بوعائي الذي أستخدمه في التسول.
حتى استيقظت من نومي ذات يوم على انفتاح بابي المفاجئ،
وأتيت أنتَ وطلبت صدقة.
بيأسٍ فتحت غطاء صدري، فأذهلني أن أجد ثروتي هنالك.

وهبني جمع التبرعات فرصة الوقوف على مسار التدفق –في أنهار المال وقطراته– والمساعدة في توجيهه إلى المساعي التي تلبي أكثر الاحتياجات والتطلعات عمقًا للحياة على الأرض: القضاء على الجوع، تحسين الصحة ومحو الأمية، رعاية الأطفال، رعاية المرضى والمحتضرين، حماية الأرض

وإدارة الموارد الطبيعية بحكمة، إنشاء مجتمعات صحية ومزدهرة تدعم وتؤكد على قيمة الحياة في جميع أنحاء العالم.

الكثير من الناس مثلي يلتزمون بهذا العمل طيلة حياتهم، من أجل المنظمات التي توفر الهيكل الذي يتيح تدفق المال والالتزام، كي يسري التدفق من هنا إلى هناك ثم يعود أدراجه. ولكن في نهاية المطاف، فإن الجميع –أنا، وأنت، وأصدقاءك، وجيرانك، والرجل الواقف أمامك في طابور البقالة، والمرأة في السيارة التي خلف سيارتك– جميعهم يقفون على مسار تدفق المال، ولديهم الفرصة لتوجيهه. يمكن لكل واحد منا أن يكتشف اكتفاءه ورخاءه، وإحساسه بالكفاية، وثروته الخاصة في ذلك التدفق.

العمل الذي لم يُنجَز للرئيس التنفيذي

لم أنسَ جيرترود قط. ظلت ذكراها معي في كل عملية جمع للتبرعات خضتها منذ تلك الليلة في عام 1978، عندما شاركتني في كنيسة هارلم. إن الدروس التي تعلمتها منها ما زالت حية بطرق ما كنت لأتخيلها. كان ذلك اليوم كفيلًا بأن يغير حياتي، بغض النظر عن النتيجة النهائية. ولكن بعد عدة سنوات، ظهر النصف الآخر من عمل ذلك اليوم ليقدم خاتمة مفاجئة.

أصبح مشروع مكافحة الجوع منظمة أكبر وأكثر بروزًا، وأصبح سجل نتائجنا أضخم شهرًا بعد شهر، وعامًا تلو عام. وبعد مضيٍّ خمس أو ست سنوات من اجتماعي المحرِج في شيكاغو مع المدير التنفيذي لشركة الأغذية الكبيرة، وقراري إعادة الشيك بعد لحظة التجلي التي مررت بها في هارلم، تلقيت رسالة منه. كان قد تقاعد منذ ذلك الحين، وتلقى مكافأة نهاية خدمة مجزية لعمله رئيسًا للشركة. في تلك الرسالة، قال إنه يعيش نوعًا من الوفرة التي تفوق احتياجاته بكثير. وقال إن التواصل الذي حدث بيننا منذ سنوات كان من الممكن نسيانه بسهولة لولا الرسالة التي أرسلتها والحادثة الغريبة لإعادة المال. في فترة تقاعده، استرجع مشوار حياته المهنية الطويل والمثمر، وكان الأمر الأكثر بروزًا بالنسبة إليه هو تواصلنا، وإعادة ذلك الشيك بقيمة 50000 دولار مع الرسالة التي توضح أننا نبحث عن شركاء ملتزمين. كانت

لحظة مؤثرة وفريدة بالنسبة إليه عندما كسر شخص من خارج عالمه كل قواعد الشركات الأمريكية التي تعلمها بعمق -أن عليك أن تفعل أي شيء وكل شيء لزيادة ربحك- وأعاد أموال الشركة.

بعد تأمل اللحظات ذات المغزى التي مر بها قبل تقاعده، أدرك أنه يريد في الواقع أن يصنع فرقًا في القضاء على الجوع في العالم، يريد فعلًا لماله الذي تحت إمرته أن يصنع فرقًا. وأمكنه أن يرى الآن أن من الممكن تقديم مساهمة ذات مغزى في القضاء على الجوع في العالم. لذلك، تأكيدًا على التزامه، قدم من جيبه الخاص مساهمة شخصية في مشروع مكافحة الجوع تزيد عدة أضعاف على الشيك بقيمة 50000 دولار الذي أعدته. كان ذلك نابعًا من روحه. قال إن ذلك التبرع بالنسبة إليه هو إيفاء بمهمة كان قد نسيها. وكانت تلك طريقته في إكمال هذا الجزء من العمل غير المُنجَز.

أما بالنسبة إلي، فلن أنسى أبدًا فتح هذه الرسالة، ورؤية ذلك الشيك، وإدراك قوة المال مرة أخرى عندما يكون مشبعًا بالهدف والنزاهة ومتوائمًا مع روحنا. كان انتصارًا! انتصارًا لجيرترود، انتصارًا لجمع التبرعات، وانتصارًا لهذا الرجل الذي تحدث بمثل هذا الكرم العميق عن التواصل الذي ارتقى بحياته.

بغض النظر عن مقدار المال الذي يتدفق في حياتك، ستشعر بالثراء عندما توجه هذا التدفق لغرض روحي. ستشعر بالحيوية والحياة عندما تستخدم أموالك بطريقة تمثلك، ليس فقط كاستجابة لاقتصاد السوق، ولكن أيضًا كتعبير عن هويتك. وسوف تضيء حياتك عندما تدع أموالك تسير تجاه الأمور التي تهتم لأمرها. هذا هو الهدف الحقيقي من المال.

6

ما تُقدّرُه يعلو قدره

في سياق الاكتفاء، يصبح التقدير ممارسة قوية، ممارسة تخلق قيمة إضافية من خلال انتباهنا الواعي لقيمة ما لدينا بالفعل.

ما تقدره يعلو قدره. هذا صحيح في ثقافتنا المالية، حيث نجد أن المنزل المرغوب في الحي المرغوب يعلو ثمنه من عامٍ إلى آخر. وهو صحيح في علاقاتنا الشخصية، حيث تقديرنا لخصال أحدهم قد تجعله يزهر أمام أعيننا. وهو صحيح في الأعمال التجارية، حيث التزام الشركة تجاه موظفيها ينمِّي الفخر والإتقان في عملهم. إن هذا الفعل البسيط والقوي الذي نسميه التقدير يضاعف الحرية والإبداع، ويضاعف في نهاية المطاف ما نختبره من نجاح، لا سيما في علاقتنا بالمال. إن التقدير هو القلب النابض للاكتفاء.

في سياق الاكتفاء، يصبح التقدير ممارسة قوية، ممارسة تخلق قيمة إضافية من خلال انتباهنا الواعي لقيمة ما لدينا بالفعل. يتسع انتباهنا ويثري شعورنا تجاه ما هو ماثل أمامنا.

لدينا الفرصة لتوجيه انتباهنا إلى طريقة تعاملنا مع المال، وعندما نفعل نزداد قوة وتمكينًا. يصبح ذلك هويتنا وكل ما نراه. عندما نسمح للغيرة والحسد والاستياء وحتى الحقد بأن يصبح محور انتباهنا وهدفنا، يصبح تعاملنا مع المال نضاحًا بالغيرة، والحسد، والاستياء، والحقد. وعندما نوجه انتباهنا إلى الإبداع والشجاعة والنزاهة، نصبح تجسيدًا لتلك الصفات في كل ما نفعله في تعاملاتنا مع المال.

عندما ينصب اهتمامك على ما هو ناقص ونادر –في حياتك، وعملك، وعائلتك، ومدينتك– يصير ذلك هو كل ما تراه. تلك هي الأغنية التي تغنيها، الرؤية التي تولّدها. تنغمس في النقص والعوز، وما تفتقر إليه، وتدعو الآخرين إلى التجربة نفسها. إن كان انتباهك منصبًّا على المشكلات والانهيارات المالية، أو فكرة الندرة التي تقول بأن *ليس ثمة ما* يكفي، أو إن *المزيد أفضل*، أو إن *هكذا تسير الأمور دائمًا*، فذلك هو ما سيحتل وعيك. تنمو هذه الأفكار والمخاوف من الانتباه الذي توليه لها، ويمكن أن تهيمن على حياتك. بغض النظر عن مقدار المال الذي لديك، فلن يكفيك أبدًا؛ ذلك لأن راحة البال الحقيقية لا تُشتَرى بمال. إنك تذكي وقود الندرة وتشدِّد قبضتها على عالمك.

إن كان انتباهك منصبًّا على القدرة التي لديك لإعالة نفسك وعائلتك، والمساهمة بطريقة هادفة في سلامة الآخرين، فسوف يغذي ذلك تجربتك لما لديك وينميه. حتى في المِحَن، إن استطعت تقدير ما تملكه من قدرة على مواجهتها والتعلم والنمو منها، فسوف تخلق قيمة لا يمكن لأحد أن يتخيلها. في ضوء تقديرك، تنمو تجربتك للثراء.

يمكننا استخدام تقديرنا –انتباهنا وإرادتنا الواعية– لبث قليل من السيطرة في ميدان المال، وتحويل علاقتنا به إلى ساحة مفتوحة للنمو والحرية. تلك هي الحقيقة، وقد تعلمتها في المقام الأول من أناس نعدُّهم من الفقراء. تعلمتها في أماكن حول العالم حيث لا يوجد ماء ولا طعام تقريبًا، ولا يوجد تفسير لحقيقة أن الناس ما زالوا أحياء بالأساس.

بنجلاديش بلد آسيوي يزيد عدد سكانه على 130 مليون نسمة، على مساحة بحجم ولاية آيوا. كان ذات يوم أرضًا غنية بالغابات الاستوائية المطيرة، ومختلف أنواع النباتات والحيوانات، ووفرة من الموارد الطبيعية. في القرن العشرين، جُرِّدت الأرض من غاباتها بسبب المصالح الأجنبية التي أتت وولَّت على مر السنين، ودُمِّرت الأرض بسبب الحرب، وعواقب القوانين الضعيفة لحيازة الأراضي. في غياب الأشجار والنباتات التي كانت مزدهرة ذات يوم، تسببت الفيضانات الموسمية في إلحاق خسائر أكبر بالأرض والناس. أدرجتها الأمم المتحدة على أنها ثاني أفقر دولة في العالم في أواخر السبعينيات، ثم صارت بنجلاديش تتلقى نوعًا آخر من الفيضانات، فيضان المساعدات. وفي غضون فترة قصيرة أصبحت تعتمد بشكل شبه كامل على المساعدات من المصادر الخارجية. بدأت بنجلاديش تكتسب سمعة عالمية باعتبارها بلدًا محتاجًا وعاجزًا، وأمة ذات وعاء تسول ضخم، وداخل بنجلاديش نفسها أصبح الناس يرون أنفسهم بهذه الطريقة أيضًا. أصبح البنجلاديشيون مقتنعين بأنهم شعب يائس وعاجز يعتمد على الآخرين من أجل الحد الأدنى للبقاء على قيد الحياة.

فيما أصبح حلقة شائعة من تفكك القرى والمجتمعات، بدأ الناس في القرى القريبة من مقاطعة سيلهيت يستسلمون، ويضعون خططًا لمغادرة المنطقة بحثًا عن عمل يوفر لهم قوت يومهم في مكان آخر، أو يرسلون الرجال إلى بلدان ومدن أكبر للعثور على عمل ثم إرسال المال إلى الوطن لإعالة أسرهم الفقيرة.

تقع سيلهيت في منطقة التلال الشمالية من بنجلاديش، وهي مرتفعة بما يكفي للهروب من الفيضانات التي تغمر الأراضي المنخفضة المحيطة بشكل دوري في كل عام. كانت التلال الجافة قد استسلمت منذ زمن لغزو دغلٍ من الأجمات القصيرة الشائكة لنبات ثمرته الوحيدة هي التوت السام. تبدو النباتات المتشابكة معًا وكأنها كتلة هائلة من الشوك – يتعذر الوصول إليها وخطيرة وكثيفة. اعتُبِرَت المنطقة المكسوة بالأعشاب أرضًا حكومية، وصار

محظورًا على المزارعين المحليين تطويرها. ولكن النبات القصير السام الذي نما هناك استمر في الانتشار وغزو قطع الأراضي الصغيرة التي كان القرويون يزرعونها، مسممًا الأرض ومستحوذًا على المحاصيل.

على مدى أجيال، كان القرويون يقتاتون على قطع الأراضي الصغيرة التي منحتهم إياها الحكومة، لكن حتى ذلك أصبح مهمة مستحيلة. بدأ الشباب يتسولون على الطرقات، ويسرقون. صارت الجريمة في أعلى مستوياتها على الإطلاق، لذا انتهى الأمر بالقرويين إلى أن تخلوا عن أرضهم العصيَّة غير المنتجة، وصاروا مستعدين لاتخاذ إجراءات جذرية. كان الكثيرون على استعداد لمغادرة القرية، ونقل عائلاتهم إلى مكان آخر، أو فقدان الأمل في بقاء الأسرة مكتملة، وإرسال الرجال إلى مكان آخر بدلًا من ذلك للعثور على عمل. كان الحديث بين القرويين عاجلًا وواقعيًّا. إلى أين يمكنهم أن ينتقلوا أو يرسلوا الرجال، مما يسمح لهم بزرع أو كسب ما يكفي لإعالة أسرهم؟ دار الحديث أيضًا عن طلب المساعدات المالية من الولايات المتحدة لتمكينهم من شراء الطعام والسلع الأخرى دون عمل على الإطلاق. لقد استسلموا. كانوا متعبين ويائسين. شعروا بأن الإجابة لا بد أن تكون في مكان آخر ومع شخص آخر، شعروا أنهم لن يستطيعوا النجاة بمفردهم.

في هذا الوقت تقريبًا بدأ مشروع مكافحة الجوع في العمل بنشاط في بنجلاديش. كان الكثير من وكالات الإغاثة المستقلة في بنجلاديش بالفعل يمارس عملًا بطوليًّا وملهمًا، لكن ما بدا أنه يحقق تحسينات مستدامة هو المبادرات التي جاءت من البنجلاديشيين أنفسهم، مثل بنك جرامين الذي أصبح شهيرًا الآن، والذي أنشأه الدكتور محمد يونس، وهو برنامج ائتمان صغير يقدم قروضًا للأعمال الصغيرة للنساء العاملات بكدّ والفقيرات، ومبادرة BRAC، وهي مبادرة لتنمية القرية أنشأها الزعيم البنجلاديشي فيصل عابد، وقد حققت نجاحًا كبيرًا حيث فشل الغرباء الذين لا يعرفون الشعب.

أكدت تلك النجاحات والتجارب في مناطق أخرى قناعتنا بأن الشعب البنجلاديشي كان هو مفتاح تطوره، وأن المساعدات الخارجية كانت تحولهم بشكل ممنهج ونفسي إلى متسولين بدلًا من أن يكونوا صانعي مستقبلهم.

كخطوة أولى في عملية إقامة شراكة فعالة، نظرنا معًا بعمق في الثقافة البنجلاديشية: سلوكياتهم، ومعتقداتهم عن أنفسهم، واستسلامهم ويأسهم. أصبح واضحًا أنه بعد فترة طويلة من العيش على المساعدات، فقد الناس الاتصال بأي إحساس بكفاءتهم، أو أي رؤية لبلدهم على أنه قادر على النجاح. في اجتماعاتنا معًا، قرر القادة البنجلاديشيون أن الشيء المفقود، الذي إذا توفر سيمكِّن الناس من الاعتماد على أنفسهم والاكتفاء الذاتي كان رؤيتهم لنقاط قوتهم وقدراتهم. التزم مشروع مكافحة الجوع –كشريك– بتطوير برنامج مصمم لتمكين البنجلاديشيين من إعادة الاتصال برؤيتهم لأنفسهم وبلدهم، مع الوعي بأصولهم واستراتيجياتهم المتاحة لوضع أفكارهم موضع التنفيذ. ومن هذا الالتزام والشراكة جاءت ورشة عمل «رؤية والتزام وخطة عمل». دعت الورشة المشاركين إلى الانخراط في سلسلة من المناقشات الجماعية والتمارين التخيلية التي تمكّنهم من تخيل وتصور بنجلاديش المعتمدة على نفسها، والمكتفية ذاتيًا: بنجلاديش الصحية، المزدهرة، التي قاتلوا سنوات مضت في كفاحهم من أجل استقلالها.

بسبب وجود الكثير من الناس في بنجلاديش، عندما تدعو إلى أي نوع من الاجتماعات، يمكن أن يحضر مئات أو حتى آلاف من البشر. غالبًا ما يتجمع الناس في حدائق القرية وساحاتها. في العاصمة دكا، توجد حديقة عامة تستوعب ألف شخص أو أكثر بسهولة، وهناك أجرينا بعضًا من ورش العمل الأولى. أعلنَّا عن الاجتماع، وفي الوقت المحدد امتلأت الحديقة بالناس. لم يكن المكان منتجعًا ريفيًّا جميلًا –كما قد تتصور–، بل حديقة يغطيها العشب بالكاد، ملآنة بالمئات من هؤلاء الناس البنيين المِلاح، جالسين على الأرض بالقرب من بعضهم بعضًا، وبصحبتهم الكثير من الرضَّع والأطفال الصغار. أناس من كل الأعمار جالسون بآذان مصغية وانتباه، جاهزون للاستماع إلى أي شيء مفيد يمكننا تقديمه لهم.

افتُتح البرنامج بالموسيقى، وبضع كلمات ملهمة، ومقدمات ألقاها قادة المجتمع، وبعض التمارين التفاعلية المبدئية لجذب طاقة الحشد وتركيزهم على المهمة المطروحة. ثم بدأنا البرنامج طالبين من الجميع إغلاق أعينهم وتخيل ما ستبدو عليه بنجلاديش إذا ما اعتمدت على نفسها وتمتعت بالاكتفاء الذاتي:

كيف ستبدو الحياة لو كانت بنجلاديش دولة تصدر أجود السلع؟ كيف ستكون حال بنجلاديش لو عُرِفَتْ بفنها وموسيقاها وشعرها؟ ماذا لو كانت بنجلاديش عضوًا مساهمًا في المجتمع العالمي بدلًا من كونها المتلقي الأكبر؟ وعاء التسول الأضخم المتلقي للمعونة؟ كيف سيكون الوضع لو أن القيادة البنجلاديشية –بما فيها النساء البنجلاديشيات والرجال والشباب البنجلاديشيون– مساهمة في المجتمع؟ كيف ستبدو الحياة حينئذ؟

في البداية، جلس الناس في مكانهم في الحديقة كتفًا بكتف في سكون تام، بأعين مغلقة، دون أن تظهر على وجوههم أي تعبيرات. ساد الصمت الحشد، وظل بحر الوجوه ساكنًا، والعيون مغلقة في تفكير. وبعد بضع دقائق لاحظت الدموع تنهمر على وجه أحد الرجال، ثم تلاه واحدٌ تلو الآخر. كانوا لا يزالون جالسين بأعين مغلقة، لكنهم بدؤوا يبكون في صمت. بعدها لم يكن ثلاثة وجوه، أو أربعة، أو عشرة، أو عشرون فقط هم من تنهمر دموعهم. في هذا الحشد الذي يربو على ألف شخص، كانت مئات الوجوه تبكي. كان الأمر كما لو أنهم لم يفكروا قط طيلة حياتهم في أنهم يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، أو الاكتفاء ذاتيًّا، أو أن يكونوا أمة مانحة، ولم يتخيلوا قط أن في استطاعتهم أن يكونوا أمة تصنع فرقًا لدى أمم أخرى، وأن في إمكانهم أن يكونوا أمة بارزة، لديها صفات يحترمها الناس، ودور فريد تلعبه في المجتمع العالمي. كانت فكرة جديدة شجاعة.

عندما أتممنا هذا التأمل التخيلي، وتشارك الناس الرؤى التي رأوها لقريتهم وأسرهم ومدارسهم وبيوتهم وأعمالهم وأطفالهم وأحفادهم مع بعضهم بعضًا، أصبحت الرؤى غنية وحقيقية، ملموسة ومبهجة. وُلِدَ مستقبل جديد.

في القسم التالي من ورشة العمل دعونا المشاركين للالتزام برؤيتهم. طلبنا منهم ألا يتخيلوا فقط، ولكن أن يلتزموا بأن يكونوا أناسًا قادرين على تحقيق هذا التخيل. عندها كان ليسع المرء أن يراهم رأي العين وهم يتخلون عن قلقهم ومخاوفهم، يتخلون عن إحساسهم بالنقص وعدم الكفاءة، وينهضون بإبداعهم ويلتزمون به. في ذلك التمرين يمكن للمرء أن يرى تغير وضعية الناس وملامحهم؛ بدا الناس أقوى بشكل واضح. كان إحساسهم بالعزم والتصميم معديًا، وبدا المستحيل ممكنًا. ثم انقسموا أخيرًا إلى مجموعات صغيرة للتعاون ووضع الخطوات التي سيتخذونها للوفاء بالتزامهم بجعل رؤيتهم حقيقة. كانت الخطوات عملية ومحلية وقابلة للتنفيذ، ولكن متسقة مع التزاماتهم الجديدة، وتخدم رؤيتهم. بدا أن الناس يعيدون اكتشاف أنفسهم وأسرهم وقريتهم وبلدهم كأناس قادرين واسعي الحيلة وأقوياء – معتمدين على أنفسهم ومكتفين ذاتيًا.

سرعان ما تكررت ورش العمل هذه في تجمعات في جميع الأنحاء: بعضها في المدن، والبعض الآخر في القرى، وبعضها فقط داخل العائلات، وكل يوم أحد للآلاف في ساحة دكا.

ثم حدث أنه في رحلة إلى دكا حضر أحد زعماء قرية في سيلهيت ورشة رؤية والتزام وخطة عمل عن طريق الخطأ تقريبًا. كان اسمه زيلو. جاء ليزور ابن عمه في المدينة، فدعاه ابن عمه للذهاب إلى الحديقة ورؤية ما تدور حوله ورشة العمل هذه. لم يرد زيلو الذهاب، بل أراد الحديث مع ابن عمه حول انتقال أسرته من سيلهيت للعيش في دكا، ومشاركة ابن عمه منزله. أراد زيلو لأسرته أن تغادر قريتهم المقفرة، على أمل أن يتمكن هو من الحصول على عمل في المدينة ومنحهم فرصة لحياة جديدة. ولكن ابن عمه انتصر، وحضرا معًا ورشة العمل.

فُتِنَ زيلو كليًّا بما رآه وعاشه في ورشة العمل، وصحوته على التزامه تجاه قريته والمجتمع المحيط به. مكث في دكا ثلاثة أيام أخرى، وخضع لتدريبٍ مكَّنه من أن يكون قائدًا لورشة عمل بنفسه. ثم أخذ تدريبه ورؤيته إلى سيلهيت.

عند عودته إلى الوطن، دعا أصدقاءه الستة المقربين معًا وقَدَّم ورشة العمل إليهم. مع رؤية مشتركة الآن، والتزام غير محدود بتطوير الموارد البشرية والطبيعية لمنطقتهم، جاء الرجال السبعة بفكرة، ووضعوا خطة لمشروع تجاري زراعي جديد مصمم لإخراج المنطقة بأكملها من الفقر إلى الاعتماد على الذات ومن ثم الرخاء. أطلقوا عليه اسم مشروع: *Chowtee*، *خطوة جريئة نحو الاعتماد على الذات*.

وصلتُ إلى سيلهيت بعد أربعة أشهر فقط، في أبريل 1994، مع سبعة عشر مسافرًا كانوا من كبار المانحين لمشروع مكافحة الجوع. دعانا زيلو إلى هناك ليرينا التقدم الذي أحرزه هو وأصدقاؤه في المنطقة، ولشكرنا على المساهمة التي قدمناها لبلده وشعبه. أخبرنا هو وأصدقاؤه –الذين سميناهم السبعة العظام– قصة تحول منطقتهم وأرونا النتائج.

حكى لنا زيلو كيف عاد من ورشة العمل في دكا ذلك اليوم من شهر ديسمبر مُلهَمًا بأن ينظر بأعين جديدة إلى الموارد التي يمتلكها هو وقومه، وعازمًا على تطوير رؤية والتزام وخطة عمل. بمجرد انضمام رفاقه الستة إليه في التزامه، كانت خطوتهم التالية هي النظر إلى الموارد التي لديهم بالفعل، والتي طالما أغفلوها في السابق. على أطراف البلدة، كانت تقع الأرض الحكومية البور القاحلة المغطاة بشجيرات التوت السام. التقى الرجال السبعة مسؤولين حكوميين وحصلوا على إذن لإزالة سبعة عشر فدانًا من النباتات المتشابكة التي استولت على أراضيهم. ثم قصدوا المجتمع لجمع المال اللازم لشراء المعدات والإمدادات. سحب الناس من مدخراتهم الضئيلة لدعم المبادرة، وتمكن الرجال من جمع آلاف التاكا اللازمة –كانت تساوي 750 دولارًا حينذاك–. وأخيرًا، قدموا نسختهم الخاصة من ورشة رؤية والتزام وخطة عمل أمام ستمئة شخص في قرية يبلغ عدد سكانها ثمانية عشر ألفًا.

شمَّرَ هؤلاء الستمئة شخص عن أكمامهم، وشيدوا طريقًا على طول حافة الأرض، وبدؤوا جهود التطهير. أعجبت الحكومة برؤيتهم ووضوحهم والتزامهم، وأعطتهم مئة فدان أخرى لتطويرها. دَرَّبوا الشباب الذين اتجهوا إلى التسول والجريمة على الزراعة والفلاحة بدلًا من ذلك، ودربوا النساء

الفقيرات –وكثير منهن أرامل– على الزراعة. عند تطهير الأرض، فوجئوا باكتشاف بحيرة غير معروفة سابقًا، وجدول صغير غني بالأسماك.

صارت المنطقة بأكملها قيد الزراعة الآن؛ توفر الطعام والأسماك والتدريب والوظائف لمئات الأشخاص. استفاد جميع السكان البالغ عددهم ثمانية عشر ألف شخص في المنطقة المجاورة من هذا النشاط، حيث أصبحت المنطقة التي عصف بها الفقر الآن مكتفية ذاتيًا، وبدأت في الازدهار. وانخفض معدل الجريمة بنسبة مذهلة، بلغت 70%.

مشينا في الحقول مع زيلو وبقية السبعة العظام، وزرنا مصايد الأسماك وساحات التدريب. غمرتنا حيوية الناس وفرحهم ونجاحهم. وأدركت بينما أسير معهم أنهم أنجزوا هذا العمل الفذ دون أي مساعدة من الخارج تقريبًا. كان لديهم ما يحتاجون إليه طوال الوقت –الأرض، والمياه، والذكاء، والقوة، والقدرة على جمع كل ذلك معًا– لكنهم فقدوا الصلة بهذه الموارد والقدرات في مناخ معونة «العالم الثالث»، واليأس، وعدم الكفاءة المفترضة التي صاحبت ذلك. بمجرد أن أُلهِموا لرؤية أنفسهم بشكل مختلف، لرؤية أنفسهم أقوياء ومبدعين وقادرين، لم يعرف التزامهم حدودًا. كان النجاح حتميًّا.

بالنظر إلى الحقول –التي كانت يومًا عبارة عن دغل ونباتات لا يمكن اختراقها– فكرت في حياتنا الخاصة، وفيما يغطي تربة أحلامنا، وما يعوق رؤيتنا الداخلية أو قدرتنا على أن نرى إلى حين. في عالمهم، كان الدغل والرسالة المربكة التي تقدمها المعونات تخبرهم أنهم غير مكتملين، ومحتاجين، وغير قادرين على النجاة بمفردهم. لقد انطلت عليهم الحيلة، وظلوا منذئذٍ عاجزين عن رؤية الموارد التي أمامهم. بمجرد أن ركزوا انتباههم على مواردهم الداخلية غير المحدودة، تبلورت الموارد الخارجية، صارت فجأة سهلة المنال. واستطاعوا أن يروا أن ما يحتاجون إليه كان دومًا هنالك.

لم أنسَ السبعة العظام قط. عندما تسحقك عقلية الضحية –كما حدث معهم– تنسحق قدرتك على الحلم والتخيل أيضًا، بل تموت. عندما أجد نفسي أفتش عما هو أبعد من قبضتي، أسمع كلماتهم في رأسي، وأعلم أنه إذا كان بإمكاني أن أعيد النظر في داخلي وخارجي، وأن أصل إلى ما هو موجود

ومتاح بالفعل وأن أقدره، فإن قوته وفائدته وجماله سينمو ويزدهر بقوة انتباهي.

البحث التقديري: نظرية إيجابية للتغيير

لقد عُرِفَت قوة التقدير كأداة لبناء منظمات ناجحة، سواء في مجتمع من المزارعين، أو مجموعة من عمال المصانع، أو شركة تضم آلاف الموظفين، أو حفنة من المتطوعين في مشروع لخدمة المجتمع.

قدم ديفيد كوبريدر وديانا ويتني وفريقهما من الباحثين والاستشاريين في مجال النظرية التنظيمية والتنمية البشرية مفهوم «البحث التقديري» كنموذج رسمي للتغيير. في كتابهما «Appreciative Inquiry: Rethinking Human Organization Toward a Positive Theory of Change»، يقترحان أن نحول إطارنا المرجعي من إطار «حل المشكلات» إلى إطار يسعى إلى تحديد الموارد المتاحة في أي مجموعة من الناس للإلهام والحشد والحفاظ على التغيير الإيجابي.

ويتساءلان: كيف ستكون ممارساتنا حول التغيير مختلفة إذا بدأنا بافتراض إيجابي بأن «المنظمات -كمراكز للعلاقات البشرية- حية بقدرة بنَّاءة غير محدودة»؟

في البحث التقديري «نبحث عن الأفضل في الأشخاص ومنظماتهم والعالم المعني من حولهم». ويتضمن البحث التقديري «الاكتشاف الممنهج لما يبث «الحياة» في النظام الحي ويجعله أكثر حيوية، وفاعلية، وقدرة بناءة من الناحية الاقتصادية والبيئية والبشرية». ابحث عما ينجح بدلًا مما لا ينجح، هكذا يقولان. «وبدلًا من النقض والانتقاد والتحليل المبالغ فيه، يوجد الاكتشاف والحلم والتخطيط».

إن القدر الأكبر من حياتنا مع المال متوطن في الفرضيات القائمة على مشكلة الندرة، والتحليل المبالغ فيه، والسعي لإيجاد حلول بعيدة عن متناول أيدينا. إذا أمكنك بدلًا من ذلك أن تصب كامل اهتمامك وتقديرك على ما هو موجود، فستختبر الوفرة المتاحة في الوقت الحالي. ستختبر الاكتفاء،

وسيكون هذا هو كل ما تراه. ستخلق تلك الرؤية، وتدعو الآخرين إلى خوض تلك التجربة. في سياق الاكتفاء، يصبح كل جانب من جوانب حياتك أحد الأصول التي تمتلكها، بحكم قدرتك على اعتناقه والتعلم منه وصنع شيء منه. ما تقدِّره والطريقة التي توجِّه بها انتباهك يحددان جودة حياتك.

قوة التقدير هذه في متناولنا جميعًا، في أي مكان وزمان. قد يختلف بلدك وثقافتك عن بنجلاديش وثقافتها، لكن القلق والخوف والاستسلام واليأس الذي نشعر به أحيانًا بشأن المسائل المالية يمكن أن يكون مماثلًا. بتقديرنا لكل ما نحن عليه وما لدينا بالفعل، يمكننا أن نرى الإمكانات بأعين جديدة، ونحدد الرؤية، ونقطع التزامًا، ونعمل على أساسه.

أودري: العثور على قيمتها

كانت أودري في الثانية والأربعين من عمرها زوجة وربة منزل بدوام كامل، وأمًّا لفتاتين صغيرتين، عندما تقدَّمت بطلب الطلاق من زوجها، زير النساء الذي كان يسيء إليها عاطفيًّا. كانا قد تزوجا منذ ما يقرب من عشرين عامًا، وتحت ضغط من زوجها، تخلَّت أودري عن تعليمها العالي وفرص العمل كفنانة واعدة لتكون ربة منزل متفرغة. كان لأودري حلم في أوقات مختلفة على مر السنين بأن يكون لها مشروعها التجاري الخاص في تصميم ملابس الأطفال، ولكن زوجها ووالديه لم يشجعوها. أخبروها أنها ليست ذكية بما يكفي، وقد صدقتهم.

ينحدر زوجها من أسرة بالغة الثراء، ولديها وفرة من المال، لكنه استخدم ثغرات قانونية لجعل أصوله محظورة عليها.

في أثناء إجراءات الطلاق، ومع كل تبادلٍ قاسٍ لمقترحات التسوية مع زوجها المنفصل عنها، كانت جراحها القديمة تُنكأ بسبب تذكيره إياها المستمر بأنه يعدُّها هي والوقت والحياة اللذين استثمرتهما في زواجهما بلا قيمة، وهو ما عبَّر عنه الآن بمبلغ مخفَّض من الدولارات. «أنا بلا قيمة» كان هذا هو الشعار الذي يردده المال، العقوبة المؤبدة التي حملتها من تجربة

زواجها، والتي أصبحت الآن الرسالة الرسمية –باللغة القانونية– لتسوية الطلاق.

يومًا بعد يوم، وتاريخ محاكمة بعد الآخر، ازدادت اكتئابًا وغضبًا وإحباطًا من إحساسها بالخيانة، أولًا بسبب حلمها بزواج مدى الحياة، ثم بسبب تعرضها للغش عمليًا في حصتها من المال، التي أحست أنها من حقها. وصارت متشائمة حول قدرتها على العثور على عمل.

كانت أسوأ مخاوفها تلوح في الأفق. ماذا لو لم تستطع كسب المال الكافي للحصول على شقة والحفاظ على حضانة أطفالها؟ ماذا لو تبين أنها غير كفء وعاجزة عن العمل كما أخبرها زوجها دائمًا؟ تغلبت عليها المخاوف وعدم الثقة في النفس، ولم تستطع تجاوز الصور الكارثية وتخيُّل مستقبل مزدهر لها ولأطفالها. مرت أيام عديدة وقد شلها كل من غضبها وخوفها من الفشل.

التقينا أنا وأودري عندما كانت في تلك الحالة المتدنية –من حيث الدخل والثقة بالنفس– واستخدمنا عدسة علاقتها بالمال كوسيلة لإيجاد رؤى جديدة تمكِّنها من التعافي.

حولنا مسار حديثنا لتحديد الأصول الحقيقية التي تمتلكها أودري: مواهبها ومهاراتها، آمالها وأحلامها، والموارد التي كانت لديها في دائرة أسرتها وأصدقائها. بعد سنوات عديدة من الشعور بانعدام القيمة، لم يكن سهلًا أن ترى أودري نفسها إنسانًا يملك أي أصول أو أي ثروة داخلية ليتحدث عنها على الإطلاق.

بدأنا نحصي عدد من تعرفهم أودري ممن قدموا لها الحب والتقدير غير المشروطين ممن آمنوا بها، كانوا هم أيضًا أصولًا. فكرت أودري في ابنتيها، والروابط الوثيقة والمحبة التي تجمعها بهما، ولا علاقة لها بالمال. وفكرت في والديها وإخوتها، الذين على الرغم من عدم استطاعتهم تقديم الكثير من الدعم المالي، فقد كانوا ثابتين في تعبيرهم عن الحب والتشجيع. فكرت في أقرب أصدقائها وأكثرهم إخلاصًا منذ أمدٍ بعيد، ثم في صداقات أخرى أكثر

حداثة، وكيف ساهم كل منهم في مناخ الحب والسلامة في حياتها. لم تعتمد أي من هذه العلاقات على المال كغراء يربطهم بعضهم ببعض. كان الحب والتقدير هو الرابط الوحيد.

ذكرت كل شخص -كانوا نحو عشرين شخصًا-، ثم طلبتُ منها ذكر الصفات التي جعلتها تعرف في وقت ما أنهم يقدرونها. ضحكت بخجل، لكنها مضت قدمًا وسَمَّت الأشياء التي تتذكر أن أصدقاءها قالوها. لقد عرفوها -كما عرفتها- بأنها ماهرة ومبدعة وذكية، وسخية، وحماسية، وعازمة، وذات حس فكاهي عالٍ.

حددنا تلك السمات كأصول غير محدودة، وأكثر قيمة من أي ممتلكات قد تمتلكها أو أموال قد تكون لديها في حساب مصرفي. كانت تلك أصولًا يكافح البعض طيلة حياتهم من أجل اكتسابها، سمات لا يمكن لمال أن يشتريها. كانت أودري تحوزها بالفعل!

بينما جلسنا نتحدث، ووجَّهت أودري انتباهها إلى ثروتها من هذه الصداقات، وأصول شخصيتها ومواردها المادية، أمكنها الشعور بالتغيير، وأمكنني رؤيته. اعتدلت قليلًا في كرسيها، أشرق وجهها وأصبح صوتها أكثر ثقة. قالت إن ثمة تحولًا في الطريقة التي تشعر بها الآن إزاء التحدي. بدت مخاوفها أصغر، وشعرت بأنها أكثر اعتمادًا على الذات، وأقل احتياجًا، رغم احتياجاتها. لم تعد متخوِّفة من ظروفها، رغم صعوبتها. ما زالت تستشعر بعض الخوف بعد، ولكن ثقتها الآن قد ازدادت على الأرضية الثابتة المتمثلة في مواردها الخاصة وتأييد الآخرين لها.

قلت: «والآن، تخيلي نفسكِ بعد خمس وعشرين سنة من اليوم».

قالت ضاحكة: «هذا يجعلني في السبعين من العمر!»

«تخيلي إذن أنك في السبعين من العمر، وفكري في بناتك يكبرن ويتزوجن، ويصبح لديك أحفاد، وتحظين بأجمل أوقات حياتك، حيث تصالحتِ مع الماضي ومع نفسك، وحيث صار بإمكانك النظر إلى الخلف والتذكر: كيف

تخطيتِ الفترة التي تلت طلاقك؟ ما الإمكانات والفرص التي عثرتِ عليها وصنعتِها لبناتك؟ ما الذي ساعدك على تخطي السنوات القليلة الأولى؟»

صمتت أودري قليلًا، ثم تحدثت، بتردد قليل في البداية.

قالت: «توقفت عن ترك المخاوف توقفني. كنت خائفة، لكني فعلتها على أية حال. وثقت في نفسي».

سألتها: «وماذا ستخبرين به أحفادك عن كيفية اجتيازك هذه الطريق الوعرة مع المال؟ ما الطفرة التي أتاحت لكِ العثور على الاكتفاء؟»

صمتت مجددًا كما لو كانت تستمع من بعيد لنفسها الكبيرة الحكيمة تخبرها من المستقبل. ثم أجابت بصوت قوي هذه المرة: «توقفت عن انتظار أن يخبرني أحدهم ماذا عليَّ أن أفعل. أدركت أن عليَّ أن أجرب عددًا مختلفًا من الأمور، وهكذا فعلت ببساطة. نمَّيت إيماني بنفسي، حيث قضيت سنوات أضع إيماني في رجل، صرت الآن أخصص ربعه فقط للإيمان بنفسي، وقد حرر ذلك ثلاثة أرباع تلك الطاقة لأشياء أخرى إلى جانب كسب العيش. أعتقد أن على النساء أن ينظرن إلى مقدار الطاقة التي يضعنها في علاقاتهن، وأن يأخذن بوعي ربعها ويستثمرنه في علاقتهن مع أنفسهن، وسيصلن إلى ما وصلت إليه».

«وكيف كسبتِ قوت يومك؟ ما الطفرة التي حدثت؟»

صمتت أودري مرة أخرى، ثم بدت وكأنها تعتذر. قالت: «عندما أحاول التفكير في ذلك أظل أشعر بالخوف، وأكفُّ عن التخيُّل». لكنها أعادت تركيز انتباهها على تصور مستقبلها.

قالت: «لقد بدأت مشروع ملابس الأطفال، وأصبح مصدر قوتنا؛ جعلنا نقف على أقدامنا».

تحدثنا عن رغبتها في الارتكاز إلى شغفها ومواهبها لكسب عيشٍ حقيقي، الذي يختلف عن كسب ما يكفي لدفع الإيجار، أو القيام بضربة حظ تجلب ثروة طائلة، كما فعل زوجها السابق ووالداه. في ساحة حديثنا فقط، كانت قادرة على التراجع خطوة ورؤية مقدار الطاقة التي استهلكتها مخاوفها

المالية، والفرضية النافذة بأنها عاجزة عن صنع حياة جيدة لنفسها وأطفالها. لقد قالتها بنفسها: إن هي أخذت كل الطاقة التي كانت مقيدة بالقلق والهم والخوف وركَّزَتها على أصولها وعلى التزامها واستراتيجياتها لتحقيق رؤية، فإنها تعرف الآن في قلبها أنها ستنجح.

في الشهور التي تلت، أبقتني أودري على اطلاع دائم بالتقدم الذي تحرزه. مع تزايد ثقتها وتشجيع أصدقائها وعائلتها، بدأت أودري في توجيه انتباهها نحو مهاراتها القابلة للتسويق، وبدأت في اتخاذ خطوات لتعلم كيفية بناء مشروعها الخاص.

وفي إحدى الأمسيات حضرَتْ ندوة عن النساء في مجال العمل، ولم تلبث أن اكتشفَتْ عالمًا من العلاقات ومجموعات دعم الأعمال الصغيرة وورش العمل التي تدور حول المسائل ذاتها التي تحتاج إلى تعلمها لبدء مشروعها الخاص. سرعان ما صارت أودري جزءًا من برنامج توجيهي، تعاونت فيه سيدات أعمال ناجحات من المجتمع مع نساء مثلها، وكُنَّ لهن معلمات ومستشارات. حضرت مزيدًا من الدروس، وتعلمت عن تدفق المال في العمل وكيفية إدارته بحكمة. وأينما ذهبت، كلما أخذت عينة جديدة من ملابس الأطفال لتعرضها على أحد الأصدقاء، أراد أحد المارة شراءها.

كان الغرباء يخبرونها بحبهم لمنتجاتها، وللرؤية التي تسير بها، وكان حماس أودري في ازدياد.

خطوة تلو الأخرى، أجرت أودري بحثها في جوانب التصنيع والمبيعات لشركة أحلامها، وصقلت تصميمات منتجاتها، ووضعت خطة عمل. أعجب الناس الذين قابلتهم في هذه العملية بإبداعها وحماسها، وحسّها التجاري القوي، وتمكنَتْ من تأمين عدد من الوظائف بدوام جزئي مع استمرار تخطيطها. وبينما كَرَّست المزيد والمزيد من الانتباه لإنشاء عملها الخاص، نمت دائرة أصدقائها ومعارفها التجارية، واستمروا في تشجيع ودعم جهدها الملهم.

بمرور الوقت، تغيرت علاقتها بالمال، فبدلًا من العيش في حالة من الرهبة منه، أو في تخوف دائم من عدم امتلاك ما يكفي، عاشت بحصافة مع ما لديها، وركزت انتباهها على إنشاء عمل مُجدٍ تفعل فيه ما تحب. انقلبت علاقتها بالمال. لم تعد ضحية، أو مساهمة سلبية مدينة بالفضل لزوجها السابق، وغاضبة أو خائفة من الانفصال. أصبحت الآن تعرف قدرتها على الكسب، وقيمتها الخاصة كرائدة أعمال مبدعة وخلاقة في العمل وفي الحياة. كتبت في خطة عملها تعهُّدًا بأن تصبح مَوردًا للنساء الأخريات، وأن توفر لهن وظائف الخياطة والتصنيع وبيع خط إنتاجها.

لقد عاشت أودري أيامًا عصيبة وصعبة، لكن عندما ركزت انتباهها -لحظة واحدة لا أكثر- على أبسط جوانب اكتفائها، استعادت شجاعتها وطاقتها، وحتى بهجتها في تلك اللحظة. استطاعت في كل مرة أن تعثر على الشجاعة التي تحتاج إليها للاستمرار. لم تكن شجاعة مفرطة، لكنها كانت *كافية*، كما قالت ضاحكة فيما بعد. وقالت إن الأكثر إثارة للدهشة هو أنه في كل مرة استعدت فيها لأخذ خطوة أخرى نحو تحقيق خططها، كان الحظ يحالفها فتجد ما هي في حاجة إليه تمامًا -المعارف المناسبة، الاستوديو المناسب، الموردين المناسبين، المستثمرين المناسبين-. وبحلول نهاية العام التالي، افتتحت أودري شركتها بانطلاقة واعدة، وأبدعت من قصاصات الحياة الممزقة تحفة فنية.

جيمس: فُقد ووُجد ثم تحول

يسهُل على المرء افتراض أن كل هذا الحديث عن التقدير والاكتفاء هو حديث موجه بالأساس لأناس مثل أودري، أو السبعة العظام، أولئك الذين تعيَّن عليهم أن يتعلموا تقدير القليل الذي بين أيديهم، وإلا غرقوا في اليأس. لكن هذا يسري أيضًا على أصحاب الثروة والفوائض الهائلة؛ أولئك الذين يسهل ضياعهم في بحر الزيادة -وهو ما يحدث في أغلب الأحيان- غارقين في السلع والمنازل والسيارات والممتلكات، لدرجة فقدوا معها أي إحساس بالحياة الداخلية، أو أي معنى يتجاوز المال. أشارت الأم تيريزا ذات مرة إلى

ما أسمته: «الفقر المدقع للروح» الذي يصيب الأثرياء، وقالت إن فقر الروح في أمريكا أعمق من أي فقر رأته في أي بقعة على وجه الأرض.

وقد عرف جيمس فقر الروح هذا. كان قد نشأ في مدينة صغيرة بولاية ميزوري، حيث امتلكت عائلته مجال الصناعة الرئيسي في المدينة. كان اسم العائلة هو لعنته؛ أي شخص يلتقيه كان يعلم على الفور أنه غني ولن يحتاج إلى العمل أبدًا، ويفترض تلقائيًّا أنه طفل ثري مدلل. كان الجميع يعامله بحسد وازدراء.

كان لجيمس قلب كبير، وأراد أن يراه الناس عضوًا مساهمًا عاديًّا في المجتمع، لكن اسمه وثروته كانا أشبه بعبء رهيب، منعه من التواصل بشكل طبيعي مع الناس والعالم من حوله. لقد احتقر، بل كَرِه في الواقع اسم عائلته، وعبء ثروته. شعر بأنه لا بد وأن يهرب من البيئة التي عاش فيها من أجل أن يعثر على أي شعور حقيقي بقيمة الذات، وأن يثبت نفسه بالأساس. كان الخواء بداخله يزداد عمقًا، وعذَّبه وقضَّ مضجعه إحساسه بانعدام القيمة والذنب والعار.

كنا قد التقينا في الكلية، وعلى الرغم من أنني بإمكاني الآن أن أتذكر وأرى بأثر رجعي الألم الذي كان يعاني منه، لم أتمكن من رؤيته حينذاك. كان مجرد زميل آخر في الصف، يدرس ويخوض الاختبارات ويشرب الجعة؛ كان طالبًا جامعيًّا.

عاودت التواصل معه بعدها بسنوات في منزل صديق مشترك، وقد بدا أكبر من سنوات عمره، لكنه ما زال نفس الرجل الأنيق الوسيم الذي أتذكره من الكلية. طلب مني الانضمام إليه على الغداء بعدها ببضعة أيام، قائلًا إنه في حاجة إلى نصيحة لا أكثر. على الغداء قصَّ عليَّ قصته. كان جيمس مدمنًا الكحول، وكان أيضًا قد أصبح والدًا لطفلين، ويخوض طلاقه الثاني. كان يملك مالًا كافيًا لحياة كاملة من الرغد، لكنه شعر بالضياع والحزن، والخوف من أن يكتشف الناس أن حياته الشخصية تعمها الفوضى. أراد التغيير، لكنه لم يعرف كيف.

كانت علاقة جيمس بالمال -شأنها شأن جميع العلاقات في حياته- ملآنة بالألم، والتعقيد، وعدم الثقة، وخيبة الأمل، وقليل للغاية من الوضوح. المشكلات العاطفية التي طال تجاهلها والتي تزعجه منذ طفولته، فاقمها عمرٌ من الإهمال، وأموال الأسرة الجاهزة باستمرار مَكَّنَته من شق طريقه حول اللحظات الصعبة في الزواج والأسرة والصداقة، والحياة نفسها. ولأنه لم يفعل أي شيء يُذكَر لكسب المال، كان سر جيمس المرير هو معاناته من شك ذاتي عميق. كان يشعر بأنه بلا قيمة دون المال الذي يكرهه. كان لديه المال الكافي لفعل أي شيء، لكن حياته أصبحت مجرد تمثيلية باهظة الثمن ومتزايدة التعقد، تمثيلية لإخفاء إدمان الكحوليات والعلاقات الفاشلة، والصداقات السطحية، والشعور العميق بانعدام الجدوى.

كان رجلًا معطاءً، رجلًا يرغب في نشر الخير في العالم، يرغب في تقديم مساهمة ذات مغزى في حياته. تمنى لو أن باستطاعته البدء من جديد، لكنه شعر بأنه محاصر بالفوائض المالية والإخفاقات الشخصية.

بدأنا الحديث بصفة منتظمة، وبينما شرع جيمس في إصلاح بطيء وشاق لعلاقاته مع الناس في حياته، ركزنا على علاقته بالمال. كان يلقي اللوم في مشكلاته على اسم عائلته وثروتها، التي كان يفترض به أن ينميها. أفرغ الكثير من الحمل العاطفي الذي أثقله منذ كان طفلًا ثريًّا غاضبًا وغير سعيد، ثم زاد عليه زيجاته الفاشلة، والأشخاص الذين شعر بانتهازيتهم في حياته. ثم -بعد فترة- بدا أن الحاجة إلى إلقاء اللوم على أمواله وماضيه وإدانتهما قد تلاشت، وبدأ يتحدث عن الشخص الذي تاق إلى أن يكونه.

كيف كانت حياته لتبدو لو عاشها معتنقًا رؤية أعمق؟ كيف كانت علاقاته مع أطفاله وزوجتيه السابقتين لتكون مختلفة لو تصرف بنزاهة تجاههم، بما في ذلك التسويات المالية للطلاق؟ وإلى جانب مسؤولية رعاية أطفاله المحببة إلى قلبه، ما أسمى الالتزامات التي حركت فؤاده؟ أي نوع من الفرق أراد أن يحدثه في العالم؟

تخيل حياة يمكن أن يحبها، فتح عينَي جيمس على إمكانات جديدة، ومنحه صورة جديدة عن نفسه. بينما صببنا انتباهنا على تلك الرؤية، صار

الأمر أشبه بتهوية جذوة صغيرة تطقطق في فحم قاتم. توهجت الإمكانات، وبدأت أفكار أكثر تحديدًا في الانبثاق بوضوح. شعر بألفة خاصة تجاه الشباب المكافحين، وأراد العمل معهم. تطوع في مدرسة محلية، وبينما يتعلم المزيد عن نضال الأطفال الذين يعانون من صعوبات التعلم، اكتشف مواهبه الخاصة في العمل معهم. كلما طال عمله مع الطلاب ومعلميهم ومعلمي ذوي الاحتياجات الخاصة الذين غالبًا ما يساعدون في قاعات الدراسة والتدريس، بدأ يدرك مدى تعقيد احتياجات الأطفال والجهود المبذولة للتعامل معها.

أما المال الذي طالما كان عبئًا في حياته، فقد ظهر الآن كمورد لدعم المنظمات العاملة مع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. ثم بدأ يتحدث بشجاعة في مجتمعه، ويدافع عن المدارس والتمويل المدرسي لصالح جميع الأطفال. أصبحت طفولته المؤلمة أحد الأصول التي مكنته من التواصل بحساسية أكبر مع هؤلاء الأطفال الذين عمل معهم. بدأت الفوضى في حياته المضطربة تهدأ، بل وبدأ حتى يقدر تلك الفوضى، باعتبارها دربًا نقله من فترة عصيبة إلى فترة مُرضية ذات هدف ومغزى.

انضم أبناؤه في عمله متطوعًا مع أطفال آخرين، وبصفته أبًا عزبًا، أثرى عمله الجديد مع أبنائه علاقته معهم، ونمّى تقديرهم لبعضهم بعضًا. إن عمل جيمس الشاق وتفانيه للمدرسة والطلاب وأطفاله لم يغير فقط حياة العديد من الأطفال، بل غير حياته أيضًا. وأصبح المال الذي بدا لفترة طويلة لعنة صك تحريره، الذي استهلّ به حياة جديدة مجزية من التواصل والمساهمة.

كتب الشاعر راينر ماريا ريلكه (ترجمة روبرت بلاي):

أحب الساعات المظلمة من وجودي، تلك التي تتعمق فيها حواسي.
ففيها وجدت، كما يجد المرء في الرسائل القديمة، أيام حياتي وقد عِشْتُ بالفعل، نائية وبعيدة كخرافة.
منها أعرف أن ثمة متسعًا في داخلي لحياة أخرى شاسعة وخالدة.

وقد آن لجيمس أن يعيش حياته الأخرى الشاسعة الخالدة.

حكمة بوذا

أخبر بوذا أتباعه أن أيًّا ما يختارون صب انتباههم ومحبتهم وتقديرهم وسمعهم وتأييدهم عليه سينمو في حياتهم وفي عالمهم. وشَبَّه حياة المرء والعالم بحديقة، حديقة تتطلب ضوء الشمس والغذاء والماء لتنمو. في تلك الحديقة بذور الرحمة، والمغفرة، والمحبة، والالتزام، والشجاعة، وكل الصفات التي تثبتنا وتلهمنا. إلى جانب هذه البذور، وفي نفس الحديقة، توجد بذور الكراهية، وبذور التعصب، وبذور الانتقام، وبذور العنف، وكل أساليب الوجود المؤذية والمدمرة الأخرى. توجد هذه البذور ومثلها الكثير في نفس الحديقة.

البذور التي تنمو هي البذور التي نعتني بها بانتباهنا. الانتباه كالماء وأشعة الشمس، والبذور التي نعتني بها ستنمو وتملأ حديقتنا. إذا اخترنا استثمار اهتمامنا في بذور الندرة -الاستحواذ والاكتناز والجشع، وكل ما ينبثق من تلك البذور- فلن يملأ حياتنا وعالمنا سوى الندرة. وإذا تعهدنا بذور الاكتفاء بانتباهنا، واستخدمنا أموالنا ماءً لتغذيتها بغرض روحي، فسوف ننعم بذاك الحصاد الوفير.

لا يمكن أن تختلف مجموعة من البشر مثلما يختلف السبعة العظام والبنجلاديشيون وأودري وجيمس عن بعضهم بعضًا، ولكن قوة التقدير مكنت كلًّا منهم من توسيع وتعميق تجربته لثرائه الحقيقي ولنفسه. لقد وجد كل منهم في الاكتفاء حرية جديدة في علاقته بالمال، أو بالمسائل المتعلقة بالمال، وفي ذلك كان السبيل إلى ازدهارهم. في التربة الخصبة لتقديرنا، تنتشر جذور إمكانية جديدة لكل منا، وتنمو بلا حدود في ضوء انتباهنا الدائم.

7

التعاون يحقق الثراء

لا يوجد أغنياء وفقراء. كل منا غني، ويحوز إمكانات ليست لدى الآخر. في كيمياء التعاون نصبح جميعًا شركاء متساوين، ونصنع الكمال والاكتفاء للجميع.

كانت ليلة جمعة، وكنت في اجتماع عمل طيلة اليوم ومنهكة. في طريق عودتي للمنزل من سوساليتو إلى سان فرنسيسكو بدأت مكابح سيارتي تتعطل على مقربة من جسر جولدن بريدج. أوقفت السيارة أمام أقرب محطة وقود. لم يكن باستطاعة العامل هناك إصلاح المكابح، لكنه أشار عليَّ بالتوجه نحو ورشة تصليح تقع في نهاية الشارع. قُدتُ السيارة ببطء –دون فرامل– قاطعة المسافة القصيرة، ولكن بمجرد أن اقتربت من الورشة أدركت أن الحظ نفد مني. كانت الساعة قد تخطت السابعة مساءً. أغلقت أبواب الورشة وأُطفِئت أنوار المكتب. ولكنَّ ضوءًا خفيفًا تسلل عبر نوافذ الورشة، فاتجهت نحوها بيأس، واختلست النظر على أمل أن أجد ميكانيكيًّا متسامحًا. بدلًا من ذلك، رأيت حفلًا من ثلاثين أو أربعين شخصًا. أُبعِدَت جميع أدوات التصليح جانبًا، وفي منتصف الأرض الأسمنتية العارية، المحاطة بأضواء

الحفل وزينته، وضع بيانو ضخم لامع وأملس. كان الحفل في ذروته، لكن البيانو استقر وحيدًا مستكينًا. غامرت بالدخول، فوجدت صاحب الورشة - رجلًا يدعى ريكو- بيده كأس من الشمبانيا. سألته إن كان أحد قادرًا على مساعدتي. أوضحت مشكلتي وقلت: «سأدفع أي مبلغ مقابل أن تصلح لي المكابح وأتمكن من العودة إلى المنزل».

ضحك ريكو وقال: «مُحَال يا سيدتي. لدينا حفل قائم على قدم وساق هنا». ثم قال بعدها مازحًا: «عازف البيانو لم يحضر مع ذلك، فإن استطعتِ أنتِ القيام بهذا الدور فسنصلح عربتك». ضحك الجميع، لكن الواقع أنني أستطيع فعلًا عزف البيانو، وذلك هو ما فعلته. جلست أعزف لحفلهم قرابة الساعة، وفي الوقت الذي ظللت فيه مُحاطَة بكل أولاء الأشخاص الذين يضحكون ويغنون ويرقصون، كان الميكانيكي يصلح مكابح عربتي مبتهجًا. وعندما انتهت المهمة ودعوني، ورفضوا أخذ أي مقابل، وشربنا نخب صداقتنا الجديدة. قُدتُ السيارة إلى المنزل بأمان - اختفى كل التعب والإنهاك وحلت مكانهما إثارة وبهجة. كنت قد وصلت إليهم وبحوزتي ما يحتاجون إليه بالضبط، ومنحوني هم بدورهم ما أنا في حاجة إليه. امتلأ لقاؤنا بالصُدَف السعيدة، والرضا الناتج عن قدرة كل منا على مساعدة الآخر.

إن التعاون والمبادلة متأصلان فينا بالفطرة، لكن في العالم الذي نسكنه، كثيرًا ما يحول التنافس والخوف من الندرة دون رؤية كل الطرق التي يمكننا بها أن نكون عونًا للآخر. في عالم قائم على مبدأ «إما أنا وإما أنت» لا مكان للتعاون والمبادلة. لو أن عالمنا قائم على مبدأ «أنا وأنت» لامتلأ بالمتعاونين والشركاء، وبالأخذ والعطاء. في ذاك العالم، لا تكون مواردنا كافية وحسب، بل تصبح لا نهائية. عندما نمارس التعاون والمبادلة بوعي وتعمد في حياتنا اليومية، يتكشَّف نوع من التناغم والثراء في كل مكانٍ حولنا.

إن العلاقات التي تنشأ داخل عقلية الندرة -التصرف بناءً على الاعتقاد بأن العالم *ليس به ما* يكفي، أو أن *المزيد أفضل*، أو أن *هكذا* تسير *الأمور دائمًا*-. مهما بدت تلك العلاقات قوية في لحظتها، إلا إنها محدودة بطبيعتها. تقوم على كذبة، ولا تفعل سوى تقويض فرصنا في الحصول على استمرارية

واستدامة طويلة. إن أنواع العلاقات التي تحمينا وتصوننا حقًّا هي تلك التي تنبثق من سياق الاكتفاء، حيث يوجد مجال للمشاركة والتنوع والمبادلة. سنعثر على الاكتفاء والثراء المستدام عندما نفكر في مواردنا كتدفق لا بد من مشاركته، وعندما نضع كامل انتباهنا على صنع فرق بما نملكه، وعندما نشارك الآخرين بطرق توسع نطاق تلك التجربة وتعمُّقها.

المآدب، الرحلات الجماعية، الحفلات، مجموعات اللعب، مجموعات الحياكة؛ هذه الأنشطة، هذا التشارك واعتناء كل فرد بالآخر يثري حياتنا أكثر مما نتخيل، وربما أكثر مما يمكن للمال أن يفعل يومًا. إن التعاون يفضي بنا إلى الاكتفاء ويعلمنا أساسياته. وسترى أن العلاقات القائمة على مبدأ الاكتفاء تقدر قيمة التنوع والمعرفة، والإبداع، والتجربة، والحكمة التي يملكها كل شريك بالتساوي. بها نعرف شعور أن نكون مساهمين فعَّالين في عملية حيوية وخلاقة. يصبح التعاون حلقة تتدفق خلالها طاقة الاكتفاء وعنايته وموارده، وتتجدد باستمرار. مفتاح التعاون هو الثقة التي تقول بأن هناك ما يكفي للجميع، وأننا سنعرف كيف نستخدمه معًا بحكمة.

فكر في نشاط تعاوني فعَّال انخرطتَ فيه، وكيف عَمَّقت الطريقة التي عولجت بها المشكلات إحساسك بذاتك، وبتقديرك واحترامك لمعاونيك. فكر في الكرم الذي احتجتَ إلى إظهاره، والانفتاح الذي تطلَّبه التعاون منك أنت وشريكك، أو شركائك. فكر في الحصيلة المرضية، وتجربة الثراء الحقيقي التي انطوت عليها ثمار العمل.

المبادلة تتيح لنا الاعتراف ببعضنا وتقدير مواهبنا الفريدة. المبادلة تشبه الشهيق الذي نأخذه؛ لا يكون أبدًا أكثر مما نحتاج إليه. ثم نُخرِج زفيرًا هو بالضبط القدر الذي يجب إخراجه. إنه كافٍ ومحسوب بدقة، ومهم لاستمرارية الحياة. إن التعرف على جمال العلاقات والتفاعلات التبادلية في حياتنا هو اكتشاف لخزائن شاسعة من الثروة الموجودة لدينا بالفعل، والتي كنا نعدُّها من المُسَلَّمات. في المبادلة هناك غذاء وبهجة: أنا موجود لأجلك وأنت موجود لأجلي.

بصفتي ناشطة وجامعة للتبرعات لدعم العمل القائم على مبدأ الكفاية، وبصفتي شخصًا يحاول العيش بهذه الطريقة، فإني فعلًا أرى في كل يوم

من أيام حياتي قوة التعاون في سد فجوات العمر، والعرق، والجنس، والدين، والطائفية، والخلفيات الاجتماعية والاقتصادية، التي كثيرًا ما تفرق بيننا. نحن نرى فوائد التعاون بوضوح في قصص التغيير، مثل قصة مدينة سيلهيت في بنجلاديش، أو قصة تلك القرية في السنغال التي حفرت فيها النساء بئرهن، أو العديد من القصص الأخرى التي تحول فيها الكفاح المضني إلى نجاح ساحق. وثمة انتصارات أهدأ، غير مرئية أحيانًا، كامنة في تحولات مشابهة تحدث في نطاق أضيق في حياة الأشخاص، أولئك الذين يعانون الفقر، وأولئك الذين يعانون الثراء المادي. هنا يفضي التعاون إلى اكتشاف الذات، والنمو الشخصي، والشفاء، وإلى تجربة للاكتفاء لم تكن متاحة من قبل، إلى السعادة التي لا يمكن للمال شراؤها.

في علاقتنا بالمال، يحررنا التعاون من المطاردة الإلزامية لكسب المزيد كي نشعر بأن لدينا ما يكفي، ويصبح فرصة لصنع فرق بما نملكه. إنه يضع المال في مكانه الصحيح، كمورد لا أكثر من الموارد العديدة القيِّمة والضرورية التي قد نحتاج إلى منحها. ثم يبقي التعاون المال الذي نملكه متدفقًا، لذا سواءً كنا نملك نهرًا أو جدولًا مائيًّا أو مجرى صغيرًا في حياتنا، فإن التعاون سيديره بطرق تحقق أكبر قدر من النفع لمعظم الناس، بمن فيهم أنفسنا!

ترايسي: موارد مشتركة وثراء مشترك

ترايسي هي إحدى صديقاتي وأكثرهم قربًا إلى قلبي. بالرغم من أن مسار حياتها كان صعبًا، لكنها حصلت دومًا على ما تحتاج إليه هي وأطفالها. كانت تعثر على سحر التعاون وثرائه في كل منعطف، ولم أكف يومًا عن التأثر بمبادئ الاكتفاء التي تعيش بها وتقتات منها.

ترايسي هي أم لطفلين، وتسكن في حي صغير بشمال كاليفورنيا. انفصلت هي وزوجها في أواخر الثمانينيات، وعندما رحل زوجها، ظنت ترايسي أن حياتها انتهت. لم يكن لديها كثير مال، لم يكن لديها زوج. كل ما كان لديها هو طفلان صغيران وقلب غارق في اليأس.

ولكن في مكان ما عميق من روحها، أحست ترايسي دومًا بانجذاب لفكرة العيش في ثقافات أخرى. لذا، عندما فُسِخَت زيجتها، قررت أنها تريد الذهاب إلى مكان بعيد، بعيد جدًّا لتصفية ذهنها وقلبها، وللتفكير بحرية أكبر في مستقبلها هي وطفليها. كانت قد عملت قليلًا في مشروع مكافحة الجوع في اليابان، وكوَّنَت صداقة وطيدة مع زميل يدعى هيروشي أوهوشي، أستاذ ياباني بجامعة تماجاوا. لدى هيروشي وزوجته الأمريكية جانيت ثلاثة أطفال في عمر الثانية عشرة، والعاشرة، والثامنة، أما ترايسي، فكانت ابنتها ساج حينئذ في عمر السابعة، وابنها سيباستيان في عمر الخامسة.

كتبت ترايسي إلى جانيت وهيروشي تخبرهما بيأسها حيال الطلاق، ورغبتها في الذهاب إلى مكان مختلف، حيث يمكنها التفكير بصفاء أكبر في وضعها. قامت جانيت على الفور بدعوتها هي وطفليها للزيارة في إجازة الشتاء. يعيش آل أوهوشي عند سفح جبل فوجي، بعيدًا عن الناس، لا يملكون تلفازًا، ويعلمون أطفالهم تعليمًا منزليًّا. رحَّبَ آل أوهوشي بترايسي وطفليها بأذرع مفتوحة، وضموهم إلى منزلهم وحياتهم بحماس ولهفة. وسرعان ما أصبح الأطفال الخمسة أصدقاء.

خلال فترة الزيارة، جلب كل يوم أبعادًا جديدة وبهيجة لصداقتهم، وتقديرًا جديدًا لموهبة كل فرد. أحضرت ترايسي قوى تنظيمية عظيمة للعائلة والمنزل، وحسًّا للطهو المرح، وعبقرية في خلق أوقات مميزة يتشاركها الجميع. ومع نهاية الزيارة، وحلول الوقت الذي خططت فيه ترايسي للعودة مع طفليها إلى الولايات المتحدة، أظهرت الفرصة الجديدة نفسها؛ فبحسب رواية العائلة الآن، قالت ترايسي: «لست أتذكر السبب الذي نعود من أجله» فأجابت جانيت: «لم يقل أحد قط بأن عليكِ العودة... نحن نفضِّل أن تبقي معنا!» ومن هذه اللحظة السعيدة أتى ما يدعوه كل منهم بـ: «هدية الأربعة عشر شهرًا»، التي كانت هدية متبادلة من المسؤولية المشتركة والصداقة والدفء العائلي.

عملت ترايسي –المعلمة السابقة– مع الأطفال الخمسة في تعليمهم المنزلي، وساعدت في الطهو وتحضير الوجبات، وساهمت بأفكار إبداعية لإبقاء البالغين الثلاثة والأطفال الخمسة منظمين وسعداء، وعملت بدوامٍ

جزئي في مشروع مكافحة الجوع، ومارست البوذية مع هيروشي، وغنت أغاني شعبية قديمة مع جانيت والأطفال، واستطاعت أن تشفي نفسها ببطء في بيئة آل أوهوشي الحاضنة.

لقد منح آل أوهوشي الدفء والراحة والبهجة التي احتاجت ترايسي إليها هي وطفلاها بعد تفكك الأسرة. وعلى الجانب الآخر، كان آل أوهوشي يعانون مع المرض المميت الذي أصاب ابنتهما الصغرى. مع مساهمة ترايسي وطفليها في الأسرة –بما في ذلك جنازة الطفلة– تشاركوا جميعًا تلك التجربة المفجعة، فصارت أكثر احتمالًا. جميعهم خرجوا رابحين؛ الكل حظي بما يحتاج إليه بالضبط. ومن خلال التعاون وفتح قلوبهم كل للآخر، وجدوا إحساسًا بالوفرة، تلك التجربة البديعة للاكتفاء. شعر آل أوهوشي بالامتنان لقدرتهم على مشاركة بيتهم وحياتهم الأسرية مع أصدقائهم. وجدت ترايسي الوقت والمكان للشفاء الروحي الذي تاقت إليه، فضًلا على تأليف كتاب مع ابنتها، والمساهمة بفاعلية في مشروع مكافحة الجوع. نشأت العائلة المجتمعة من خمسة أطفال في بيئة أشد ثراءً بكثير مما لو عاشت كل أسرة في منزل منفصل.

كل أسرة منحت ما كانت تملكه في تلك المرحلة من حياتها: آل أوهوشي حظوا بالاستقرار، ودخل ثابت، ومنزل سالم ورحب يتسع للجميع، أما ترايسي وطفلاها، فقد منحوا الحياة والضحك والإبداع في قالب منضبط، وله أساس روحاني. كلتا الأسرتين كانت تواجه مرحلة في حياتها هي الأكثر إيلامًا من الناحية النفسية، وفي بعضهما بعضًا وجدا التعاطف والقوة.

عندما عادت ترايسي وطفلاها إلى الولايات المتحدة في النهاية، وصفت لبعض أصدقائها السعادة وفوائد العيش في أسرة موسَّعة، فقرر الزوجان مع طفليهما البحث عن سكن تعيش فيه أسرتهما وأسرة ترايسي معًا. وجدوا منزلًا مشتركًا –مكانًا جميلًا لم تكن تستطيع أي من الأسرتين تحمل تكلفته وحدها– في موقع به مدارس جيدة ومساحات لعب خارجية للأطفال. ولأن الزوجين الآخرين كانا يعملان خارج المنزل، أرادت ترايسي عملًا يسمح

لها أن تكون في المنزل بعد المدرسة للاعتناء بالأطفال، الذين كان أربعتهم في المرحلة الابتدائية. اكتشفت ترايسي أن لديها موهبة في الكتابة وإجراء المقابلات، وبدأت مشروع كتابة حر لتأريخ قصص حياة المسنين من أجل عائلاتهم. ازدهر عملها، وعاشت الأسرتان معًا لأحد عشر عامًا على نحو أرضى جميع الأطراف. والآن تكسب ترايسي عيشها من فعل ما تحبه، بينما يستمتع طفلاها بفرص تعليمية ممتازة وبيئة عيش جميلة ودافئة ومراعية، وعائلة موسَّعة أثرت حياتهما أكثر بعد. وعلى الرغم من أن ترايسي تعتبر من ذوي الدخول المنخفضة والمتوسطة بالمعايير الأمريكية (نحو 35,000 دولار) فإنها هي وطفلاها لا ينقصهم شيء.

وهكذا، فالرحلة التي بدأت بيأس ترايسي حيال الطلاق ومخاوفها بشأن المال ودعم طفليها، صارت في النهاية طريقًا إلى حياة تعاونية سعيدة مشتركة مع أصدقاء مقربين وأسرة محبة. وقد شعر صديقاها في المقابل بأنهما محظوظان لامتلاكهما فرصة مشاركة حياتهما مع ترايسي وطفليها.

تحيا ترايسي بمبدأ الاكتفاء. بهذا المبدأ صار في قلبها متسع لأن تكون كريمة –أن تساهم بكل ما لديها دون أن تخشى الخسارة– وأن تثق بهدوء في أن الكون سيمنحها ما تريد. أخبرتني أنها تسترشد بنصيحة الأم تيريزا في أن «تعمل وكأن كل حياتك تعتمد على عملك، واترك الباقي لله». إن ترايسي نفسها مصدر إلهام دائم في الطريقة التي زرعت في نفسها وفي طفليها حس «الاكتفاء» المميز الذي تفتقر إليه بشدة ثقافتنا. فقط بالقناعة، استطاعت أن تجني ثمار التعاون، وسحر المبادلة. وازدهر طفلاها محاطين بمواهبهما، وبالتزامهما لاستخدام تلك المواهب لصنع فرق في العالم.

«قانون الغابة» الحقيقي: التوازن بين التعاون والمنافسة

رسم المنظرون العلميون والاقتصاديون في القرن التاسع عشر صورة قاسية للحياة الطبيعية، ووصفوا المنافسة من أجل الطعام والموارد الأخرى على أنها القوة الحاسمة والحتمية التي توازن بها الطبيعة بين الأفراد والموارد، فتقف بجانب بعض الفصائل وفي مواجهة بعضها الآخر. رأى الخبير الاقتصادي السياسي توماس مالتوس أن المجاعات والأمراض والفقر والحروب ما هي إلا كوارث طبيعية أنزلها بنا القدر لمنع الانفجار السكاني. وذهب تشارلز داروين إلى القول بأن قانون «البقاء للأقوى» هو في الغالب نتيجة للتنافس على الموارد الشحيحة، وهو أساس تطور الأنواع. لكن على النقيض من تلك النماذج التي تصف الطبيعة بأنها تنافسية بالفطرة، وبشكل مكثف ويكاد يكون حصريًّا، فقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة الدور القوي للتكافل والتآزر، والتعايش السلمي والتعاون في عالم الطبيعة، وعن الصورة الأصح للحياة التي يمثلها.

إن نظرة خاطفة إلى إمدادات الغذاء العالمية وتعداد السكان في العالم كفيلة بإخبارنا بأن هناك ما يكفي من الطعام للجميع، لكن عوامل أخرى تبقي بعضًا من سكان العالم متخمين بموارد تفيض عن حاجتهم بينما يعاني البعض الآخر سوء التغذية والموت جوعًا. الجوع المزمن ليس «طريقة الطبيعة» لتقليل التعداد السكاني أو تطوير الفصائل. الواقع أن الأمر ليس متعلقًا بالطبيعة بقدر ما هو متعلق بالحكومات والسياسات والأنظمة الاقتصادية المعيبة التي أنشأناها نحن.

فكرة أن الندرة والتنافس هما الطريقة الوحيدة التي تسير بها الأمور لم تعد حتى صحيحة من الناحية العلمية؛ فقد أشارت عالمة الأحياء التطورية القديرة إليزابيت سحتوريس إلى أن الطبيعة تدعم التعاون والمبادلة. تقول إن التنافس موجود في الطبيعة، ولكن له حدود، وأن قانون البقاء الحقيقي قائم في النهاية على التعاون.

التوازن والاستهداف هما أساس الطبيعة، والاكتفاء مبدؤها، فالأسد يقتل الطريدة التي يحتاج إليها ليعيش وحسب. لا يعيث فسادًا أو يقتل دون

هدف. إنه يريد ويأخذ ما يكفيه لا أكثر. وتتعايش مختلف فصائل النباتات والحيوانات مع بعضها بعضًا، كلٌّ يمنح من لدنه شيئًا ضروريًّا لموازنة البيئة التي تقوم عليها حياة الجميع. تقول سحتوريس وغيرها إنه على النقيض من قانون التنافس الذي ينادي بأن «البقاء للأقوى»، فإن التعبير الأدق هو أن «البقاء للمتعاوِن». ومن واقع تجربتي الخاصة، أظهرت هذه الحقيقة نفسها بصفة خاصة وبقوة في الغابات المطيرة، حيث كل خطوة تأخذها تقرّبك من الترابط الحساس والثري إلى حدٍّ استثنائي لكل أشكال الحياة.

دونيلا (دانا) ميدوز، عالمة البيئة الراحلة التي عملتُ معها من قرب كصديقة وزميلة في مشروع مكافحة الجوع عشرين عامًا، في كتابها «حدود النمو *The Limits to Growth*» ومؤلفاتها الأخرى قدمت حجة مقنعة لهذا المفهوم المتنور لعالم الطبيعة. لقد سلطت الضوء في كتاباتها وفي الطريقة التي عاشت بها على عالم «الكفاية» المُهمَل الموجود والداعم للحياة على هذا الكوكب.

في مقارنة بين الافتراضات الاقتصادية والافتراضات الواضحة في الطبيعة، كتبت ميدوز ذات مرة أنه في حين أن القوانين الاقتصادية تدفع حالة الندرة بافتراض أن علينا أن نستهلك، وننتج، ونتنافس، ونسيطر أكثر فأكثر، وأسرع فأسرع، فإن قانون التوازن الطبيعي يؤيد وجود التنافس والتعاون معًا في سياق من التعايش السلمي؛ وجود الخلق، والإنتاج، والاستهلاك بالتزامن مع دورات الحياة الطبيعية للحياة، والنمو، والموت. كتبت تقول:

> *يقول الاقتصاد: تنافسوا. لن تعملوا بكفاءة حتى تؤلِّبوا أنفسكم ضد خصوم أقوياء. والنمو سيكون غنيمة التنافس الناجح. ستلتهمون خصومكم الواحد تلو الآخر، وبينما تفعلون، ستحصلون على الموارد التي تمكنكم من التهام المزيد.*
>
> *أما الأرض فتقول: تنافسوا، أجل، ولكن أبقوا منافستكم في حدود. لا يفتكن بعضكم بعضًا. فقط خذوا ما تحتاجون إليه. اتركوا منافستكم وقتًا كافيًا لتحيوا. وأبدِلوا التعاون بالمنافسة*

كلما أمكن. تآزروا، ابنوا صروحًا قوية لرفع الأجناس الصغيرة إلى أعلى كي ترى الضوء. تداولوا المواد الغذائية، تشاركوا الأرض. قد ينشأ التفوق من المنافسة حينًا ومن التعاون حينًا. لستم في حرب، إنما أنتم في مجتمع.

لدى الطبيعة الكثير والكثير من الدروس الأخرى التي تنير سلوكنا تجاه المال، إن نحن اخترنا أن نكون أكثر انفتاحًا للرؤى، وأن نعيد التفكير في الافتراضات القديمة. على سبيل المثال، تشير الدراسات الحديثة إلى أن استجابة «الكر أو الفر» التي وُصِفَت زمنًا طويلًا باعتبارها الاستجابة البشرية الطبيعية للخوف أو الشعور بالخطر هي في الواقع سمة ذكورية بالدرجة الأولى. في حين أن الاستجابة الأنثوية الطبيعية للشعور بالخطر هي التواصل والتعاون مع الآخرين. من مصادر شتى في الاكتشافات العلمية المستنيرة، بدأنا نرى تلك الحقيقة الكبرى عن عالم الطبيعة. يشكل التنافس والصراع جزءًا لا يمكن إنكاره من الطبيعة، لكنه ليس الجزء المسيطر كما يشير أولئك الذين يسوغون الجشع والعنف البشري باعتباره ظاهرة طبيعية. من الخطأ أو التحايل أن نستخدم الطبيعة كنموذج أو كناية عن السلوك البشري، ثم نركز فقط على أحد وجوهها –التنافس، والعدوان، والعنف– لتعريف عالم محتوم من الفائزين والخاسرين، وأن نقول إن هكذا تسير الأمور دائمًا.

بالطبع تتضمن الطبيعة صراعًا؛ بعض الحيوانات الضارية ستقاتل حتى الموت للسيطرة، والتزاوج، والطعام، والأرض. ولكن حتى في المجتمع الحيواني، فذلك ما هو إلا سلوك واحد ضمن مجموعة معقدة من السلوكيات، يتصف أغلبها بالرعاية والاستكشاف، ونقل معلومات مهمة عن موقع الطعام والمياه والحيوانات المفترسة.

الطبيعة ليست نموذجًا منفصلًا عنا. نحن جزء من عالم الطبيعة، بكل تعقيداته. وبصفتنا جزءًا من عالم الطبيعة، يمكننا تقبُّل الخوف والسلوك العدواني، ولكن فقط باعتبارهما سلوكيات متطرفة في إطار واسع من العلاقات القائمة على التكافل والتعاون والتضافر؛ تلك العلاقات التي تنشأ

منها الحياة. من المنطقي بنفس الدرجة أن نستمد إلهامنا من تلك السلوكيات والصور الطبيعية الداعمة للحياة –بل هو أكثر منطقية في الواقع–؛ ذلك لأن تلك هي العلاقات والخصائص السلوكية التي تمدنا بأفضل النماذج والممارسات من أجل علاقة مثمرة مع المال، ومن أجل نجاة البشرية وتأمين مستقبل أرضنا.

مشكلة العمل الخيري و«يد العون»

ثمة مقولة مأثورة تقول: «إن كنت قادمًا لتساعدني، فأنت تهدر وقتك، ولكن إن كنت قادمًا لأن خلاصك مرهون بخلاصي، فلنعمل معًا إذن».

من متطلبات عملي كوني جامعة تبرعات أن أيسِّرَ سبل التعاون، وأن أنخرط بعمق في عالم الأخذ والعطاء. لكني وراء هذا الجمال رأيت الجانب المظلم والمخادع لما يبدو للوهلة الأولى صادقًا ونبيلًا بوضوح. من الصعب تخيل أن العمل الخيري قد ينطوي على جانب مظلم، أو أنه قد يكون مخادعًا، لكنها الحقيقة.

رأيت الجانب المظلم منذ سنوات عديدة في شيكاغو، عندما قبلت ذلك الشيك بقيمة 50,000 دولار من المدير التنفيذي لشركة منتجات غذائية، وأدركت بعد فوات الأوان أنها ليست سوى أموال آثمة، أشبه برشوة للتعويض عن خطأ ما ارتكبته العلاقات العامة. ثم رأيته مرة أخرى في بومباي، عندما صار واضحًا لدرجة أن المتسولين كانوا يشوهون أطفالهم لإشعار الزوار بالصدمة والخزي، ودفعهم إلى إعطائهم المال. والمال الذي حصلوا عليه بتلك الطريقة لم يفعل إلا أن عزز التلاعب، ومن ثم دوامة التسول. ثم رأيته في الطريقة التي يستخدم بها بعض المتبرعين الأثرياء العطاء وسيلة لتحسين صورتهم الاجتماعية، أو يستخدمون بها الوعود المالية لكسب اهتمام خاص أو امتيازات من أولئك الذين هم في أمس الحاجة إلى النقود، وفي الطريقة التي تبيع بها المنظمات والبرامج والناس أنفسها لخدمة الأثرياء على أمل كسب رضاهم وشيكاتهم المصرفية الضخمة.

يظهر الجانب المظلم في البلدان النامية، حيث ينتهي المطاف بكميات هائلة من المساعدات –من مال وطعام وإمدادات أخرى– من الأمم المساعدة في أيدي مسؤولين فاسدين، لتضييق قبضتهم الجشعة على حياة أولئك الذين يعانون، أو حيث تغرق البلدان المستفيدة في بئر الاتكال. إنه حتى في الأعمال الخيرية الأكثر روتينية، يصبح الخير أحيانًا أبعد ما يكون: العطاء الآثم، نقل الأموال من أولئك الذين يملكونها إلى أولئك الذين يفتقرون إليها، كل ذلك يطيل أمد الكذبة التي تقول بأن هناك «أغنياء» و«فقراء»، بدلًا من شركاء ذوي موارد مختلفة يجتمعون في صفقة تفيد الطرفين.

الإرث المؤلم للعمل الخيري المفرط والمضلل كان واضحًا في إثيوبيا عندما كنت هناك في أوائل التسعينيات. قبل ست سنوات من بدء العرض التلفزيوني الخيري الأكبر في تاريخه في ذاك الوقت «لايف آيد»، ونجاحه في جذب انتباه العالم إلى المجاعة المدمرة التي تحدث في 1984 في الوادي المتصدع بإثيوبيا. جُمِّعت ملايين الدولارات، وأُرسِلَت المواد الغذائية لإيقاف الموت. كانت إثيوبيا وشعبها محور حديث العالم أسابيع عدة. حركت الصور التلفزيونية لوجوههم الشاحبة الجائعة وأجسامهم الهزيلة قلوب العالم الثري، وتدفقت المساهمات الخيرية إلى الوكالات العاملة على رفع المجاعة ومساعدة الناس.

وعلى الرغم من الخير الذي ترتب على تلك الأموال والأرواح التي أنقذت، فعندما زرت إثيوبيا بعد ست سنوات، التقيت أناسًا ما زالوا على شفا الموت، أناسًا فقدوا حس الاعتماد على أنفسهم، وينتظرون أن ينقذهم العالم ثانية. والآن، من دون العناوين الإخبارية والصور التلفزيونية، كانوا عاجزين ويائسين، محاطين بالجفاف والضياع، وقد انتقل المجتمع العالمي إلى كوارثه الأخرى. دارت الأحاديث عن «فتور همة المتبرعين»، وتضاءلت المساعدات حتى انعدمت تمامًا.

إن العالم الثري بتصدُّقه في تلك الأسابيع المعدودة قد أراح ضميره على الأرجح أكثر من معالجة الوضع الإثيوبي فعلًا. وبمجرد أن بطلت موضة تلك الكارثة، انتقل الانتباه والمال إلى مكانٍ آخر. أما الشعب الإثيوبي، فقد

تعلم أنه في حاجة إلى الاستمرار في إظهار الأطفال الجائعين ورفعهم عاليًا للحصول على الانتباه الذي هو في أمس الحاجة إليه لإبقاء شكل من المساعدة متدفقًا تجاههم. تمامًا مثلما تعلم متسولو بومباي المنظمون عرض أنفسهم بشكل مفيد لاستدرار الصدقات، فإن هذه العلاقة الخيرية المبنية على الشفقة والتعاطف مع «المحتاجين» بدأت تبدو لي كنوع من التصوير الإباحي للفقر الذي يهين جميع الأطراف.

لقد رأيت تكلفته مرارًا في عملي بالبلدان النامية؛ رأيت أناسًا يعانون من أعراض انسحاب خمر الاتكالية والاعتماد على الغير، رأيت عواقب دولة الرفاهية[1] في العالم أجمع، عواقب لا تقتصر على وجود أغنياء وفقراء، عواقب هي في الواقع موجودة داخل المؤسسات والعائلات والعلاقات بين الأمم، حيث «يساعد» الناس بعضهم بعضًا بطريقة سلطوية –من القمة إلى أسفل– وتخلق اتكاليين معتمدين على غيرهم بدلًا من ترسيخ الاعتماد على النفس والتكافل الصحي. عواقب تضر بالجميع.

سواء كان ذلك بين الأمم، أو داخل المساحة الصغيرة لمجتمعاتنا أو عائلاتنا، فإنه حينما يظن المتبرعون أنهم مخلصون أخيار، فإن متلقي التبرعات يعجزون عن تحديد قيمتهم واستقلاليتهم أو تمييزها بأنفسهم. يغفل المخلصون الأخيار عن التجربة الإنسانية الحيوية للتكافل الصحي، ويرى متلقو الأموال في الغالب أنفسهم أنهم غير أكفاء، بدلًا من شركاء أكفاء وذوي قيمة كما يجب أن يكونوا. محال أن يغير الأثرياء أي شيء بالمال حقًّا دون شغف والتزام الشركاء الذين يعرفون كيف يفعلون ما يلزم. فقط حين نقدِّر ونحترم ونتقبل قيمة الشراكة وحكمتها يمكننا أن نحصد مكاسب دائمة. في غياب الالتزام بمواجهة التحديات التي نلقاها يدًا بيد كمجتمع بشري، لن تحل الأعمال الخيرية مشكلاتنا. إنها تفصلنا عن المشكلة بصفة مؤقتة،

(1) **دولة الرفاهية** هي شكل من أشكال الحكومة التي تحمي الدولة من خلالها الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين وتعززها، على أساس مبادئ تكافؤ الفرص والتوزيع العادل للثروة والمسؤولية العامة على المواطنين غير القادرين على تأمين الحد الأدنى من المؤن الكافية لحياة جيدة.

وتبرئ ساحتنا. لقد دربتنا مجتمعاتنا على العطاء وتقبل المساعدة، في حين أن ما نحتاج إليه في الواقع هو الانخراط الكامل والتعاون والشراكة.

ثمة فرق ينبغي الإشارة إليه بين العمل الخيري والتضامن كما نشهده في التعاون. تاد هارجريف هو ناشط شاب ومساعد في مبادرة Youth for Environmental Sanity –شباب من أجل سلامة البيئة–، وقد أوضح الفرق ببلاغة، قائلًا:

> *يكتمل العمل الخيري عندما يكون أساسه التضامن، ففي حين أن العمل الخيري قد يساعد أولئك الذين يحاكمهم النظام، فإن التضامن قد يضع النظام نفسه تحت ذمة المحاكمة؛ فهو لا يوفر الموارد وحسب، بل يعمل بهمة لتغيير الأنظمة نفسها التي تضع الموارد ظلمًا في أيدي البعض على حساب البعض الآخر. يقول التضامن: «لا أريد الاستفادة ظلمًا من نظام غير عادل». يولد التضامن من معرفة أننا جميعًا مترابطون، ومن ثم فإن مبدأ إما «نحن» وإما «هم» هو مبدأ معيب.*

العمل الخيري الهادف: المال والروح في تناغم

لو أن هناك حقيقة واحدة فاجأتني في عملي كوني جامعة تبرعات، فهي أن بعضًا من أهم فاعلي الخير وأكثرهم إلهامًا لا يحوزون كثير مال. منهم من هو ثري ويملك كميات هائلة، بل فاحشة من المال، لكن العمل الخيري في الولايات المتحدة وفي العالم أجمع إنما هو وليد العمال الكادحين كل يوم بقدر ما هو ممارسة يتبعها المشاهير والأثرياء. وفق التقرير السنوي للعمل الخيري في الولايات المتحدة *Giving USA Annual Report*، ففي عام 2000 تم التبرع بأكثر من 200 مليار دولار للقطاعات غير الربحية، وإنه من تلك المليارات المئتين من الدولارات أتت 5 في المئة فقط من الشركات، و7 في المئة من المؤسسات. وأتت ثمانية وثمانون في المئة من الأفراد؛ أي أن الجزء الأعظم من العطاء والكرم آتٍ من الأفراد. ومن بين أولئك الذين يتبرعون

بـ 88 في المئة من المال، 75 في المئة منهم لا يتجاوز دخلهم السنوي 150.000 دولار.

إن كرم الناس مذهل في البلدان التي يسود فيها الفقر. في إفريقيا على سبيل المثال، يعتمد الناس الذين يعيشون في القرى الريفية -كما هي الحال في معظم أنحاء العالم- على بعضهم بعضًا، وعلى كرم مجتمعهم المحلي لتحقيق أي شيء غير عادي، فمثلًا إن سنحت الفرصة لطفل من قرية إفريقية أو مكسيكية ليذهب إلى الجامعة، فإن القرية بأكملها تجتمع للمساهمة بكل ما في وسعها لجعل هذا ممكنًا، وسوف يجمعون مواردهم كافة إن وجدوا الفرصة لإرسال أحدهم للسفر إلى مؤتمر في الولايات المتحدة أو أوروبا. أتذكَّر فتى مراهقًا استطاع المجيء إلى أحد مؤتمرات مشروع مكافحة الجوع في ألمانيا بمساعدة أهل قريته النيجرية، البالغ عددهم ثلاثمئة فرد، الذين قرأ أسماءهم على مسامعنا جميعًا لدى وصوله.

والأشخاص الذين أتحدث عنهم ليسوا أصحاب واسطة أو سلطة، بيد أنهم يدخرون قليلًا من المال من أجل ذاك النوع من الفرص لدعم أحد أفراد مجتمعهم، أو أسرتهم الموسَّعة. ويمكن أيضًا للمجتمعات الدينية أو الروحية أن تكون أماكن يصبح فيها هذا النوع من التمويل التعاوني الخاص وسيلة يعبر بها الناس عن حبهم أو دعمهم بمساهمات صغيرة مستمرة.

نحن نفكر في العمل الخيري وكأنه حكر على الأغنياء، لكني أرى أن جميع أعمال الكرم والمشاركة واللطف إنما هي أعمال خيرية، وكلنا قادر على المساهمة فيها في جميع الأوقات.

ثمة انطباع آخر لدينا، وهو أن الأشخاص ذوي الموارد يتبرعون للأشخاص معدومي الموارد، لكن نادرًا ما تسري الأمور هكذا. إن الأشخاص الذين يتبرعون بالموارد أو الأصول هم في الواقع يسخرونها لتحقيق رؤية ما. بعض هذه الموارد تكون مالية، بعضها يكون جهدًا تطوعيًّا، بعضها يكون إخلاصًا وشغفًا تجاه ما يريد الجميع تحقيقه. مهما كان ما يساهم به الفرد، فإن كل مساهمة تعد موردًا مساويًا. عندما نكف عن إعطاء المال تلك الأهمية المفرطة التي تعطيه وزنًا أكبر من أي شيء آخر، نرى أن كل فرد يمتلك

موارده ويتبرع بها، وأن الجميع يقفون جنبًا إلى جنب ويساهمون في تحقيق الرؤية. حينها تكون المعاملة عادلة بحق، حينها لا يكون للمال معنى أكبر مما يستحق، إنما هو إحدى طرق المساهمة لا أكثر، وهو ما يمتلكه بعض الأشخاص ويشاركونه.

في إحدى رحلاتي إلى إثيوبيا ضمن مشروع مكافحة الجوع، سافرت مع عدة نساء أخريات إلى مجتمع ريفي يدعى لاليبيلا، وهناك طلبت منا مجموعة صغيرة من النساء العجائز أن نساعدهن في مشروع ما كن يفكرن فيه منذ فترة. كانت المنطقة شديدة القسوة، وذات ظروف لا ترحم، ليست ما يعتبره معظمنا مكانًا خصبًا لأي مشروع. قد يرى البعض أولئك النسوة عجائز، وقد يراهم البعض الآخر فقيرات، لكننا جلسنا في دائرة على الأرض الصلبة –نحن الست عشرة–، وكنا ست عشرة امرأة مستعدة للتفكير والعمل مع الآخرين لتحقيق شيء ما. بعضنا جئن من عالم الولايات المتحدة المرفه وسوف يرجعن إليه، والبعض الآخر ولدن هنا وسوف يعشن ويمتن في هذه المنطقة الوعرة القاحلة.

كانت النساء الإثيوبيات أكبر سنًّا منا بكثير؛ في الستينيات والسبعينيات من عمرهن، وكانت بعضهن أرامل بالكاد يمتلكن قوت يومهن. كانت أولئك النسوة يحلمن ببناء مقهى، مقهى متواضع على الطريق التي يأتي منها العديد من المزارعين لجلب بضائعهم إلى سوق لاليبيلا. من شأن هذا المقهى أن يكون نعمة لكل من المزارعين وغيرهم من المسافرين المرهقين من طول السفر، وللنساء كوسيلة لكسب ما يكفي لإعالة أنفسهن. كن يردن العمل، لكن ضعفهن حال دون ذلك، فلم يعدن قادرات على الزراعة، ولم يعدن قادرات على السير لعرض بضائعهن في أي مكان، وكن في حاجة إلى شيء يتيح لهن البقاء في مكان واحد.

كانت خطتهن للمقهى بسيطة للغاية، وكن قد بدأن بالفعل بناء ذاك الهيكل الدائري ذي الغرفة الواحدة، بقطع من الأغصان المتساقطة أو الأشجار الميتة في المنطقة. كن قادرات على بناء مقهاهن بالخامات التي في متناول أيديهن، أما ما كن في حاجة إليه، فهو فناجين الشاي، والصحون، وغلاية

المياه؛ الأشياء التي ستجعل من البناء مقهى بحتًا، وليس مجرد استراحة. لذا رتبت مجموعتي لشراء تلك الإمدادات، وساهمنا في المشروع. أنشأنا أيضًا صندوقًا صغيرًا للمساعدة في تكاليف الإمدادات المستمرة، بحيث يصل بصفة دورية من أقرب مدينة بواسطة إحدى العاملات في مجال التنمية، التي سعدت بكونها زبونة وموردة دائمة للمقهى. أما تلك المرأة، فقد وهبت شبابها وقوتها الجسدية. ووفرنا نحن الدعم المادي، وهو ما كنا متلهفات لفعله؛ أن نشارك في إقامة هذا المقهى مع أولئك النسوة. كانت عملية زاخرة بالتعاون، وأذكر أني فكرت أننا جميعًا لسنا سوى نساء تضع كل منا قطعة الأحجية التي لديها لإكمال الصورة الكبرى وتحقيق شيء استثنائي ومهم. كانت تجربة جميلة ومفعمة بالبهجة. لم نكن نتبرع لأولئك «النسوة العجائز المساكين» بالنقود، بل تعاوننا جميعًا لخدمتهن وخدمة كل من يمشي من هذه الطريق إلى السوق، ورغبتنا في صنع فرق.

في إطار الاكتفاء، يصبح العمل الخيري والخدمة تعبيرًا عن الترابط. يتيح العمل الخيري الهادف للناس استثمار ثرواتهم، ليس فقط بالدولارات، بل أيضًا بطاقة عزمهم ونواياهم. أصبحوا «مخولين» بصنع مستقبل جديد لنا جميعًا، سواء كان ذلك لتحسين مرافق مدرسة محلية، أو لتدمير الأسلحة النووية على الأرض، أو لتمكين النساء في إندونيسيا. عندما يوجهون تدفق المال نحو الالتزامات الأهم، يستثمرون الأموال بأرواحهم ويعتنقون الاكتفاء ويعبرون عنه. أطلق على هذا لقب: الاستثمار «الحق» الذي لا يتضمن متلقِّين. إنه فرصة لنا كأسرة بشرية ليشارك كل منا الآخر بالموارد التي هي جزء من حياته.

في ذاك الإطار، يختبر المستثمرون الماليون شعور أن لديهم ما يكفي، وأن لديهم الأهلية والرغبة والقدرة على المشاركة. يشاركون جهودهم مع أولئك العاملين في الميدان لإنشاء مرفق المدرسة، أو ينخرطون في وضع الخطط للمحافظة على إحدى الغابات المطيرة، أو يعملون في القرى الإندونيسية لتوسيع مهارات القراءة والكتابة، أو الزراعة، أو التعليم لديهم. هذه الأعمال التعاونية هي شراكات متكافئة في خدمة رؤية يبتغيها جميع الأطراف. كل

فرد يتقاسم مع البقية ثروته، تلك التي يحتاج إليها ليشعر بالاكتفاء والكفاية والازدهار في حياته وعمله.

لا بد أن تنفتح يد الإنسان لتأخذ، ولكن أيضًا لتعطي وتلمس. كما لا بد أن ينفتح قلب الإنسان ليأخذ ويعطي ويلمس قلبًا آخر. ذاك الانفتاح والتبادل، تلك الصورة للأيدي والقلوب المفتوحة، تربطنا ليس فقط بالآخرين، ولكن بشعور الاكتمال والاكتفاء الذي بداخلنا.

فيث سترونج: التواصل يصنع صلة قرابة

كانت فيث سترونج في الستينيات من عمرها عندما قررت استخدام العمل الخيري لتحويل ثروتها الموروثة من تاريخ عائلي حافل بالمصالح الذاتية إلى استثمار جاد في شراكات عالمية للنهوض بالعدالة الصحية والاجتماعية، خاصة للنساء اللاتي يعانين القهر في المجتمعات التي يهيمن فيها الذكور. نظرًا إلى أنها ساهمت وعملت في مشروع مكافحة الجوع، فقد أصبحت مهتمة بشكل متزايد بتمكين النساء اللاتي يعملن لإنشاء مجتمعات مكتفية ذاتيًّا في تلك الظروف الصعبة. في إحدى رحلاتها إلى السنغال لمقابلة شركائها الغرب إفريقيين، هناك، في مهرجان احتفالي قروي بهيج، عثرت على القرابة والشراكة مع ثماني نساء سنغاليات أردن أن ينشئن برنامج ائتمان صغيرًا لقريتهن وخمس قرى مجاورة.

جلبت كل امرأة موارد مختلفة للشراكة. كانت إحداهن قائدة بالفطرة، وبرعت الأخرى في الحساب وجدولة الأرقام، والثالثة كانت تجيد التواصل والترويج، إذ طالما اتخذها الناس قدوة وأحبوا محاكاة ما تفعله، والرابعة كانت ماهرة في تخزين الطعام في تلك البيئة القاسية، فيما برعت الخامسة في تربية الدواجن. أما فيث، فكانت ماهرة في توفير الموارد المالية. هكذا اجتمعت تسع نساء في المجمل -بمن فيهن فيث- في رؤية مشتركة لإنشاء برنامج إقراض صغير لكل النساء في تلك القرى الخمس. كان من شأن هذا البرنامج أن يمكِّنهن من بدء مشاريع تخزين الطعام وتربية الدواجن لكسب المال لإطعام أسرهن وتحسين حياة مواطنيهن.

ومثلما جرى الأمر بالنسبة إلى من شاركت منا في مشروع المقهى، وفرت فيث الموارد التي تمتلكها، ومنحن هن ما يمتلكنه، ومعًا استثمرن في تحقيق رؤية مشتركة. كان لكل منهن دورها، لم تمارس إحداهن دور «المتلقية». حظيت كل امرأة بالتقدير لما لديها من مهارات. ذلك هو دور المال في العمل الخيري المعدَّل.

ليس العمل الخيري حكرًا على الأثرياء الذين يشعرون بالشهامة، أو الذنب، أو الخزي من امتلاكهم أكثر مما يحتاجون إليه، أو على أي أحد يريد أن يثبت صلاحه واستقامته بالتضحية والإحسان. إن عالمنا أكثر تطورًا من ذلك، ولدينا الفرصة الآن لاعتزال الأعمال الخيرية التقليدية كما عرفناها، ولأن نقيم بدلًا منها شراكات يمكن فيها تحقيق رؤية مشتركة من خلال التضامن ودمج الخبرات والعمل التطوعي والموارد المالية. تلك الشراكات موجودة بالفعل في هيئة مؤسسات مثل: «مشروع مكافحة الجوع»، و«قوات حفظ السلام»، و«مؤسسة إنقاذ الطفولة»، و«مركز تنظيم الأسرة»، و«منظمة حقوق الإنسان»، و«مؤسسة Katalysis للشراكة بين الشمال والجنوب»، و«مصرف غرامين»، و«اتحاد الباتشاماما». في المجتمعات والمشروعات والبرامج في جميع أنحاء العالم، يجمع الأفراد من الظروف المختلفة مواردهم معًا لإيجاد حلول، هذا هو التعريف الجديد للعمل الخيري: التعاون بين المساهمة والخدمة. عندما تبلغ تلك المنطقة، ذاك المكان، تتبدد المشكلات وتكثر المعجزات.

بنجلاديش: المال والروح وأمة تتعافى

تبين حكاية «السبعة العظام» قوة الشراكة، حينما وفَّرت إحدى المؤسسات ورش عمل وتدريبات للقيادة والرؤية من أجل أن يتسنى لقادة المجتمع المحلي أو ناشطيه استعادة شعورهم بالقوة. بتعبير أبسط؛ لقد جمعت ورش العمل المستمرة تلك الناس معًا لتخيل بنجلاديش جديدة معتمدة على نفسها ومكتفية ذاتيًا. بنجلاديش قادرة على المساهمة بشيء في المجتمع العالمي– بلد لا يحتاج إلى معونات، بلد يسهم شعبه بذكائه، وشجاعته، ومهاراته،

وقدرته على التحمل، شعب صناعة وإبداع، شعب له فنونه وأدبه الخاص به، أمة أهلٌ لأن تجلس بفخر على طاولة الأمم المتحدة.

تحسَّن الوضع في بنجلاديش لدرجة هائلة في الأعوام العشرين الماضية، وصارت لديهم رؤية شغوف لما يمكن أن يكون عليه البلد، والتزام بحشد مواردهم الداخلية للمهمة، ومساهمة مستمرة للموارد والشراكة من خلال العديد من المؤسسات العالمية التي أسهمت بموارد أخرى.

لقد تغير الكثير في فترة قصيرة نسبيًّا؛ فاليوم صارت النساء ينجبن ما متوسطه ثلاثة إلى أربعة أطفال بدلًا من ثمانية أو عشرة. تضاعف متوسط الدخول، وأصبحت الهيئات غير الحكومية ومبادرات التنمية الاقتصادية المستقلة من أكثر الحركات الشعبية فاعلية في العالم، حيث تخفف وطأة الفقر وتحل مشكلة المجاعات.

الحديث عن الحياة الوطنية هناك اليوم زاخر بالشعر؛ فهم أمة من الشعراء غزيري الإنتاج، وشعرهم هو مصدر فخرهم الوطني. كثيرًا ما تقام الندوات الشعرية في قلب التجمعات بالمقاهي والأسواق. وقد بدأ الشعر البنجلاديشي اليوم يمخر عباب العالمية ويُنشر بلغات أخرى. أما الأقمشة والأزياء البنجلاديشية، فقد أصبحت متوفرة في جميع أنحاء العالم.

يستمر التحول في بنجلاديش، ومستقبلها لا يخلو من تحديات جمة، لكنها أحرزت تقدمًا لا يمكن إنكاره. أعاد الكثير من الناس اكتشاف اكتفائهم الذاتي، وصار بإمكانهم أن يروا أنفسهم في الشراكة أقرانًا لا أناسًا محتاجين يتم إنقاذهم. صاروا يرون أنفسهم صُنَّاعًا للتطور، يعملون بفاعلية مع شركاء متساوين قدموا موارد مختلفة للتعاون. لقد اتخذوا قرارًا واعيًا بالتوقف عن النضال فقط للحصول على المزيد والمزيد من المساعدة، ووجهوا طاقاتهم نحو تحديد قدراتهم، واستغلالها لأقصى حد. صاروا يتحملون المسؤولية ويضطلعون بدور قيادي في التعاون الواسع للشركاء الدوليين.

في اجتماعٍ حضرته هناك في عام 1991، كان حديث الشارع وأروقة السلطة يدور حول تعليق أدلى به رئيس وزرائهم مؤخرًا. كان قد تحدث بفخر

عن شعبه، قائلًا: «إن ما لدينا ليس 120 مليون فم نطعمه، بل 240 مليون يد جاهزة للعمل. ما لدينا هو 240 مليون عين مستعدة لرؤية عالم جديد. ما لدينا هو 240 مليون أذن جاهزة للاستماع لبعضها بعضًا».

لقد نظر إلى بلده ورأى الجمال الكامن فيه وهو يقول: «نحن الشعراء، نحن النساجون، نحن الموسيقيون، نحن المفكرون، ونحن قادرون على التصدي للكوارث، فيضانًا من بعد فيضان. نحن من بين أكثر الناس إبداعًا وصمودًا في العالم. لا نريد إحسانًا. ما نريده هو الشراكة».

لقد أظهرت بنجلاديش قوتها ورسَّختها من خلال عشرات الآلاف من الشراكات المنظمة، وملايين الشراكات وعمليات التعاون الفردية، وأصبحت شريكًا مساهمًا على المسرح العالمي.

نبوءة الكندور والنسر[1]

في عملنا الطويل مع سكان الأشوار الأصليين، أخبرونا بأن تحالفنا معهم هو تحقيق لنبوءة قديمة متوارثة عن التعاون من أجل النجاة، يلقبونها بنبوءة الكندور والنسر. فمنذ آلاف السنين، روى شامانات أمريكا الجنوبية وشيوخها في جميع أنحاء القارة أنه مع بداية الدورة الباتشاكوتية الخامسة (الباتشاكوتية هي دورة تستمر خمسمئة عام) –وهو العصر الذي نعيش فيه اليوم– سيحدث اتحاد بين «شعب النسر» و«شعب الكندور»، الشعبين اللذين انفصلا منذ زمنٍ بعيد.

تقول النبوءة إن في البدء كان سكان الأرض جميعهم متحدين، لكنهم انقسموا منذ زمن بعيد إلى مجموعتين، واتبعت كل منهما مسارًا تنمويًّا مختلفًا. كان شعب النسر متفوقًا في الجوانب العلمية والفكرية، بينما تمتع شعب الكندور بانسجام فريد مع الطبيعة ومملكة الحدس.

وتستمر النبوءة لتقول إنه في المرحلة الراهنة من تاريخ الأرض، سيكون شعب النسر –أهل الفكر والعقل، ذوو الحس المتطور للمهارات الجمالية

(1) الكندور طائر ضخم يعتبر من أضخم الطيور المحلقة في نصف الأرض الغربي، وينتمي إلى فصيلة نسور العالم الحديث.

والمعرفية–... سيكون هذا الشعب قد بلغ ذروته في إثراء المعرفة العلمية والتكنولوجيا والأدوات التكنولوجية، والتعبير عن الفن الراقي، والقدرة على البناء والتشييد، بل سيبتكر شعب النسر أيضًا أدوات وتقنيات من شأنها أن توسع العقل، وسيبدع معجزات تقنية ذات قوة وضخامة لا يمكن تصورها. ستجلب الإنجازات والتقنيات الهائلة لشعب النسر ثروة مادية مهيبة لقادة عالم النسر. وفي الوقت نفسه، سيكونون معدمين روحيًّا حد الموت، وسيصبح وجودهم ذاته في خطر.

وفي نفس الحقبة، سيكون شعب الكندور –أهل القلب والروح والحواس، والاتصال العميق بعالم الطبيعة–... سيكون هذا الشعب قد طور إلى حد بعيد مهاراته الحدسية. سيبلغ السكان الأصليون ذروة حكمتهم العميقة المتأصلة، وفهمهم وارتباطهم بعالم الطبيعة، ودورات الأرض الكبرى، وصلتهم بالأرواح العظيمة ومملكتي الحيوانات والنباتات، وقدراتهم على التنقل عبر الأبعاد الروحية العديدة التي يسكنونها. وفي الوقت نفسه، سيكونون متعطشين وتوَّاقين إلى المعرفة التي ستمكنهم من النجاح في عالم المادة، وسيكونون عاجزين عن التعامل مع عالم النسر المادي، إلى الحد الذي يصبح وجودهم ذاته في خطر.

من الواضح أن ثقافتنا الغربية تمثل شعب النسر، وأن سكان العالم الأصليين هم شعب الكندور.

تقول النبوءة إنه في هذا الوقت من تاريخ الأرض سيتحد شعبا النسر والكندور من جديد. عندما يتذكران أنهما في الأصل شعب أوحد، سيصلان الحبال التي انقطعت، ويتذكران أصلهما المشترك، ويتشاركان المعرفة والحكمة، وينقذان بعضهما بعضًا. سيطير النسر والكندور معًا في السماء نفسها جناحًا بجناح، وسيتوازن العالم بعد أن كان على وشك الانقراض. لن تنجو النسور ولا طيور الكندور من دون هذا التعاون. ومن قلب هذا الاتحاد بين الشعبين، سيظهر وعي جديد مختلط يقدر شعب النسر لإنجازات العقل الاستثنائية، ويقدر شعب الكندور لحكمة القلب العميقة. معًا –ومعًا فقط– ستنزاح الكارثة وسيظهر مستقبل مضمون للجميع.

في عملنا مع شعب الأشوار، رأيت سحر التعاون جليًا وكاملًا. أصبحت مهارات زوجي بيل أوضح وأعمق وأكثر ثراءً كرجل أعمال في العالم الحديث، حيث صار الآن يدمج السمات العميقة للكلانية[1] والمبادلة وحكمة القلب، التي هي أساس حياة شركائنا الأصليين. لقد رأيت قدراتي تنمو ونواقصي تتضاءل عندما أدمج أساليبهم القديمة في معرفة العالم الطبيعي وفهمه في قلبي وروحي. لقد شاهدناهم وهم يحتفظون بقوتهم الحدسية ويعمقونها، في الوقت الذي غدوا فيه لاعبين مهمين وذوي معرفة على مسرح العالم الحديث، وأضافوا المهارات والسمات التي هي أساس النجاح في العالم الجديد الذي يسكنونه.

هذا الثراء المتزايد والتعمق للتحالف، إلى جانب سنوات عملي مع الجوع والفقر والرفاهية والثروة، أظهرا لي أن التعاون وجميع روافده -المبادلة، والشراكة، والتضامن، والتحالف- ينبع من حقيقة الاكتفاء. كل شيء موجود هنا، الآن. إنه كاف. كلنا على قلب رجل واحد، ومواردنا تكفي وتفيض.

هذه النبوءة القديمة تقدم حكمة خالدة لحياتنا المعاصرة، حتى وإن كنا نعيشها في بلاد «النسر»، حيث صار العلم والتكنولوجيا والسلع المادية مقومات حاسمة. إن حكاية النسر والكندور هي حكاية لزمننا نحن، ومن أجلنا نحن، تذكير بأن التعاون جزء أساسي من قصتنا البشرية وحقيقة الاكتفاء، ومفتاح مستقبل مزدهر ومستدام لنا جميعًا.



(1) **الكلانية** هي الفكرة القائلة بأن الأنظمة الطبيعية يجب أن يُنظر إليها على أنها متكاملة وليست مجموعة من أجزاء؛ فهي تعمل كأنظمة متكاملة، ولا يمكن فهمها بصفة مفردة.



الجزء الرابع

غيِّر حلمك

8

غيّر حلمك

لقد حلمنا ذلك الحلم، ومن ثم صار واقعًا. لقد أصبحت مقتنعًا بأن كل شيء نفكر فيه ونشعر به ما هو إلا تصور، وأن حياتنا -فردية كانت أو جماعية- تتشكل حول هذا التصور، وأنه إن كنا نريد التغيير يجب علينا أن نغير تصورنا. عندما نسخِّر طاقتنا لحلم مختلف، يتبدل العالم. ولكي نصنع عالمًا جديدًا، يجب علينا أولًا أن نمتلك حلمًا جديدًا.

- جون بيركنز - العالم كما حلمنا به.

انغمسنا أنا وبيل منذ عام 1995 في العمل مع شعب الأشوار بجمهورية الإكوادور، وهم شعب صاحب ثقافة أصلية قديمة، سليمة، وثرية، ومعافاة، وحكيمة لدرجة لا تصدق، شعب لم نحلم قط بالتحالف معه، لكن الفضل في ذلك يعود في الواقع إلى أمرين: الأول حلم، والثاني صديق.

في عام 1994، سافرت إلى جواتيمالا مع جون بيركنز، الكاتب والناشط البيئي والصديق، الذي عمل مع شامانات أمريكا الجنوبية أكثر من ثلاثين

عامًا. أخذنا جون إلى الإكوادور في أول مرة ذهبنا فيها إلى غابات أمازون المطيرة، وعرفنا بجميع الأشخاص الأساسيين الذين بدأنا العمل معهم حينما أنشأنا «تحالف الباتشاماما» -أو بتعبير أدق، عندما أنشأه شعب الأشوار من خلال تواصله الأول معنا-.

قمت برحلتي إلى جواتيمالا مع جون منذ ما يقرب من عشر سنوات. قدنا أنا وهو مجموعة من المتبرعين والناشطين في رحلة لزيارة سكان المايا الأصليين بمنطقة التل في توتونيكابان. خلال الرحلة، تسنى لمجموعة صغيرة منا المشاركة في طقوس الأحلام والرؤى مع أحد الشامانات المبجلة هناك. كانت هذه المحطة في مسار الرحلة فرصة نادرة، ذلك لأن التاريخ قد غرس الحذر في نفوس قادة السكان الأصليين تجاهنا نحن البيض، وسوف يرفض الشامان لقاءنا في الأحوال العادية. غير إن جون اعتمد على ثقة وصداقة امتدت ثلاثة عقود، واستطاع أن يرتب تلك الجلسة بين مجموعتنا والشامان.

اجتمعنا في تلك الليلة في المكان الذي أعده الشامان لإقامة الطقوس. رحب بنا ودعانا للانضمام إلى الدائرة التي بصدد الانطلاق في رحلة مختلفة، رحلة ذهنية نقوم بها في ساحة الأحلام والغفوة القوية التي يبسطها لنا الشامان. تعد الأحلام وسيلة اتصال قوية في معظم ثقافات الشعوب الأصلية، حيث يناقش الناس أحلامهم ويستخلصون منها معنى، ويرجعون إليها قبل اتخاذ قرارات مهمة، ويعتبرونها وسيلة للإفصاح عن رغباتهم ونواياهم وإخبار الآخرين بها.

كانت تلك تجربتي الأولى مع الطقوس الشامانية، وبمجرد أن سمحت لنفسي بالانجراف إلى حالة الحلم تلك داهمتني رؤية فريدة. في حلمي، أصبحت طائرًا عملاقًا، وشاهدت نفسي أطير فوق غابة خضراء شاسعة. نظرت إلى أسفل، فرأيت وجوهًا بلا جسد تطفو من أرض الغابة وترتفع تجاهي. كانت وجوه رجال مرسومة بخطوط هندسية، وترتدي تيجانًا من الريش باللونين الأصفر والأحمر. ظلت الوجوه تحلق نحوي ثم تهبط إلى الغابة من جديد، وبدت وكأنما تتحدث بلغة غريبة لا أعرفها. كان الحلم حيًا

وواضحًا أشد الوضوح، كان آسرًا وجميلًا إلى حد بعيد. ثم سمعت قرع طبول مدويًا واستيقظت.

كان الشامان هو من قرع الطبل. وبعد أن صحا جميع أفراد المجموعة من غفوتهم الذهنية، طلب من كل منا مشاركة ما رآه وسمعه في حلمه. تحدثنا الواحد تلو الآخر، بعضنا شاهد حلمًا والبعض الآخر لا. كان صاحب الحلم يرى نفسه في الغالب حيوانًا من نوع ما، ذئبًا، أو فراشة. وفي حين أن البعض قد غط ببساطة في نوم بلا أحلام، شاهد آخرون رؤى حية للغاية. وفي حين أن رؤى البعض كانت مشوشة، كانت رؤيتي جلية في ذهني، وشاركتها مع البقية. اتفق جون والشامان على أن هذه الرؤى –وخاصة رؤيتي– يمكن أن تكون تواصلًا من نوع ما، لكنهما لم يستطيعا تخمين المتصل. بعد انتهاء الطقوس عدنا جميعًا كل إلى مهجعه، وفكرت فيما حدث على أنه تجربة قوية ومذهلة، لكني لم أدرك المغزى الكامن فيه.

اختتمنا رحلتنا وعدت إلى منزلي في الولايات المتحدة، وباشرت عملي في مشروع مكافحة الجوع، بيد أن الرؤى لم تنفك تعود مرة تلو الأخرى في منامي ويقظتي. بعد أسبوعين من عودتي من جواتيمالا، سافرت إلى غانا بغرب إفريقيا لحضور اجتماع مجلس الإدارة، واستمرت الرؤى. عدت لأرض الوطن، فعادت معي، إلى الحد الذي صارت فيه عائقًا في حياتي، وتطفُّلًا حقيقيًّا عليها. على الرغم من جمال تلك الرؤى، فقد أبت أن تختفي.

تحدثت مع جون في هذا الموضوع، فأعاد على مسامعي أن الرؤى لها دلالة في الطقوس الشامانية وثقافة الأحلام. وأدرك أيضًا من وصفي لملامح الوجه وتيجان الريش أنها يمكن أن تكون العلامات وتيجان الريش التقليدية لشعبي الشوار والأشوار في منطقة الأمازون الإكوادورية. عمل جون مع شعب الشوار سنوات عديدة، وكان ملمًّا بعاداته. بعكس جماعة الأشوار، التي كانت منعزلة وليس لديها اتصال يذكر مع الغرباء، بيد أنه علم مؤخرًا أنهم يخططون لبدء التواصل. أخبرني بالمحادثات الفريدة التي أجراها مع المحاربين الأشوار في أعماق غابات الأمازون المطيرة، التي كانت بدايات «دعوتهم» أو «ندائهم» أناس العالم الحديث كي يأتوا إليهم.

مثلما جاء في نبوءة الكندور والنسر القديمة، رأى الأشوار في أحلامهم التنبؤية أن التواصل مع العالم الحديث هو أمر لا مناص منه، سيحدث سواء أرادوا أو لا في وقت ما بالقرب من عام 2000، وبأساليب مهددة وخطيرة. لذلك، بعد معرفتهم بذلك الحلم التنبؤي، قرروا بدء الشيء الذي كان أخشى ما يخشونه؛ الاتصال بالعالم الحديث، ولكن بشروطهم هم، ومع الأشخاص الذين شعروا بأن في مقدورهم الوثوق بهم. أرادوا التعرف على العالم الحديث كيما يستعدوا للاتصال غير الودي حينما يحدث. ولأجل هذه الغاية أقاموا شراكة مع رجل إكوادوري يثقون به يدعى دانيال، وبدؤوا العمل على بناء نزل على أرضهم، حيث يمكن للقادمين من العالم الحديث –شعب النسر– أن يأتوا ويلتقوهم –شعب الكندور– داخل حدود غاباتهم المطيرة البكر.

وهكذا قام دانيال بتجنيد جون، الذي كان صديقًا وشريكًا قديمًا له، وقام جون بدوره بتجنيدي لتحقيق ذلك اللقاء مع أناس منطقتنا وقادة شعب الأشوار. كنت في ذاك الوقت غارقة حتى أذنيّ في العمل على مبادرة الجوع. كنت أسافر باستمرار إلى صحراء جنوب إفريقيا، والهند، وبنجلاديش، إلى جانب عملي في جمع التبرعات، والإشراف على أعضاء الفريق والمتطوعين في آسيا، وأستراليا، وأوروبا، وعبر الولايات المتحدة. لم يكن لدي لا الوقت ولا المكان للنظر في المشكلات التي تواجه تلك المنطقة من أمريكا اللاتينية والجنوبية. لم أزر أمريكا الجنوبية من قبل، وعلى الرغم من وعيي إلى حد ما بالدمار الذي يحيق بالغابات المطيرة وهشاشة غابات العالم أجمع، شعرت بالامتنان عندما علمت بأن ثمة أناسًا آخرين يعملون على ذلك. أما أنا، فقد غمرني عملي من رأسي حتى أخمص قدمي.

ومع ذلك، حينما وصلت إليَّ الدعوة، أو بالأحرى: «النداء» من هؤلاء السكان الأصليين النائين في أعماق الأمازون، لم أستطع تجاهلها. وهكذا نظمنا أنا وجون مجموعة من اثني عشر مسافرًا من العالم الحديث للقاء قادة الأشوار. ضمت المجموعة أفرادًا ذوي نزاهة وموثوقية هائلة، أفرادًا ذوي قلوب منفتحة، وكل منهم له صوته العالمي في قضيته التي حملها على عاتقه، وواعٍ بمدى أهمية الغابات المطيرة لاستدامة الحياة بأسرها. امتلك هؤلاء الأفراد ما

يكفي من التواضع للانفتاح على الحكمة الأصلية، والقدرة على احترام قواعد الشامان، وأسلوب حياة المجتمع الأشواري.

سافرنا إلى الإكوادور بقيادة جون ودانيال. بدأنا رحلتنا من العاصمة كيتو، ثم عبرنا وادي البراكين، مرورًا بالجانب الشرقي من جبال الأنديز، ثم عبرنا وادي نهر بيستازا، وصولًا إلى بداية حوض نهر الأمازون الشاسع، الذي يمتد شرقًا عبر القارة بأكملها. استقللنا طائرة عسكرية صغيرة للوصول إلى مهبط ترابي في الغابات المطيرة، ثم تعمقنا في الأدغال واستقللنا طائرة أصغر من الأولى لتهبط بنا على مدرج ترابي قريب من أرض الأشوار. وهكذا بلغنا وجهتنا أخيرًا، وصرنا أبعد ما نكون عن العالم المتحضر.

هناك على تلك الأرض التقينا قادة الأشوار، وغير هذا اللقاء حياتي بأكملها. هناك في تلك الغابة المطيرة الزاخرة بالجمال وبفيض الحياة، رأيتُ الناس الذين يضعون طلاء الوجه ويعتمرون تيجان الريش ذي اللونين الأصفر والأحمر التي رأيتها في حلمي. بدوا وكأنهم قادمون من عصر آخر، لكنهم كانوا راقين بطريقتهم الخاصة، وبلغوا من التطور ما بلغه أكثرنا تطورًا.

كان طلبهم منا هو أن نتحالف معهم بطريقة تمكنهم من فهم طرائق العالم الحديث، بحيث عندما يحل الخطر الذي رأوه في رؤاهم يكونون مستعدين وقادرين، وأهلًا للتعامل معه. لقد أرادوا منا أن ندعمهم في تنظيم اتحاد الحكم لديهم وتقويته. طلبوا دعمنا وشراكتنا في إنشاء مكتب في بلدة تدعى بويو، تقع على حافة الغابة المطيرة، حيث أُنشِئت مقرات الحكم الأخرى لسكان الأمازون الأصليين ليتمكنوا من التفاعل مع العالم الخارجي. اتفقنا على أن نصبح شركاء لهم في ذاك المسعى. حملنا أنا وبيل على عاتقنا مسؤولية إدارة تلك العلاقة الواعدة، وجمعنا مع بقية المشاركين التمويل اللازم لتغطية نفقات إنشاء مكتب بويو خلال العامين المقبلين. وعلى مدى السنوات السبع التي تلت، استحوذت هذه العلاقة على حياتنا، رغم انغماسي الشديد في عملي للقضاء على الجوع في العالم. ورُغم توقعي أن أبقى في ذلك العمل ما تبقى من حياتي، كان من الواضح أن تلك العلاقة هي بمكانة

تدخُّل عاجل يُطالِب بالاحترام. لم تكن جزءًا من مخططاتي، لكنها على ما يبدو كانت جزءًا من قدري.

كان بيل في ذلك الوقت منكبًّا على عمله انكبابًا كاملًا، وذهل مثلي بهذا التدخل المفاجئ على حياتنا، لكنه استسلم مثلي وخضع له، إذ أدرك أنه جزء من قدره هو الآخر. كان هذا اللقاء بداية تحالف الباتشاماما. كلمة «باتشاماما» تعني الأرض الأم أو الكون الأم في لغة الكيتشوا، وهي لغة شعب الأنديز، وهكذا يفهمها العديد من شعوب الأمازون. وقد نما هذا المشروع الآن ليشمل العديد من قبائل الأصليين الأخرى التي تحد أرض الأشوار وتحيط بها، وأصبح محور التركيز الرئيسي في حياتنا.

إن ثقافة الأشوار قديمة حالمة. تعتبر الأحلام أساس الطريقة التي يرون بها العالم، والمكان الذي يحصلون منه على حكمتهم ومعلوماتهم، لذا فهم يتخذون أحلامهم على محمل الجد، يعتبرونها جزءًا لا يتجزأ من كينونتهم. لم أكن أبدًا ممن يلقون بالًا لأحلامهم، ولم أكن أتذكر منها الكثير، ولكن في هذه التجربة بالذات كان لذلك الحلم الحي الأول قوة هائلة، وصار جليًّا بالنسبة إليَّ –مرة تلو أخرى مع تطور الأحداث– أنه جزء مهم من مسار حياتي، وأني في حاجة إلى الانتباه إليه.

إن السماح لثقافة الأحلام غير العادية تلك بالتغلغل في كينونتنا قد خلق مزيجًا من الوعي والشراكة الفعالة التي تخللت كامل تلك المنطقة من الأمازون. في شراكتنا، وجدنا سبلًا جديدة إلى تحقيق الاستدامة. إن المستقبل الذي نحلم به، الذي يكاد يكون واقعًا، هو المستقبل الذي تتم فيه حماية تلك النظم البيئية البكر، ويتم فيه احترام السكان الأصليين الذين هم حراس تلك الغابات لذكائهم وبصيرتهم. في شراكتنا مع تلك القبائل الأصلية وغيرها من المنظمات، أصبحنا اليوم منخرطين في مشاريع وبرامج من شأنها أن تحول الخطر السالف ذكره إلى فرصة لحكمتهم القديمة وبصيرتهم النقية، وأن تمكننا جميعًا من رؤية سبل جديدة إلى الاستدامة في جميع أنحاء العالم.

وعلى الرغم من أن ثقافتنا لا تعير الأحلام انتباهًا خاصًّا، فإني لا أنفك أتذكر خطاب مارتن لوثر كينج: «لدي حلم»، وحقيقة أنه حتى في الولايات

المتحدة يمكن لقوة الحلم المشترك أن تغير الواقع الأشد رسوخًا. الحلم بمكانة *العامل المحفز* للتغيير، أولًا في نفس الحالم، ومرة تلو أخرى في الحلم المشترك.

يرأس جون بيركنز منظمته المسماة: «رابطة تغيير الحلم». وخلال سنواته العديدة في التعامل مع شعوب الأمازون الأصليين، أخبروه مرارًا أن مهمتهم الأسمى هي «تغيير حلم» العالم الحديث. لقد تعلم جون الكثير من الشامانات والشيوخ الأصليين، بيد أن أهم درس علموه إياه هو أن «العالم كما نحلم به». إن حلمنا الذي تشاركناه في عالمنا الحديث هو حلم بالمزيد– المزيد من المصانع، من الشركات، من الطرق السريعة، من المنازل، من المال، من البنايات، من السيارات، من كل شيء. يقول أولئك الشامانات والشيوخ الحكماء إن ذاك الحلم قد بات كابوسًا يبسط جناحيه على أرضنا العظيمة ويعيث فسادًا.

في تعاملاتنا مع شعب الأشوار في الإكوادور والشعوب الأصلية الأخرى التي بدأنا العمل معها مؤخرًا تلقينا رسالة واحدة: «غيروا الحلم». يقولون إننا لا نستطيع تغيير تصرفاتنا اليومية، لأن الحلم الذي نحلم به لمستقبلنا متغلغل حتى الجذور، وسنتصرف دومًا بما يتسق مع هذا الحلم. ولكن الحلم نفسه –كما يقولون– يمكن أن يتغير في أذهان جيل واحد، وإن الوقت قد حان الآن لبدء العمل الذي من شأنه أن يغير الحلم.

لقد أمعنت فكري في ماهية حلمنا ومن أين أتى، وأدركت أن علينا أن نبدأ حلمًا جديدًا، وأن نتعلم التشكيك في الحلم بالمزيد، وأن نخلق حلمًا ومستقبلًا يتسق مع تقديسنا، واحترامنا، ودعمنا للحياة. ربما يعني تغيير الحلم أن نغير نظرتنا إلى العالم كليًا، مثلما يفعل السكان الأصليون. إنهم يرون العالم كافيًا إلى أقصى حد، زاخرًا بالحياة، والذكاء، والغموض، والتجاوب، والإبداع– يجدد نفسه باستمرار، وبالتناغم مع التنوع الهائل للموارد التي تدعم بعضها بعضًا، ويدعم كل منها الآخر عبر سر الحياة. إنهم يرون البشر جزءًا من ذاك السر العظيم، حيث كل إنسان يمتلك قدرة غير محدودة على الإبداع والتعاون والمساهمة.

إن العالم الذي نتخيله يبدو من الناحية التاريخية وكأنه عالم تتدهور فيه الموارد الثابتة والمحدودة بسرعة، لدرجة يتعين علينا معها التنافس بأي طريقة وكلفة لنكون من بين الناجين، وأن نكون في القمة. من هذا المنظور أو الفهم، من هذا الحلم، نحن ندير العالم بطريقة يقل فيها عدد من يحظون بفرصة حقيقية للفوز يومًا بعد يوم. نحن نسعى جاهدين للقضاء على منافسينا. نحن نقوض ثروتنا الحقيقية؛ القوة الإبداعية والبراعة التي يمتلكها جميع الناس، الثروة الكامنة في كل ذرة في الحياة.

لقد صار بديهيًّا أن النظرة الميكانيكية المادية إلى العالم هي نظرة معيبة وناقصة. ويرى العلماء والفلاسفة أن النظرة المادية إلى الواقع هي نظرة غير مكتملة، وأن الواقع المعنوي هو بمكانة عملية ديناميكية إبداعية روحانية، لا يمكن التنبؤ بها ولا تنفك تتغير.

إن السكان الأصليين يعيشون ويتنفسون ويسهمون في ذلك العالم، ولديهم حلم مستمد من تلك التجربة الديناميكية للواقع. لعلهم بدعوتهم إيانا لتغيير حلمنا يطلبون منا أن نفيق لحقيقة الحلم الذي يقود أفعالنا الحالية، حلم هو في الواقع حالة من السبات الخطير، حلم مضبوط على وضع الطيار الآلي، حلم امتلاك وتكديس المزيد في مواجهة الموارد المحدودة الثابتة، حلم النمو بأي طريقة متاحة، بغض النظر عن التكلفة البشرية والبيئية. لعلهم يطلبون منا أن ننظر إلى ما فعله بنا ذاك السبات، وما فعله بالعالم الذي نعيش فيه: بالنباتات، والحيوانات، والسماء، والمياه، وما فعلناه في سبيله ببعضنا بعضًا.

لعلهم يدعوننا، أو يناشدوننا أن نعيد النظر في أن ما نحتاج إليه موجود بالفعل، لطالما كان كذلك، فكما قال غاندي: «هناك ما يكفي لإشباع حاجاتنا، ولكن ليس هناك ما يكفي لإشباع جشعنا».

ليس في نيتي أن أضفي طابعًا مثاليًّا على ثقافات الأشوار وغيرهم من الأصليين، فقد اشتهر الأشوار في ذاك الوقت الذي دُعينا فيه للقائهم ببراعتهم كمحاربين ذوي مهارات عالية. وعلى الرغم من أن حروبهم كانت تندلع على

مسائل الشرف لا الملكية، فلا يسعنا أن ننكر أن سمعتهم المخيفة كانت سببًا رئيسيًا في ابتعاد القبائل الأصلية المجاورة عنهم.

لعله نوع من العناية الإلهية أن النبوءة القديمة، التي حدت بهم في النهاية إلى البحث عن شركاء من الثقافة الحديثة لإنقاذ غاباتهم المطيرة، قد منحتهم في الواقع فرصة لخوض تجربة الاكتفاء من خلال علاقتهم الجديدة بالمال، وبالتعاون بدلًا من الانعزال. تلك الفرصة التي ترتكز على مبادئ الاكتفاء، شجعتهم على صنع دور جديد لأنفسهم كقادة بدلًا من محاربين، وأطراف أساسية فيما أصبح حركة عالمية. ففي الوقت الذي شاركونا نبوءتهم وحثونا على تغيير حلمنا فيه، كان من الواضح كذلك أن النبوءة التي كرموها بهذا التعاون الجديد قد غيرت حلمهم أيضًا بشكل هائل. صارت غايتهم الآن أن تظل علاقتهم النامية بالمال في خدمة مسؤولياتهم الكبرى كأوصياء محنكين وأمناء على الغابات المطيرة، وقادة إنشاء مجتمع عالمي مستدام.

كما قال بكمنستر فولر: «لدى كل فرد الهدية المثالية ليقدمها للعالم، وإذا تفرغ كل فرد منا لتقديم الهدية التي يملكها هو وحده دون سواه، سيسود العالم انسجام تام». ومثلما يقول السكان الأصليون في نبوءاتهم عن التعاون العالمي من أجل النجاة: نحن في حاجة إلى إعادة توزيع الأدوار، ولم الشمل، والترابط، ومشاركة مهاراتنا، وسوف يعم التوازن العالم بشكل طبيعي. لا أحد يريد أن يعيش أطفاله أو أطفال أطفاله في عالم يحكمه قانون «إما أنا وإما أنت»، حيث يضطرون إلى القتال من أجل البقاء. نحن نريد لهؤلاء الأطفال أن يكونوا أحرارًا، قادرين على التعبير عن أنفسهم، وأن يعيشوا في وئام وتعاون، بتقديس للحياة والموارد التي نتشاركها جميعًا. كلنا يريد عالمًا يحكمه قانون «أنا وأنت».

عندما تكون لدينا الشجاعة الكافية للتخلي عن حلمنا الذي يحركنا الآن -حلم السعي وراء تكديس المزيد- تصبح لدينا مساحة لتصور وخلق حلم جديد، حلم نحن فيه منخرطون في احترام ما لدينا والمحافظة عليه وتكريمه. في تلك المساحة الوفيرة، في تلك العلاقة الجديدة بالحياة، يحلق الانسجام والإبداع الطبيعي.

ما يلي في الفصول المقبلة هو طرق للنظر وإعادة النظر إلى العالم من حولك من عدسة الاكتفاء. ما يلي هو طرق لخلق حلم جديد وعالم جديد، باستخدام المال عملة للحب وقناة للالتزام. ما يلي هو امتيازات عيش الحياة بالاكتفاء.

9

اتخاذ موقف

أعطِ الناس نقطة يرتكزون عليها،
وسيقفون عليها فورًا.

- ***مانويل إليزالدي - الفلبين.***

منذ أكثر من ألفي عام، قال عالم الرياضيات أرخميدس: «أعطني مكانًا أقف عليه وسأحرك لك الأرض». يروق لي أن أقول بأننا حينما نتخذ موقفًا يمكننا تحريك *العالم* – عالم الأفكار، والناس الذين يعملون وفقًا لها. إن اتخاذ المواقف هو أسلوب للعيش والوجود ينهل من مكان ما بداخلك يقع في صميم هويتك. يمنحك اتخاذ الموقف أصالة وقوة ووضوحًا، تعثر به على مكانك في الكون، ويصبح لديك القدرة على تحريك العالم.

يتشابك المال تشابكًا وثيقًا مع كل جانب آخر من جوانب حياتنا، لدرجة أنه كلما اتخذنا موقفًا من شأنه أن يصنع فرقًا في حياتنا وجدنا أن له تأثيرًا تنظيميًا في علاقتنا بالمال، وكلما اتخذنا موقفًا من شأنه أن يصنع فرقًا في أموالنا، وجدنا أن له تأثيرًا تنظيميًا في كل جانب آخر من حياتنا.

في ثقافة استهلاكية عدوانية مثل ثقافتنا، حيث القيمة المالية لكل فرد وكل شيء هي التيمة المهيمنة، يتطلب الأمر بعض الشجاعة للدفاع عن شيء مختلف؛ فالاتجاه السائد لا يدعم موقفًا يدافع عن أي قيم غير مالية، أو عن أي فهم أو تفكير في مبدأ الاكتفاء، أو عن إدراك كفاية وكمال العالم من حولنا، ورؤية قيمة ما هو موجود أمامنا. يتطلب هذا النوع من المواقف جهدًا واعيًا، ولكن بمجرد أن يُتخذ الموقف، فإنه يفتح سبلًا جديدة للرؤية والوجود تفضي إلى حرية وقوة مذهلتين في أموالنا وحياتنا.

كسر جدار الصمت: من دارمابوري إلى هوليوود

في عام 1986، انتقلت في 48 ساعة فقط من لقاء مذهل بقرية نائية في الهند إلى عشاء فخم في بيفرلي هيلز لدى عودتي إلى الوطن. نبهني ذلك إلى ما يعنيه أن يكون المرء عاجزًا أمام وحش التقاليد الثقافية الهدامة بشأن المال، وما يلزم للتغلب على ذلك الوحش، بغض النظر عن هويتك أو مكانك، وأيضًا إلى قوة أن يتخذ المرء موقفًا.

في ولاية تامل نادو بجنوب الهند، في إحدى مبادرات مكافحة الجوع، طُلِبَ مني ومن بعض زملائي مقابلة مجموعة من نساء قرية في دارمابوري، وهي واحدة من أفقر المناطق في الهند. وهناك التقينا في أيكة من أشجار الليوسينا، واطلعنا على السر الرهيب، وعبء الوهن والعار والذنب الذي تحمله أولئك النساء. في تلك المنطقة كان وأد الإناث، أو قتل الفتيات حديثي الولادة أمرًا شائعًا. لم تكن للإناث قيمة تذكر في مجتمعهن، وكن يعشن حياة قاسية من العبودية. وما زاد الطين بِلَّة هو أن إنجاب فتاة كان يعني حمل عبء المهر الذي يجب على أسرتها تقديمه عند زواجها، وكان من شأن هذا أن يُفلِسَ الأسر الفقيرة، الأمر الذي كثيرًا ما حدث.

وهكذا كان الآباء والأمهات الحوامل يصلُّون من أجل أن يأتي مولودهم صبيًّا. كانت المرأة التي تلد طفلة تتعرض للضرب في أحيان كثيرة، كانت النساء أنفسهن يقتلن الطفلة الرضيعة، يخنقنها بعد الولادة مباشرة. لم يقتصر الأمر على الزوج الذي يلحق العار بامرأته لإنجابها أنثى، بل كان

الاعتقاد السائد بين النساء أيضًا أن الحياة مريعة للفتيات، وأنها ستصبح عبئًا ماليًّا على الأسرة، وأن من القسوة ترك طفلة أنثى تعيش، وأن قتلها رحمة. لم يتحدث أحد منهم علانية عن وأد البنات الرضع، لكنها كانت ممارسة مقبولة ومدعومة بهدوء من قِبَلِ رجال القرية ومن معظم نسائها.

اجتمعت نحو ست عشرة امرأة للقائي أنا وزميلاتي الأربع. كل واحدة منهن قد قتلت ابنة واحدة على الأقل، وساعدت نساء أخريات على فعل الشيء نفسه. في هذا الاجتماع السري الحميمي، تحدثت أولئك النساء لأول مرة عن التجربة الشنيعة لقتل بناتهن الرضع، وعن رغبتهن المستميتة في معالجة أنفسهن من تلك الصدمة. لقد أردن إنقاذ الأمهات الأخريات وإنقاذ بناتهن من هذا الرعب. هناك معنا، كسرت أولئك النساء من الجانب الآخر من العالم جدار الصمت الذي ظل عمرًا بأكمله قائمًا، صرن قادرات على الحداد علانية على بناتهن اللائي قُتِلن، صرخن وبكين، أجهشن بالبكاء. وبكينا معهن، ثم تعانقنا. كانت مشاهدة معاناتهن أصعب من أن تُحتَمَل.

ثم أخبرننا بأعين باكية أنهن قررن التكاتف معًا والتعهد بحفظ قيمة الحياة وقيمة الفتيات. قطعن عهدًا بوقف الممارسات المروعة بأنفسهن، والتحلي بالشجاعة الكافية لإعانة النساء الأخريات على وقفها. لقد رأين أن سلب أرواح بناتهن كان أبهظ تكلفة بكثير من دفع المهر، وأن ذلك الفعل قد كلفهن ليس فقط حياة بناتهن، بل حياتهن هن أيضًا.

قطعت النساء وعدًا بأن يضعن الحد في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة، وأن ينهين دوامة القتل إلى الأبد. سيسامحن أنفسهن، ويطلبن المغفرة من الله، ومن أرواح بناتهن المفقودات، ولن يساعدن امرأة أخرى أبدًا على قتل طفل. وإذا سمعن كلمة عن التخطيط لوأد طفلة، سيفعلن ما بوسعهن لإقناع النساء الأخريات بعدم ارتكاب الجرم.

أذهلتني اعترافاتهن، ومزقني حزنهن، وهالتني شجاعتهن. سَيَكُنَّ جيل النساء الذي يكسر جدار الصمت في هذه المنطقة، الجيل الذي يتخذ موقفًا للدفاع عن قيمته وقيمة بناته. سيكنَّ الجيل الذي يضع حدًّا لتلك العادة الدموية الرهيبة.

ما قلنه بعد ذلك مَسَّني حتى النخاع، على الرغم من أنني لم أدرك ذلك إلا بعد مرور عدة أيام. قلن إنهن ما كن ليأخذن هذه الخطوة الشجاعة من دون «آذاننا وأعيننا بالخارج». لقد أردن أن يرفعن أصواتهن ضد تلك الممارسات منذ فترة، لكنهن عجزن عن فعل ذلك من داخل ثقافة تتوقع طوال الوقت أن تختفي الفتيات الصغيرات، وأن تظل النساء صامتات، والآن شعرن بقوة عزمهن، وشهادتنا تعهدهن جعلته نهائيًا لا رجعة فيه. لقد وعدن بالتصدي لنظام المهر الساحق؛ التقليد الذي جعل حياة الأنثى عبئًا منذ الولادة. تعهدن بالبدء بالخطوات التي يعرفن أنها ستكون الأكثر صعوبة، التحدث مع الرجال.

جلست مع هؤلاء النسوة، وانغمستُ في حكاياتهن، وبدأتُ أرى كيف تم التسامح مع جرائم القتل هذه، بل ورؤيتها مقبولة. كن يعلمن بداخلهن أنها خطأ. لقد رأين كيف غير نظام المهر تصورهن عن قيمة الحياة نفسها. فقط بوضع تلك العادة التي لا جدال فيها تحت منظار التفكير والتأمل الواعي، بدأن الرحلة الطويلة لتحرير أنفسهن من قبضتها.

بعد عدة أيام وساعات عديدة من الحديث الحميمي، سألنني عما إن كانت هناك عادات ساحقة في ثقافتي. بالنظر إلى موقفنا المشترك بشأن تقديس الحياة وقيمتها، أخبرتهن باستيائي العميق من العنف الذي يظهر في وسائل الإعلام الأمريكية على جميع المستويات، وخصوصًا في التلفزيون والأفلام. قلت إنه يبدو لي أن الولايات المتحدة تنتج -دونما اكتراث- أشد أعمال العنف الترفيهي فحشًا وقذارة يمكن تخيلها، وكل ذلك باسم كسب المال. ويتم تصدير تلك المشاهد والرسائل المروعة إلى جميع أنحاء العالم، بمبادرة من عدد صغير جدًا من الأشخاص ذوي النفوذ في صناعة الترفيه في نيويورك وهوليوود. إن صانعي تلك البرامج والصور العنيفة لا يتجاوزون ألف شخص على الأرجح، بيد أن الأموال التي تؤجج هذه الصناعة طاغية، وإدمان الأرباح تقابله شهية متنامية لمشاهد العنف والدمار في مجتمعنا بأسره.

أعربن لي عن تفهمهن، وأخبرنني بدعمهن لي في الحديث عن هذا في بلدي وثقافتي. قلن لي -وهن ينظرن إلى عيني مباشرة- أن أتذكر أنهن هنا من أجلي، لتشجيعي على التحدث أمام الملأ.

وفي غضون ساعات من وصولي إلى وطني، وُضِعَ التزامي رهن الاختبار. كنت قد أسرعت بالعودة لحضور اجتماع عشاء في منزل فخم في بيفرلي هيلز، وهناك جلست إلى جوار رجل معروف بموهبته مخرجًا لسلسلة من الأفلام الممتازة باسمه. بالصدفة البحتة رأيت قبيل رحلتي إلى الهند بضعة مشاهد من فيلمه القادم، وكانت مريعة. كان الفيلم عنيفًا لدرجة بشعة، ولا يتماشى مع جودة الأفلام التي بنيت عليها حياته المهنية المحترمة. دردشنا قليلًا حول مشاريعنا الشخصية، وطرحت عليه أخيرًا السؤال الذي كان يلحُّ علي: كان هذا الفيلم العنيف بمكانة انسحاب من كافة أعماله السابقة، ولا يليق بمكانته كمخرج، فلماذا صنعه؟

قال إن السبب يتلخص في الربح السهل؛ فعلى الرغم من عدم فخره بالفيلم، لكنه عرض عليه مبلغ لا يمكن تصوره من المال مقابل استثمار بسيط جدًّا لوقته ومواهبه. كانت صفقة لا تُفوَّت. ثم إن هذا المنطق ليس جريمة أو حتى مفاجأة، خصوصًا في ثقافة هوليوود. الواقع أن ثقافة هوليوود عادة ما تحكمها مبادئ التجارة. إشكالية المحتوى المشين أو المهين أو المخزي وتأثيره في العالم ليست ببساطة موضوعًا للمناقشة في مجال صناع الأفلام، بل إن المال يسيطر على المشهد لدرجة أنه يوفر كل المبررات التي يحتاج إليها أي شخص لفعل أي شيء، حتى وإن كان شيئًا يتعارض مع نزاهته.

كنت لم أزل أفكر في النساء الهنديات اللائي تركتهن لتوي قبل ثماني وأربعين ساعة، وتعليقهن على أن حديثنا -«أعيننا وآذاننا بالخارج»- قد ساعدهن على التواصل مع ضمائرهن وشجاعتهن لبدء العيش بما يتماشى مع أعمق قيمهن. والآن وقد عدت إلى وطني، وفي خضم هذا العشاء الأنيق والحديث حول صنع الأفلام السيئة مقابل أرباح هائلة، وجدت نفسي في مواجهة قوة ثقافة المال لدينا، التي تعمينا عما تتطلبه من تطويع للضمائر.

من السهل أن نرى جنون ثقافة أخرى بموضوعية، ولكن ليس سهلًا أن نرى ثقافتنا -ثقافتنا المالية- وسلوكنا تجاه المال بنفس الموضوعية. إنها تحيط بنا وتحاصرنا، تمامًا مثلما أحاطت ثقافة هؤلاء النساء الهنديات بهن وحاصرتهن. في تلك البيئة وذاك الإطار، لم يتهمهن أحد بالجنون لقتلهن

بناتهن؛ كن يتصرفن باتساق تام مع المعتقدات الثقافية التي يعشن في كنفها، تمامًا مثلما كان هذا المخرج الموهوب يتصرف بتزامن تام مع المعتقدات الثقافية التي تقيده في عمله؛ نجمًا سينمائيًّا بارزًا يمكنه كسب ملايين الدولارات مقابل بضعة أسابيع من العمل على فيلم عنيف مبتذل.

في أثناء حديثنا، قصصت عليه ما شهدته مع النساء الهنديات، وحثثته على رؤية البديل الممكن. شاركته الالتزام الذي قطعته على نفسي الآن بالتشكيك في الافتراضات والتوجهات التي لا جدال فيها حول المال في ثقافتنا، والتي من شأنها أن تفضي إلى أفعال تحطُّ من قدر الحياة وتقلل من قيمتها. ناشدته أن يفعل الشيء نفسه. خضنا نقاشًا عميقًا حول هذا الموضوع، لكنها كانت بداية.

لا يسعني أن أعرف ما عنته تلك المحادثة بالنسبة إليه، ولكن بالنسبة إلي، كانت تلك هي اللحظة التي صار فيها الصمت الكاسح حيال ثقافة المال السامة واضحًا بشكل مفاجئ ومؤلم. حينها علمت أن كسر هذا الصمت هو الخطوة الأولى للإفلات من قبضته على حياتي، وربما على حياة الآخرين.

كسر جدار الصمت - اتخاذ موقف

إن السلطة البكماء لثقافة المال تفرض نفسها علينا جميعًا. إنها أحد أكثر أجزاء حياتنا خفاءً وتعقيدًا. نحن نعرض أنفسنا للخطر ونؤذي أنفسنا بلا توقف أحيانًا، ننحي تحفظاتنا جانبًا، ونبرر تصرفاتنا ونجعلها مقبولة، بل وحتى منطقية. نشكو ولا نشكك، نئن ونتأوه دونما اعتراض أو رفض، نشعر بأننا محاصرون وتعساء، لكننا نادرًا ما نتخذ الخطوات التي يمكن أن تحررنا.

واجهت النساء الهنديات في دارمابوري معركة دامية وشاقة في سبيل وقف جرائم وأد الإناث وإسقاط نظام المهر وتفكيكه. كان التزامًا من شأنه أن يثير سخرية العديد من النساء الأخريات لا محالة، ويجلب عواقب وخيمة من رجال القرية. لقد تصرفن بشجاعة غير مألوفة. كان موقفهن الذي اتخذنه للدفاع عن أرواح بناتهن الصغيرات بمكانة موقف للدفاع عن أنفسهن. كان

موقفهن للدفاع عن أنفسهن بمكانة موقف للدفاع عن قدسية جميع أشكال الحياة وعن كرامة الإنسان.

خلال تجربتي في جمع التبرعات، وفي ميدان العمل مع أولئك الذين يحتاجون إلى المال أو الموارد لإنجاز مهمة ما، رأيت مرة تلو المرة أن الموقف الأصيل الذي يرتكز على حقيقة الاكتفاء دائمًا ما يكون موثوقًا وداعمًا للحياة، له صداه على الدوام، ودائمًا ما يحقق نجاحًا، على الرغم من صعوبة تصديق ذلك. حينما نتخذ موقفًا يعبر عن التزامنا الروحي، فإن شجاعة القلب تمنحه سلطة. يتحول متخذ الموقف من «امتلاك وجهة نظر» إلى اكتشاف «قدرته على الرؤية»، أو قوة الرؤيا. عندما نتخذ موقفًا، يصبح بمقدورنا الوصول إلى رؤية عميقة وراسخة.

في دارمابوري، أقام موقف النساء ميدانًا جديدًا من الوضوح وقول الحق في حياتهن، وانتشرت تلك الصحوة في عائلاتهن وقراهن، ومنطقتهن وبلدتهن بأكملها. بل إن الموقف الأصيل يوفر الموارد اللازمة لتحقيقه بشكل يُعتَمد عليه، وغالبًا ما يفعل ذلك بطرق مفاجئة، وتكاد تكون غامضة. بعد اتخاذهن موقفًا وإفصاحهن عنه بصوتٍ عالٍ، وجد هؤلاء النساء فجأة حلفاء في كل مكان.

سمع زوجان –من أشهر نجوم السينما في الهند– عن حملة وقف وأد الإناث في المنطقة، وعرضا مساعدتهما. قاما بتصوير إعلان يُعرَض قبل كل فيلم بدور السينما في دارمابوري وفي جميع أنحاء ولاية تاميل نادو؛ حيث للأفلام جمهور عريض، ويبلغ تعداد سكانها خمسة وخمسين مليون نسمة. يروي هذا الإعلان باحترافية قصة ولادة طفلتهما، والفرحة والتقديس اللذين استقبلاها بهما في العالم. أظهر الفيلم مدى سعادتهما بابنتهما، وحرصهما الدؤوب على ضمان أن تحظى بأفضل تعليم ممكن، وإنجازات ابنتهما خلال تربيتهما إياها ودعمها. صور الإعلان نعمة أن يحظى المرء بابنة تساعد في تلبية احتياجات أبويها بعد تقدمهما في العمر، والقيمة المطلقة للفتيات والنساء في مجتمع الهند. عُرِض هذا الإعلان مرارًا وتكرارًا في دور

السينما والخيام، وقدم عدسة جديدة يمكن من خلالها النظر إلى قيمة الإناث ومساهمتهن في المجتمع.

ثم سِمِعَتْ مغنية شهيرة بالحملة، فألفت وسجلت أغنية تحتفي بقيمة البنات؛ مدى أهميتهن لمستقبل البلد وسلامته، وأن الفتيات هن قلب وروح كل أسرة وكل قرية. أحرزت تلك الأغنية نجاحًا ساحقًا، وذاع صيتها لدرجة أن صار الجميع يحفظون الكلمات عن ظهر قلب ويغنون معها كلما سمعوها، ويدعمون المعتقدات الجديدة بأصواتهم.

بدأ الصحفيون في التحدث عن هذه الحملة المحلية، وبدأت تلك الرسالة الجديدة تترسخ في وسائل الإعلام وفي حديث الشارع. وسرعان ما أصبح واضحًا للجميع في تلك البقعة أن الأزمنة تتغير، وأن العالم قد صار يحتفي بالفتيات والنساء باعتبارهن أعضاء مهمين وقيِّمين في المجتمع.

واليوم لم يعد أحدٌ مضطرًا إلى دفع مهر لابنته عند زواجها؛ وهي الممارسة التي سببت القدر الأكبر من الخوف من إنجاب الإناث. صارت موضع تشكيك وتحدٍّ علني، وصارت هناك حركة نشطة ومنظمة لإلغائها. صارت الفتيات يتلقين أجورًا كبيرة، ويسهمن في دخل الأسرة، وينشئن صناعات منزلية مهمة للأسرة والمجتمع. أصبحت النساء يلعبن دورًا في الحوكمة، ويترقين إلى مناصب قيادية. إن الموقف الذي اتخذته قلة من النساء منذ أكثر من اثني عشر عامًا في أيكة من أشجار الليوسينا قد غير نسيج الحياة نفسه لكل فرد في المنطقة.

«هكذا تسير الأمور دائمًا». اتضح أن تلك العبارة كذبة. كانت المهور ووأد الإناث هي الطريقة التي تسير بها الأمور فقط إن عاش الناس مستسلمين لتلك الأسطورة. النساء اللواتي حشدن الشجاعة لكسر جدار الصمت فعلن شيئًا جسورًا ومهمًّا، ومتاحًا لكل واحد منا في علاقته بالمال. كان النقاش الذي أجريته مع المخرج الشهير هو البداية لكسر جدار صمتي أنا حيال الجشع والانتهاكات في ثقافة المال لدينا، داخل هوليوود وخارجها.

استخدام صوت المال لإيصال صوتنا

في بلادنا ومجتمعاتنا وعائلاتنا وزيجاتنا وصداقاتنا، وحتى في صميم قلوبنا وعقولنا، يمكننا أن نواجه نحن أيضًا شكوكًا، بل ورفضًا لاتباع نهج مختلف في علاقتنا بالمال.

توجد طرق عديدة لكسر جدار الصمت وأخذ زمام المبادرة، ولكن التصرف المباشر في أموالنا هو الطريقة الوحيدة التي هي متاحة فورًا وشخصية وقوية لكل منا. ربما يحول بعضنا انتباههم إلى أن يكونوا أكثر سخاءً من الناحية المالية مع المنظمات التي تضطلع بالعمل الذي يريدون دعمه. وربما يبذل البعض منا جهدًا واعيًا لاستخدام أموالهم بشكل أكثر أخلاقية، فيوقفون تدفق الأموال لصالح الأشخاص والمنتجات التي تحطُّ من قدر الحياة. ربما يكرس البعض منا أنفسهم للخدمة العامة، أو يصبحون بأصواتهم دُعاة ومناصرين للإنفاق الحكومي العام المسؤول اجتماعيًا على الصحة والتعليم والأمن.

بغض النظر عن اختيارنا، فنحن نعبر عن أنفسنا بالطريقة التي ننثر بها أموالنا في العالم، ومع كل دولار تتجدد طاقة نوايانا. ترخي عقلية الندرة والتوق إلى «المزيد» قبضتها، ونبدأ باتخاذ خيارات مختلفة. يصبح المال قناةً، وسيلة للتعبير عن أسمى مُثلنا. يصبح المال عملة الحب والالتزام، التي تعبر عنك بأفضل ما يكون، بدلًا من كونه عملة استهلاكية يقودها الخواء والنقص، وإغواء الرسائل الخارجية.

إن إحدى الديناميات العظيمة للمال هي أنه يشكل أساسًا لنا، وعندما نضعه خلف التزاماتنا فإنه يصبح أساسًا لها هي أيضًا، ويجعلها قابلة للتحقيق في العالم. يمكن للمرء أن يتمنى مدارس أفضل، وبيئة نظيفة، وسلامًا عالميًا، يمكنه حتى أن يتطوع، ولكن عندما يضع أمواله خلف تلك النوايا، يصبح جادًا حقًا بشأنها. المال مترجم عظيم، يحول النوايا إلى واقع، والرؤية إلى إنجاز.

عندما تعيش بعقلية الاكتفاء وتتخذ موقفًا للدفاع عن شيء ما، تفتح قلبك وقلوب الناس في العالم من حولك. وعندما تفعل ذلك، فإنك تبني الرؤية وتصنع الواقع وتنميه بحيث تتهاوى العراقيل في النهاية. المهاتما غاندي، مارتن

لوثر كينج، إليزابيث كادي ستانتون، الأم تيريزا؛ لقد مر على التاريخ أناس لم يُنتَخَبوا أو يُعَيَّنوا أو يولدوا في السلطة، لكنهم غيَّروا مسار الأحداث البشرية بقوة موقفهم. ولَستُ أتحدث فقط عن القادة المرئيين، بل أيضًا عن أولئك الذين لا حصر لهم ممن عبَّروا عن مواقفهم بأموالهم من خلال المقاطعات أو المساهمات أو الشراء المتعمَّد لدعم قضايا المسؤولية الاجتماعية.

لا أحد يفكر في مارتن لوثر كينج كجامع تبرعات، بيد أن موقفه في الدفاع عن حقوق جميع البشر أدى إلى جمع ملايين الدولارات لصالح مجال الحقوق المدنية في هذا البلد. جمعت الأم تيريزا عشرات الملايين من الدولارات من أناس حول العالم تأثروا بها وتاقوا إلى صنع فرق، وإلى دعم ذلك بأموالهم. هذه القوة متاحة لنا جميعًا: جميع الناس، في جميع الأوقات، في جميع قطاعات المجتمع، في جميع فصول التاريخ. حتى أولئك الذين لا يملكون من المال إلا القليل قادرون على توجيه سيل المال والموارد بطرق ذات مغزى تمامًا مثل الأثرياء. إنهم بمجرد اتخاذهم موقفًا يُنشئون المنصة ويحيطونها بسياق النقاش الذي يدعو الآخرين إلى التشجع والتعبير عن آرائهم أمام الملأ.

استخدام اختياراتنا لتنظيم الحياة والمال

ما أعلمه هو أنني مررت في حياتي بأوقات ظننت فيها أني لا أملك ما يكفي من شيء ما لكي أتخذ الخطوة الأولى نحو إحداث تغيير في المخطط الأكبر للأشياء. في بعض الأحيان كان المال هو هذا «الشيء»، وفي أحيان أخرى كان الوقت، وفي بعض الأحيان كان استعدادي للإيمان بأني قادرة بذاتي على إحداث أثر.

في بداية انخراطي في التزامي بالقضاء على الجوع ظننت أنني لن أستطيع المساهمة بصورة مجدية بسبب أطفالي الثلاثة وزوجي، والعديد من العوائق العملية الأخرى. لكن عندما أنصتُّ إلى روحي حقًّا وسمحت لنفسي بتلقي نداء العالم وإدراك ما كان عليَّ المساهمة به، أطلقتُ سراح نفسي وحررتُها في سبيل تحقيق ذلك، وسمحت لهذا الهدف بتحديد مصيري. أصبح كل اختيار يخص المال –بدءًا من الاستثمار والمساهمة، وصولًا إلى

الإنفاق والادخار- نابعًا من هذا الالتزام. كان كل شيء تعبيرًا عن ذلك الالتزام الحاسم الذي قطعناه على أنفسنا. هذا لا يعني أننا لم نمر بلحظات من القلق والتحدي، ولكن بعدها -مثلما هي الحال الآن- نعود إلى التزامنا الروحي وما أردنا الدفاع عنه، ويعود كل شيء للتدفق، ونشعر بطعم الحرية.

هل تتذكر (قبل ظهور بطاقات الائتمان في حياتك) متعة أن تدخر المال لشيء تتمناه حقًّا؟ ربما في طفولتك كان هذا الشيء لعبة من اختيارك، وربما صار في وقت لاحق سيارتك الأولى، أو منزلك الأول، أو ربما كان هدية خاصة لشخص آخر. وبفضل ذلك الالتزام الواعي، كانت كل مرة تضيِّع فيها فرصة أن تنفق مالك على شيء آخر، يُمحى أي ندم على الأرجح، ويُستبدَل به حماس التزامك والرضا الناتج عن اقترابك من تحقيقه.

يعتقد معظمنا أن الحرية تعني أن تبقي خياراتك مفتوحة، أن تظلَّ حرًّا طليقًا ومتاحًا، وغالبًا ما تمنحك تلك الاستراتيجية مساحة صغيرة مؤقتة، ولكن في النهاية تصبح الخيارات المفتوحة دون حدود سجنًا لنفسها. لن يعود بإمكانك أن تختار، لن تقع أبدًا في الحب، وأبدًا لن تتزوج. لن تنال تلك الوظيفة أبدًا، ولن تكتشف أبدًا ما خُلِقتَ حقًّا لأجله، لأنك تخشى الالتزام الكامل التام.

إن عُدتَ بذهنك وتأملت تجربتك مع الحرية في حياتك، فستجد أنك لم تكن حرًّا حينما فاضلتَ بين اختيار وآخر، ولا كنت حرًّا حينما حرصتَ على عدم التورط في قرار ما، بل كنتَ حرًّا حينما عبَّرتَ عن كل ما بداخلك وخرجتَ بثقلك. كنت حرًّا عندما اخترتَ شيئًا بملء إرادتك، عندما أدركتَ أنك في المكان الذي يفترض أن تكون فيه، عندما شعرت على الأرجح بلمسة القدر؛ عندها نكون أحرارًا ومسموعين، وسعداء، وراضين بالظروف- عندما نختارها. ونحن نجلب تلك الحرية إلى علاقتنا بالمال عندما نعتنق مبدأ الاكتفاء، ونختار أن نقدِّر الموارد المتاحة، ونشعر بتدفقها في حياتنا، ونستخدمها لإحداث فرق.

إن تجربة المواءمة بين المال والروح هي تجربة متاحة لنا كل يوم، حتى في أصغر المعاملات المالية وأكثرها رتابة، أو في الخيارات الأخرى

التي نتخذها في حياتنا اليومية، والتي من شأنها أن تحررنا من قبضة المال. ظهرت تلك القوة الهائلة لاتخاذ المرء موقفًا بماله وحياته في بكين ذات يوم، في مؤتمر دولي لأشخاص هم في الغالب لا يملكون كثير مال ولا يحوزون من السلطة في العالم إلا أقل القليل: النساء.

مؤتمر نساء بكين - المال والروح والشجاعة

في عام 1995، انضممت إلى أكثر من خمسين ألف امرأة من جميع أنحاء العالم اجتمعن في بكين لحضور مؤتمر الأمم المتحدة العالمي الرابع المعني بالمرأة. كان «مؤتمر بكين النسائي» -كما أُطلِقَ عليه- حدثًا فريدًا. أذهلتني قدرة النساء من كل مكان على حشد ما يكفي من الموارد لبلوغ المؤتمر، واستخدام تلك الموارد بطريقة تمكنهن من إيصال أصواتهن إلى العالم أجمع. كان بوسع أي امرئٍ أن يشعر بالطاقة التي تنبثق من التزامهن.

في المطار، رأيت بحر النساء اللائي وصلن للتو لحضور المؤتمر، وبدا جليًّا من ملابسهن ونوع القماش والأنماط العرقية أن العديدات منهن لم يكنَّ ضمن الطبقات الثرية في بلدانهن. علمت من تجربتي في تلك البلدان أن أولئك النساء كنَّ أشخاصًا لا يملكن من المال إلا القليل، ومع ذلك قمن برحلة تكلف عدة آلاف من الدولارات إلى اجتماع كان من الواضح أنه يعني لهن العالم بأسره. كنت أعرف أن أولئك النساء لا يقدرن على تحمل تكلفتها. كانت التكلفة تعادل عامين من الأجور. وفوق ذلك كنَّ نساء من بلدان تخضع فيها المرأة لقهر شديد، ويتقاضين أجورًا زهيدة، فكيف وصلن إلى هناك إذن؟ بأي مال؟

أتت الإجابات مع قصة كل امرأة عن الموقف الذي اتخذته في حياتها. واحدة من أكثر الجلسات تأثيرًا كانت بعنوان «محكمة حقوق الإنسان»، وهي عبارة عن وقت مخصص للإدلاء بشهادات عن انتهاكات حقوق الإنسان ضد النساء، حيث صعدت امرأة تلو أخرى على منصة الشهود كما يفعلن في قاعات المحاكم هنا، وشاركن قصصهن. كانت القاعة تتسع لنحو خمسمئة شخص، وقد امتلأت عن آخرها. حالفني الحظ بالدخول. خيم الصمت على

هذا الحشد من النساء النابضات بالحياة والصوت فيما تصعد امرأة تلو أخرى وأخرى على منصة الشهود وتؤدي اليمين وتقصُّ ما تعرضت له.

كانت أول من تحدثت هي امرأة من إحدى مزارع شعب المايا في جواتيمالا. كانت صغيرة الحجم -وإن لم تكن ضئيلة- وترتدي ملابسها الجواتيمالية الجميلة الملونة. غرقت القاعة في الصمت بينما تساعدها أخواتها على الصعود إلى المنصة. كانت قد أصيبت بطريقة ما، وبدت متألمة. امتلأت عيناي بالدموع حتى قبل أن تتكلم؛ بدا واضحًا أنها بصدد البوح بأمر مهم.

أخبرتنا بصوتها الناعم، وبلغة إسبانية تترجم فوريًّا إلى الإنجليزية، أنها وزوجها لديهما أحد عشر طفلًا. ذات يوم، جاء بعض العساكر إلى مزرعتها باحثين عن زوجها وابنيها الأكبر سنًّا، الذين كانوا جزءًا من التمرد الهندي. كان ثلاثتهم مختبئين، لكنها لم تعرف أين، وأخبرت العساكر بأنها لا تعرف مكانهم. وعندها بدأ العساكر ممارسة تعذيب بطيء ودقيق؛ أولًا بقتل حيواناتها واحدًا تلو الآخر أمامها، أخذت تخبرهم مرارًا بيأس واستماتة أنها لا تعرف شيئًا، ولا تملك أي معلومات. رفضوا قبول إجابتها. قتلوا خنازيرها، ثم كلابها، ثم أبقارها وأغنامها.

عندما انتهوا من ذبح كل ماشيتها، هددوها بقتل أطفالها. بكت وصرخت بأنها لا تعرف مكان زوجها وولديها، بأنهم لم يخبروها بمكان اختبائهم لأنهم يعرفون أنها إن حاولت الكذب بشأنه سيضعها الكذب هي وبقية أفراد الأسرة في خطر أكبر. توسلت إلى الجنود أن يوقفوا القتل. لم يستجيبوا لتوسلاتها. قتلوا كل واحد من أطفالها المتبقين أمام ناظريها. كانت أمًّا مرضعة، فانتزعوا وليدها منها، وبتروا ثدييها، ثم قتلوا الرضيع. قتلوا كل كائن حي في مزرعتها. تركوا كل ما عداها ميتًا، وتركوها مشوهة بشكل مروِّع.

استمعنا لاهثين في صمت وصدمة وهي تروي مشهد الهجوم الوحشي. قالت إنها لم ترَ زوجها وابنيها مرة أخرى؛ ظلوا بين المفقودين. عانت من الصدمة والتشوه والوحدة، وبدأ جسدها يُشفى، بيد أنها أدركت أن قلبها وروحها سيستغرقان أمدًا أطول بكثير. ثم من أعماق ألمها وحزنها، بدأت تتبلور فكرة جديدة، فكرة تحمل بذرة الأمل. كان مفاد تلك الفكرة هو أن المرأة

هي مفتاح القضاء على العنف، النساء مثلها، امرأة تلو أخرى، وجميعهن معًا. صارت عازمة على إخبار النساء بقصتها، على الإعلان عن قصتها في مكان يمدها بمغزى وقوة.

سمعت عن مؤتمر بكين للمرأة –أكبر تجمع نسائي في التاريخ– وأدركت أن عليها أن تكون هناك. كانت لم تزل تمتلك مزرعتها، لذلك باعتها، باعت كل ما تملك، كل أواني الطهي والملابس الزائدة، كل شيء، ثم جمعت التبرعات واقترضت مالًا من الأفراد المتبقين من عائلتها.

جمعت مالًا يكفي بالكاد لشراء تذكرة السفر جوًّا إلى بكين. لا يكفي للإقامة في فندق أو تناول الطعام، أو حتى العودة إلى بلدها؛ لا يكفي سوى بلوغ المؤتمر والإدلاء بالشهادة. أخبرتنا بأن كل ما حدث قد حول تلك الواقعة المروعة إلى مساهمة، وأخبرتنا أيضًا بأنها قد باعت كل شيء ولم تعد تملك مالًا، لكنها تعلم أنها وإن ماتت الآن، فإن حياتها ستكون ذات قيمة، لأن النساء اللائي قطعن التزامًا ومدفوعات بالشغف سيسمعن قصتها ويستخدمنها في دفاعهن عن السلام، سيستخدمنها وسيلة للمساعدة في تفكيك قوى العنف والقمع حول العالم. استمعت تلك القاعة التي تغص بخمسمئة امرأة وغرقت في البكاء.

كانت التالية امرأة من البوسنة. في عام 1955 كانت الحرب على أشدها، وكانت إحدى أدواتها الممنهجة أن يمارس الرجال من الجيوش المعادية اغتصاب النساء و«تلقيحهن بالعدو». قبل بضعة أشهر لا أكثر، تعرضت تلك المرأة للاغتصاب. قام الجنود بتقييدها إلى أوتاد في الأرض، وقتلوا زوجها وابنها، ثم بدؤوا في اغتصابها. وعلى مدار الأيام العشرة التالية، تعرضت للاغتصاب نحو خمس عشرة مرة. وصفت كيف كانت الجريمة، بكل تفاصيلها المخيفة غير الآدمية. وصفت رجلًا بعد رجل، كل هؤلاء الرجال الممتلئين عنفًا وكراهية ممن اعتدوا عليها جنسيًّا.

وبعد أن أصبحت الآن حبلى، سحبت كل ما تملك من مال لتأتي إلى المؤتمر وتحكي قصتها. أرادت لصوتها أن يُسمَع، أن تفضح العنف وتجعله مشهودًا بطريقة ما، وأرادت استخدام المنصة نفسها لتقوم بتعهد علني. لقد أقسمت

أمام نساء المؤتمر كلهن بأنها ستربي هذا الطفل -الذي هو ابن أو ابنة ذاك العدو الشرير- بحبٍّ غير مشروط. أقسمت إنها ستحب هذا الطفل الذي أتاها من تلك الظروف المروعة، وأن تهبه حياة بعيدة عن الحرب، أن يكرس كلاهما حياته للدفاع عن السلام ومناهضة الحرب التي بررت ذلك النوع من الوحشية. أنهت شهادتها تاركة الحضور متأثرًا بعمق. كانت الكثيرات منا يذرفن الدموع، واعتقد بعضنا ألا طاقة لنا بتحمل المزيد، بيد أن المزيد أتى على أية حال.

الثالثة كانت ضحية جرائم حرق العروس[1] في الهند. احتاجت هي أيضًا إلى مساعدة في الصعود إلى منصة الشهود. كان وجهها مشوهًا لدرجة أن المرء يعجز عن تحديد مكان فمها لو لم تتحدث. كانت قد أُحرِقَت عمدًا في دلهي قبل عدة أسابيع؛ أغرقها زوجها وأمه بالكيروسين وقيداها إلى عمود بسبب نزاع حول المهر ليس إلا. هربت ولجأت إلى أسرتها. اعتنوا بها، لكن حروقها كانت شديدة، وبدا واضحًا أنها لن تعيش طويلًا. بدأت في الإجراءات القانونية ضد المعتدين عليها، ثم سمعت عن هذا المؤتمر في الصين. حينها أدركت أن هذا هو المكان الذي تنتمي إليه، وقطعت هي الرحلة الطويلة إلى الصين لتموت في المؤتمر. أخبرتنا أنها أحضرت جسدها المتفحم والمشوه إلى بكين «لأنني أدركت أني إذا متُّ هنا سيكون لموتي معنى». وقد ماتت بالفعل هناك.

أولئك النساء اللائي يعانين من ألم شديد وعقبات لا حصر لها ولا يملكن من المال إلا القليل قد أخذن كل ما يملكن، كل ذرة شجاعة وقوة، وكل قرش استطعن جمعه للوفاء بالتزامهن للعمل من أجل السلام وإنهاء الحرب والعنف. بانتهاء تلك الشهادات الثلاث، جمعنا نحن الحاضرون التبرعات وأنشأنا صندوقًا للتمويل المستقبلي لهؤلاء النساء الثلاث. بالنسبة إلى السيدة

---

(1) **حرق العروس** هو نوع من العنف الأسري يُمارَس في الهند وحولها، ويحدث عندما تُقتَل المرأة على يد زوجها أو عائلته بسبب رفض عائلتها دفع مزيد من المهر؛ تُغمَر الزوجة بالكيروسين أو الجازولين، ثم يشعل زوجها في جسدها حريقًا يؤدي إلى الموت.

من جواتيمالا، وفرنا لها مكانًا للإقامة، وعلاجًا طبيًّا لجروحها، ومالًا للعودة إلى وطنها. وبالنسبة إلى السيدة من البوسنة، أنشأنا صندوقًا تعليميًّا لطفلها، وصندوقًا طويل الأجل لتوفير كافة النفقات الأخرى لها ولطفلها. أصيبت المرأة الهندية بحروق بالغة لم تفد معها المساعدة الطبية، لكننا قدمنا لها أفضل رعاية ممكنة حتى ماتت في بكين بعد أسبوعين.

لقد وهبت هؤلاء النساء أنفسهن بالكامل وبتفانٍ تام، مالًا وروحًا من أجل هذا الالتزام، وفي المقابل لُبِّيَت احتياجاتهن وأُتِمَّت مهمتهن. كانت أصواتهن مسموعة، صارت قصصهن معروفة، كان لإسهامهن أثر في الآلاف ممن حضروا مؤتمر بكين، وآلاف الآخرين حول العالم الذي شاركناه ما رأينا وسمعنا في ذلك اليوم، فإلى جانب قوة القصص نفسها، فإن شجاعة النساء وسعة حيلتهن في حشد الموارد لإيصال أصواتهن هي بحد ذاتها شهادة على القوة التي يتمتع بها كل منا للوفاء بأعلى التزاماته وخلق فرص كي يتدفق المال منا وإلينا لدعم ذلك العمل. لم تكن مساهمتهن المالية أو مساهمتنا كبيرة من حيث المبلغ، لكنها اكتسبت قوة في خدمة التزامنا.

في بكين، رأيتُ القوة المالية التي تصبح ملك يديك بمجرد أن تتخذ موقفًا. يجمع الموقف الموارد اللازمة ليحقق نفسه، ولا تعود أنت سوى وسيلة لذلك الموقف. في حضرة أولئك النساء الاستثنائيات في بكين، اللائي أتين من بلاد الفقر المدقع، ومن حوادث هي الأشد قهرًا وتطرُّفًا، أدركت أنني والناس جميعًا من كل زمان ومكان نمتلك نفس القوة للتصرف بطريقة تخدم التزامنا الأعلى، ومن ثم نخلق الفرص كي يتدفق المال منا وإلينا لدعم ذلك العمل.

غيروا الحلم من خلال تسخير الرؤية، المال، الحياة

سواء أدركت ذلك أو لا، فأنت تُحدِثُ أثرًا كل يوم باختياراتك بشأن الطريقة التي تعيش بها وتخصص بها مواردك. إن المال «يتحدث» من خلال صوتنا؛ كل اختيار مالي تتخذه هو بمكانة تعبير قوي عن هويتك، وعما يهمك. عندما تتخذ موقفًا وتجعل أموالك تجسيدًا له، فإن هذا يقوي إحساسك بذاتك.

لست مضطرًا إلى تغيير مهنتك، أو إحداث ثورة في عملك، أو أخذ أسرتك والسفر هربًا من أي شيء أو إلى أي شيء من أجل اتخاذ موقف. أنت تعبر عن موقفك بالطريقة التي تكسب بها المال، وباختيار عمل يتوافق مع قيمك، تعبر عن موقفك بالطريقة التي تستخدم بها المال لتوفير الطعام، أو الملبس، أو المأوى، أو التعليم لعائلتك، تعبر عنه بالمال الذي تستخدمه لدعم الآخرين في مجتمعك أو خارجه، من خلال بنوك الطعام، أو ملاجئ للنساء المعنَّفَات، أو المشردين، أو الأطفال المضطربين، تعبر عنه بالمال الذي تستخدمه لتقوية إبداعك والتعبير عن نفسك، أو لتغذية عقلك بالدروس، أو الكتب، أو الموسيقى. تعبر عنه بالمال الذي تدفعه مقابل المنتجات التي تشتريها، ودعمك للشركات التي تنتجها. ربما تعبر عنه بالمال الذي تسهم به في القضايا المحلية والوطنية والعالمية التي تستحثك، والفرصة التي تتيحها للآخرين كي يحذوا حذوك. إذا كنت صاحب عمل، فقد تعبر عنه بالمال الذي تستثمره في موارد تجعل مقر عملك تجسيدًا للنزاهة، يمتلك فيه الموظفون والإدارة ما يحتاجون إليه للتعبير عن تميزهم.

كل منا لديه القدرة على ترتيب الحياة بحيث يكون الموقف الذي يتخذه بماله وحياته تجسيدًا راهنًا ومستمرًا كل يوم وكل أسبوع لقيمه الأساسية، وليس تجسيدًا قد يحدث يومًا ما، أو في السنة المقبلة، أو عندما أتقاعد، أو عندما يصبح لدي ما يكفي. تنطوي كل لحظة من كل يوم على فرص للمساهمة في التعبير عن فرديتك وإبداعك، في المساهمة في رؤيتك لنفسك، أو عائلتك، أو مجتمعك، أو مدينتك، أو العالم. عندما نشحذ اختياراتنا فيما يخص المال بهذا الوعي ونستخدم مواردنا –المال، أو الوقت، أو المواهب– لاتخاذ موقف دفاعًا عما نؤمن به، تتولد فينا الحياة، يغمرنا إحساس بالغاية حتى في أصغر التصرفات، وينفتح شعور بالقوة والطاقة في حياتنا.

مهما كانت طبيعة النداء الذي يدعوك للتصرف، فلتتخذ موقفًا. انشق بنفسك عن التيار السائد، واغتنم الفرصة التي يمتلكها كل منا لتعميق قيمنا وتقوية إصرارنا على العيش وفقًا لها والتعبير عنها. يمكن لكل فرد منا أن يدافع عن الاكتفاء أسلوبًا للحياة وأساسًا لعلاقته بالمال وبالآخرين. سواء

فعلت ذلك بدولار واحد أو بمليون دولار، سواء فلاحًا جواتيماليًّا كنت أو مزارعًا إفريقيًّا، رجلًا ذا ثروة موروثة، أو عاملة غسيل، أو محاميًا، أو عامل مصنع، أو طبيبًا، أو فنانًا، أو موظفًا، أو خبازًا، أو مصرفيًّا، لديك القوة بمالك أن تكسر جدار الصمت الذي يحمي ثقافة المال المدمرة التي تقودها الندرة، وتتخذ موقفًا للدفاع عن قيم الإنسانية الأعلى، ذلك لأننا نحن من يعطي المال قوته وغايته. فقوِّه بموقفك، مَكِّنه لأجل تغيير الحلم.

10

قوة الحديث

الكلمات لا تضع مسميات للأشياء الموجودة بالفعل. الكلمات أشبه بسكين النحات: تحرر الفكرة -الشيء- من انعدام شكلها الخارجي العام. عندما يتحدث المرء، لا تكون لغته وحدها ما تولَد، بل أيضًا الشيء نفسه الذي يتحدث عنه.

- ***حكمة إنويتية***

ذات يوم في عام 1987، غرقت البورصة في انهيار عُرِفَ باسم: «الاثنين الأسود». كنا أنا وبيل -مثلنا مثل العديد من غيرنا- قد استثمرنا استثمارًا هائلًا في سوق الأسهم، وفي غضون بضع ساعات في ذلك اليوم خسرنا ما كان بالنسبة إلينا مبلغًا مروعًا من المال. ومع انخراط الفرق الإخبارية التلفزيونية في التغطية المستمرة لتلك الأزمة المالية، كاد الخوف أن يكون ملموسًا. ساد الخوف من حدوث كساد آخر عظيم مثل الذي عاشه آباؤنا في الثلاثينيات، وقد حان الآن دورنا لنشهد فقدان أمننا المالي. كان الانهيار مرعبًا

لأولئك الذين خسروا ثروات، ومروعًا لأولئك الذين كانوا على وشك خسران وظائفهم إن أفلست الشركات أو لجأت إلى القيام بعمليات تسريح جماعي للنجاة من الأزمة الاقتصادية. مثل كثيرين آخرين، جلست أنا وبيل مذهولين أمام التلفاز، وشاهدنا الأخبار على جميع القنوات من الظهيرة حتى المساء، واستمعنا إلى لقاءات مع أناسٍ دُمِّرَت شركاتهم، وأناس تبددت ملايينهم، وقادة أعمال تجارية واقتصادية وسياسية يفصحون عن أسوأ مخاوفهم.

غمرنا الخوف، ثم تجلى شيء مختلف تمامًا. أولينا ظهورنا إلى الشاشة، وبدأنا نتحدث عن تأثير ذلك في عائلتنا. وفي أثناء كلامنا، أدركنا أن «قصة المال» كانت جزءًا من حديث كبير يدعى سوق الأسهم، وأنها أثرت في مقدار المال الذي نملكه في حياتنا. لكن ذلك الحديث لم يحدث أثرًا في علاقة كل منا بالآخر؛ كنا لم نزل نحب بعضنا، كانت حياتنا سالمة، لم يتغير أطفالنا، ما زال ثلاثتهم أشخاصًا مراعين وفاتنين في طريقهم كي يكونوا أناسًا عظماء. كانت صحتنا بخير، وشعرنا بالرضا التام عن حياتنا.

أدركنا أن الحديث العام كان يدور عن صافي الربح الذي انتقل من الأعلى إلى الأقل، وأن هذا الحديث يمكن أن يدمر حياتنا إن نحن سمحنا له بذلك؛ إذا انغمسنا فيه أو انزعجنا منه، أو قلقنا بشأنه أو خفنا. يمكن أن ندخل في دوامة كاملة، دوامة كانت تحيط بنا في كل مكان نظرنا إليه في ذاك اليوم، لكننا نظرنا إلى بعضنا بعضًا وقطعنا عهدًا –صفقة صغيرة– بأننا لن نفعل ذلك. سنستخدم الوضع في سوق الأسهم فرصة لإحصاء النعم لدينا والتواصل من جديد مع الأصول غير المادية التي كانت هي أساس وجوهر ثروتنا الحقيقية وحياتنا وفرحنا.

ليس كأننا لم نكن قلقين بشأن مستقبلنا المالي، كنا كذلك، لكن الأحداث في سوق الأسهم ذلك اليوم ساعدتنا على الوصول إلى لحظة بديعة استطعنا فيها أن نميز جمال حياتنا ونشهده بطريقة لم نقم بها منذ أمد طويل. أتذكر كم كنا متأثرين بأن ازدهارنا الحقيقي كان هو قلب عائلتنا واكتفاءها وامتلاءها، بفضل حبنا. لقد احتفلنا بهذا التقدير.

لكن الأزمة استمرت، واستمر معها الحديث الدائر في كل مكان حولنا، بغض النظر عمن تحدثت إليه، ومهما كان الزمان أو المكان، ظل الناس يتحدثون عن المخاوف والغضب، والخسارة المالية، والأحلام المحطمة. قررنا أنه نظرًا إلى أن تبدل حديثنا وانتباهنا قد وهبنا تلك اللحظة الداعمة، فسوف نشارك ذلك مع الآخرين حولنا، وننشئ حديثًا يمكّن الآخرين من فعل الشيء نفسه. كلما اتصل أحد الأصدقاء تحدثنا معه عن الغضب والخوف، ثم انتقلنا إلى الحديث «الآخر»؛ الحديث حول قيمة الحب والعلاقات التي ما زلنا ننعم بها مع أفراد أسرتنا وأصدقائنا، وحول الموارد التي لم تتبدد –ولن تتبدد أبدًا– بسبب تقلبات سوق الأسهم. بالطبع ظللنا قلقين بشأن العواقب المالية المزعجة، لكننا اتخذنا قرارًا واعيًا بألا ندع الذعر والهوس يتملكان منا.

ذكرني ذلك بالحرف الصيني الذي يعرِّف الأزمة –حسب السياق– على أنها إما «خطر» وإما «فرصة». لقد أدركنا أنه على الرغم من أن سوق الأسهم لن تتغير، فإننا عندما نترك حديث الخوف والقلق ونخلق حديثًا مختلفًا يركز على وفرة حياتنا، ينحسر الخوف وتهدأ حدته. عندما نفكر في الظروف من دون جلبة الخوف والقلق الشديدين، تفقد الأزمة قبضتها علينا، تتحول تجربة «الخطر» فعلًا إلى فرصة.

خلال الأيام والأسابيع التالية، واصلنا مع أصدقائنا هذه الممارسة المتعمدة للحديث التقديري، وركزنا على تقدير أصولنا المتمثلة في الأسرة والأصدقاء والعمل، ومنحناها انتباهنا، وعملنا على إحداث فرق في حياتنا كل يوم. لم نستعد قط المال الذي خسرناه في ذلك اليوم، لكننا سرعان ما استعدنا إحساسنا بسلامتنا وثقتنا في المستقبل. استطعنا التفكير بوضوح وهدوء خلال اجتيازنا تلك الضائقة المالية الصعبة. لاحقًا، عندما أمعنَّا النظر فيما حدث، أدركنا أن تعافينا بدأ في اللحظة التي انتقلنا فيها بحديثنا ثم بانتباهنا من الخسارة إلى الأصول الباقية، سواء مالية أو معنوية. بالنسبة إلينا، لم تستمر تجربتنا مع أزمة «الاثنين الأسود» سوى بضع ساعات من يومٍ واحد. أما أولئك الذين ظلوا عالقين في حديث الأزمة –وأولئك الذين لم يتركوه

قط– فقد استمرت تجربة الخسارة والخوف، ومع الوقت استنفدت ليس فقط احتياطياتهم المالية، بل أيضًا قوتهم العاطفية، وحتى الروحانية أحيانًا.

الحديث يبني سياق الحياة

نحن نظن أننا نعيش في العالم. نظن أننا نعيش في مجموعة من الظروف، ولكن تلك ليست الحقيقة. إننا نعيش في حديثنا عن العالم وحديثنا عن الظروف. عندما يمتلئ حديثنا بالخوف والرعب، بالانتقام والغضب والعقاب، بالغيرة والحسد والمقارنات، يصبح ذلك عالمنا الذي نسكنه. إذا فاض حديثنا بالإمكانية، بالامتنان والتقدير للأشياء التي أمامنا، يصبح ذلك عالمنا الذي نسكنه. لطالما اعتقدت أن الكلمات التي نقولها ليست سوى تعبير عن أفكارنا الداخلية. وقد علمتني التجربة أن الحقيقة أيضًا هي أن الكلمات التي نقولها تخلق أفكارنا وتجربتنا، بل وعالمنا أيضًا. إن الحديث الذي نخوضه مع أنفسنا ومع الآخرين –الأفكار التي تستحوذ على انتباهنا– له سلطة هائلة على ما نشعر به، وما نختبره، والطريقة التي نرى بها العالم في تلك اللحظة.

تتحدث الندرة من زاوية عدم الكفاية، الخواء، الخوف، الشك، الحسد، الجشع، الاكتناز، المنافسة، التشتت، الانفصال، إصدار أحكام، الكفاح، الاستحقاق، السيطرة، الانشغال، النجاة، الثروات الخارجية. في حديث الندرة نصدر أحكامًا، ونقارن وننتقد، ونصنف البشر إلى فائزين وخاسرين. نحتفل بكل ما هو زائد ويفيض، نُغرِق أنفسنا في التوق، والتوقع، وعدم الرضا. نعرِّف أنفسنا على أننا أفضل من أو أسوأ من أحدهم، وندع المال يعرِّفنا، بدلًا من أن نعرِّف أنفسنا بشكل أعمق، وأن نعبر عن ذلك التعريف من خلال المال.

أما الاكتفاء، فيتحدث من منطلق الامتنان، والرضا، والحب، والثقة، والاحترام، والمساهمة، والإيمان، والرحمة، والتكامل، والكمال، والالتزام، والقبول، والشراكة، والمسؤولية، والمرونة، والثروات الداخلية. في حديث الاكتفاء نعترف بما هو موجود ونقدر قيمته، ونبتدع طريقة لإحداث فرق به، نوطِّن أنفسنا على النزاهة والإمكانية والحيلة، نعرِّف المال الذي نملكه من خلال طاقتنا وتصميمنا.

وقد ظهر الفرق بين هذين المصطلحين وقوة تأثيرهما -التي هي ملهمة ومثيرة للقلق في الوقت نفسه- في الرد الوطني على الهجمات الإرهابية في 11 من سبتمبر / أيلول 2001. ذلك أنه عقب الهجوم على مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)، وتحطم الطائرة الرابعة في بنسلفانيا[1]، في غمار الصدمة والحزن، كانت استجابات الناس السخية والمتعاطفة بشكل استثنائي تملأ وسائل الإعلام والحديث من حولنا.

كنا نسمع القصص يومًا بعد يوم، ليس فقط عن أولئك الذين لقوا حتفهم في الهجمات، أو عن جهود الإنقاذ البطولية في ذاك اليوم، ولكن أيضًا عن المئات والآلاف الذين لم يكفُّوا عن المبادرة بكل طريقة ممكنة للتعبير عن اهتمامهم في صورة رسائل، وصلوات، وطعام، وكساء، ومال لعائلات الضحايا وعمال الإنقاذ. أتذكر ذهابي إلى بنك الدم المحلي بالقرب من منزلي في سان فرانسيسكو لأجد طابورًا ضخمًا من الناس ينتظرون التبرع بدمائهم. وبينما ننتظر في الطابور، أخذ الجميع يتحدثون بعضهم إلى بعض، وتقاسموا الصدمة والرغبة في الرد بطريقة ذات مغزى. كان كل فرد وكل حديث يدور حول كيف يمكننا جميعًا المساعدة.

بدا الأمر في تلك الأسابيع الأولى كأننا انتقلنا جميعًا إلى «أرض الصفر»[2] خاصتنا، أرض الصفر الكامنة في قلوبنا وأرواحنا. عبر الحديث العام عن أجمل القيم والسلوكيات في النماذج الملهمة لعمال الإنقاذ، ودعم العالم وحبه للشعب الأمريكي، ورغبة كل أمريكي في المساعدة، أو التبرع بالدم، أو إرسال المال. فتح الناس قلوبهم بطرق شتى، أعربوا بصدق عن امتنانهم لسلامة عائلاتهم وهم يبكون على أولئك الذين فقدوا أحباءهم، نحَّوا خلافاتهم الدينية

(1) في 11 من سبتمبر عام 2001 استولى الانتحاريون على 4 طائرات ركاب أمريكية في وقت واحد؛ ضربت طائرتان البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي، وضربت الطائرة الثالثة الواجهة الغربية لمبنى وزارة الدفاع الأمريكية، وتحطمت الطائرة الرابعة في حقل ولاية بنسلفانيا بفضل مقاومة الركاب للخاطفين، ويُعتَقد أن الخاطفين كانوا عازمين على مهاجمة مبنى الكابيتول في واشنطن العاصمة.

(2) **أرض الصفر أو «جراوند زيرو»** هي المنطقة التي شهدت أحداث 11 من سبتمبر وانهيار البرجين. (المترجمة)

جانبًا، وصلَّوا جنبًا إلى جنب في تجمعات الأديان. ظهر تعاطف وقلق مفاجئ لأولئك الذين يعانون في أفغانستان تحت وطأة الحكم القمعي للمتطرفين الدينيين، وخصوصًا النساء والأطفال الذين كانت حياتهم خاضعة لقيود صارمة. أقيمت الشعائر والسهرات على ضوء الشموع، وأحسسنا جميعًا وأدركنا أن مشاعر الجود والرحمة توحدنا.

ثم بعد مرور بضعة أسابيع، عندما بدأت حالة الصدمة والحداد الجماعية تسفر عن أزمة اقتصادية، وعن هبوط خطير في مبيعات التجزئة بشكل خاص، قام الرئيس جورج بوش في خطاب تلفزيوني بدعوة الأمريكيين إلى دعم الاقتصاد، وأن يعود كل منا لعمله، أو بالأحرى لإنفاق نقوده. صار التسوق تعبيرًا عن الوطنية، وسيلة لإخبار الإرهابيين بأنهم لا يستطيعون تدمير اقتصادنا، أو نزعتنا الاستهلاكية، أو الروح الأمريكية، أو أسلوب الحياة الأمريكي.

أتذكر أنه في الأيام التي أعقبت خطاب الرئيس، حدثت وقفة خرقاء تكاد تكون مترددة، في الحديث العام عن الحزن والجود والرحمة. بعدها بدأ الحديث يتحول رويدًا رويدًا بشيء من التحفظ حتى عاد إلى الأحداث اليومية الجديدة. وفي غضون أيام قليلة لا أكثر، كان الصحفيون وأطقم الأخبار التلفزيونية في مراكز التسوق يجرون لقاءات مع المتسوقين وكأنهم جنود مشاة على الجبهة يقاتلون دفاعًا عن هذه الوطنية الاستهلاكية الجديدة. تم الإعلان عن أرباح مبيعات التجزئة بشفافية ووضوح، مع عناوين تتناول تلك الأرقام كما لو أن شراء السلع هو مقياس التعافي العاطفي للأمة من الهجوم الإرهابي. استُبدِلت بالقصص التي تنادي باستجابة تأملية أو روحانية قصص عن الاقتصاد والأفلام الأكثر مبيعًا في عطلات نهاية الأسبوع. أصبح الأشخاص الذين تُجرى معهم اللقاءات في مراكز التسوق هم المتحدثون الرسميون المعينون من قبل وسائل الإعلام لنا جميعًا، وقالوا إن إصرارهم على التسوق وإنفاق المال إنما هدفه أن «لا نعيش في خوف».

لم يولَ اهتمام يُذكر لأولئك الذي طرحت أفكارهم أسئلة أعمق عن سلوك بلادنا في الساحة الدولية، وعن كيفية استخدام أموالنا وقوتنا لتعزيز الشراكة

والسلام مع البلدان الأخرى. ذلك الحديث الذي كاد لتوه أن يصير مسموعًا قبل خطاب الرئيس أزيح فجأة بعيدًا عن الميكروفون. وكما هو متوقع، انتقل انتباه الجمهور من المأساة والمشاركة وإعادة النظر إلى الأمور إلى الإنفاق الاستهلاكي والاستحواذ. بدأ حديث دفاعي متمرد جديد، وكان المال مركزه.

صار العلم الأمريكي الآن ظاهرًا في كل شكل تسويقي يمكن تصوره، من الهواتف المحمولة إلى الملابس الداخلية، ومن مصدَّات السيارات إلى معلبات المواد الغذائية. كنت في كندا ألقي محاضرة، ولدى عودتي إلى الولايات المتحدة، وبينما أعبر الحدود، أتذكر أني رأيت لوحة إعلانات ضخمة للعلم، التي عادة ما تمنحني شعورًا بالفخر، لكن في هذه الصورة كان العلم على شكل حقيبة تسوق عملاقة مكتوب عليها عبارة «America Open for Business».

أصبح ذلك هو الحديث الجديد، الذي تحولت فيه القيم الأمريكية من سمات المواطنة والطابع الشخصي إلى الإنفاق الاستهلاكي وعلم الاقتصاد، من قيم الإنسان إلى قيم المستهلك. كان توقيت هذا الترويج للنزعة الاستهلاكية كنوع من الوطنية غير لائق البتة، ولا كانت لائقة الطريقة التي قاطع بها الأمة فجأة في حدادها. في الوقت الذي كانت الأماكن التي شهدت الهجمات حطامًا وأنقاضًا –واعتُقِدَ أن ما يقرب من أربعة آلاف شخص قد ماتوا ولم تُستَرد جثثهم بعد– تحول حديثنا الوطني إلى إنفاق الأموال كوسيلة لحفظ ماء الوجه وإنقاذ الاقتصاد والأمة. كان ذلك تأكيدًا في الواقع لبعض القوالب النمطية التي عادة ما تُلصَق بالأمريكيين، وإسرافهم القبيح في الاستهلاك المادي الضحل، تلك القوالب التي استخدمها الإرهابيون لتبرير كراهيتهم.

لست أعارض شراء الأشياء. لا أعارض الأشخاص الذين يديرون أعمالًا، أو من يعملون في مبيعات التجزئة، إنه جزء لا يتجزأ من حياتنا، لكنه ليس *هويتنا*، فذلك ليس بالشيء الذي يجعل المرء عظيمًا أو الأمة عظيمة، لن يشفي الأمة من هجوم وحشي أو مأساة راحت ضحيتها آلاف الأرواح، لن ينقذ حتى الاقتصاد الذي يدمر نفسه ويعتمد على نمو جشع وغير مستدام، ولن يحظى باحترام الناس والدول الأقل استهلاكًا حول العالم.

إن كان لنا أن ننظر إلى ذاك الحديث الوطني على أنه مرآة لعلاقتنا بالمال، فسوف نرى أنه في وقت الأزمة كانت استجابتنا الطبيعية تعبيرًا عن الاكتفاء؛ أصبحنا فجأة كلنا متحدين، كان لدينا جميعًا ما يكفي لنشارك به ويزيد، ما يكفي من المال والدم. كانت قلوبنا منفتحة، أتى الناس من كل مكان للعمل معًا في تعاون. بادرت الدولة والعالم للمساعدة والمداواة. لقد خلق الحديث عالم «أنا وأنت»، العالم الذي دعم وعبر عن هذا النوع من العلاقة السخية المثمرة مع المال.

ثم حدث التحول في الحديث الوطني، ووضع المخاوف الاقتصادية والإنفاق والاستحواذ في المركز، ولم تلبث أن أحكمت عقلية الندرة قبضتها علينا. تخللت الحديث العام كل الأفكار القائلة بأن ليس هناك ما يكفي، وأن المزيد أفضل، وأن هكذا تسير الأمور دائمًا. تلاشى عالم «أنا وأنت»، حل محله عالم «إما أنا وإما أنت».

أصبح الخوف من الندرة –عدم كفاية النشاط الاقتصادي، وعدم كفاية الاحترام الذي نناله كقوة عظمى عالمية، وعدم كفاية الأمن الداخلي–... أصبح هو المسوغ لاستخدامنا المال بشكل دفاعي يشوبه الخوف والتهور كعرض واضح للقوة الاقتصادية والعسكرة والوحدة السياسية الوطنية. هذا هو الحديث الذي أشعل الحماس تجاه الإتيان باستجابة عسكرية عدوانية، وأحبط أولئك الذين سعوا إلى أخذ خطوات أكثر جدوى من خلال الشراكات الدبلوماسية والإنسانية. هذا هو الحديث الذي صنف البلدان المجاورة إلى «معنا» أو «ضدنا»، ولم يترك مجالًا للمعارضة المنطقية، وهو الذي فاقم الخوف ومطالب الانتقام من «محور الشر» غير الواضح. هذا هو الحديث الذي صُمِّمَ ليكون توطئة للحرب.

عندما مررت عبر الحدود من كندا ورأيت ذلك العلم على شكل حقيبة التسوق، استأتُ بشدة، لدرجة أنني قررت أن أكتب تعليقًا عليه وأنشره فور وصولي إلى المنزل. في الأيام التي تلك، وبينما ساد هوس التسوق وحل الترويج للنزعة الاستهلاكية محل الحديث الأعمق والأكثر هدوءًا للقيم الإنسانية، شعرت بحزن وإحباط شديدين خلال كتابتي المقالة، لدرجة أنني

لم أستطع إكمالها قط. شلتني قوة ذلك الحديث المنساق وراء الندرة. كانت أسطورة «هكذا تسير الأمور دائمًا» هي القشة التي قصمت ظهر البعير. أتذكر شعوري باليأس من أن أُسمَع. واستسلمت.

في ذلك الوقت كنت على موعد مع اثني عشر زميلًا من مجموعة تدعى: Turning Tide Coalition، وهي مجموعة معنية بالحوار من النشطاء المحترمين الذين قادوا أو يقودون المنظمات والحركات الملتزمة بإيجاد طريقة عادلة ومزدهرة ومستدامة للحياة. كان من المقرر أن نلتقي معًا مدة يومين، وعندما فعلنا، كان ذلك بمكانة منشط بالنسبة إليَّ وإلينا جميعًا.

اعترفنا بالتحول المُحبِط في الحديث الوطني من الجود والرحمة إلى الخوف والشك والغضب والانتقام والحرب، وقررنا أن نفعل ما بوسعنا لإعادة الحديث إلى بؤرة أكثر روحانية. من بين الردود جاء هذا الرد البسيط: لقد بدأنا سلسلة من الاتصالات الإلكترونية ندعو فيها الناس لمعاودة التواصل مع تلك الجوانب الأسمى في أنفسهم والآخرين، بدلًا من الضياع في الخوف والنزعة الاستهلاكية المضللة. أشارت بعض الرسائل مباشرةً إلى القضايا الخطيرة التي تواجه الأمة، والاعتبارات التي من شأنها أن تخلق استجابات أكثر فعالية بدلًا من الدعوة المتهورة لحمل السلاح. مع اقتراب عطلة كانون الأول (ديسمبر)، أعلنَّا أيضًا أن الناس الذين نعرفهم قد اشتركوا فيما يمكن تسميته بـ: «النقلة النوعية للهدايا». كانوا ينتقلون من إنفاق المال على الهدايا إلى التبرع بالمال، أو قضاء وقت أكبر مع الناس، ومن إبداء لفتات روتينية إلى التعبير عن روابط أعمق.

أرسلنا الرسائل الإلكترونية والخطابات إلى قوائم معارفنا من الأصدقاء، والزملاء، والمنظمات، وغيرهم، ودعوناهم إلى تمريرها وإضافة بعض الرسائل التي تخصهم من أجل استحضار هذه العواطف الهادئة المراعية، التي لا تستهدف ربحًا في الحديث العام. أنشأنا موقعًا إلكترونيًا حيث يمكن للناس مشاركة قصصهم وأفكارهم بخصوص «نقلة الهدايا».

في عملية صياغة الرسائل نفسها شعرنا بحماسنا يتجدد. وعندما بدأت الرسائل الإلكترونية تصل إلى الآخرين، وتواصلنا مع المئات، ثم الآلاف من

الأشخاص، اتضح أن كمًّا هائلًا من الناس كانوا يتوقون إلى معاودة الانضمام إلى حديث الاكتفاء والترابط والمشاركة الذي كان يتسع ويتعمق مع كل صوت جديد.

كانت كل رسالة دليلًا دامغًا على أنه مهما كانت الظروف والحديث، فإن هناك دائمًا توقًا كامنًا إلى الترابط والاكتفاء. كانت السرعة المذهلة لحملة الرسائل الإلكترونية بمكانة تذكير بوجود ما يسمى بـ: «التيار الخفي» للناس الذين يفكرون ويرون ويتحدثون من سياق الاكتفاء. يريدون أن يروا أموالهم الضريبية ونفقاتهم ومساعداتهم الإنسانية مُستَثمَرة في طرق تعزز العيش المستدام والسلام العالمي والمساواة، وليس في النضوب والانتقام، والتصعيدات العسكرية. لقد أعادوا تذكيري بمدى أهمية أن نرفع صوتنا، نحن الطافين على سطح، ذاك التيار الخفي، من أجل تجديد حديث الاكتفاء ودعوة الآخرين لفعل ذلك.

هذا الحدث العصيب في التاريخ –والحرب التي تلته– قد سلط الضوء على العديد من الأشياء، بما فيها علاقتنا بالمال، سواء أمة كنا أو فُرادَى. إن الخوف من عدم امتلاك ما يكفي من النفط هو الدافع وراء قدر كبير من سياستنا الوطنية واستراتيجيتنا العسكرية في الشرق الأوسط. يبدو أن أمتنا على أهبة الاستعداد والتجهز لشن حرب من أجل المصالح النفطية –إلى حد التضحية بأرواح الأبرياء– أكثر من استعدادنا لاتخاذ خطوات هادفة من أجل تقليص استخدامنا الوقود الأحفوري واعتمادنا على النفط الأجنبي. لقد جردت أمريكا معظم العالم من إنسانيته بسبب ذلك الظمأ الذي لا يرتوي إلى المزيد، لكن لهذا النهج عواقب وخيمة. لقد حان الوقت لخوض حديث صادق ومحاسبة النفس، بعد أن رأينا الثمن الحقيقي للنهم الاستهلاكي الوطني وسمعتنا كمستهلكين متعجرفين وشرهين في أعين غالبية أفراد المجتمع العالمي. بوسعنا أن نتخذ موقفًا، ونغير الحلم، وننقل الحديث إلى بؤرة «الكفاية».

أقضي معظم ساعات يومي في أحاديث حول المال. وعلى الرغم من أن المشروعات والميزانيات غالبًا ما تكون على نطاق عالمي، فإن أغلب تلك الأحاديث تحاكي نوع النقاشات التي نخوضها يوميًا حول المال -اللوجستيات- تحديد المبلغ اللازم لإنجاز مهمة ما، ومن أين سيأتي، ومن سيديره، وكيف سيُستخدَم تحديدًا لإتمام المهمة. بقدر ما يبدو الأمر عاديًا، فإن تلك الأسئلة والأحاديث قد تقودنا إلى أعمق الحقائق والأساطير والأكاذيب الهشة التي نبوح بها عن المال، وعن علاقتنا به.

خلال فترة انهيار سوق الأسهم في عام 2003، بدأت بعض من أغنى المؤسسات في أمريكا تقلص المِنَح المُقَدَّمة إلى العديد من الوكالات والمنظمات التي تقوم بأعمال حيوية في برامج دعم الأطفال والأسر، والبيئة، والصحة العامة، والتعليم، والسلامة. في أحد الأسابيع صارت غرفة معيشتي أشبه بباب دوَّار يمر عبره ذهابًا وإيابًا موظفو جمع الأموال والتنمية من وكالة تلو الأخرى -منظمات محترمة وناجحة- للتشاور بشأن أزمات التمويل المفاجئة والمحبطة.

كانت المؤسسات في المجتمع الخيري متوترة -لأسباب مفهومة- بشأن الاقتصاد وهبوط العائد على محافظها الاستثمارية. ومع ذلك، كانت المؤسسات في كثير من الأحيان قوية من الناحية المالية بملايين، بل بمئات الملايين من الدولارات أو أكثر، واستمرت في توفير أساس ثابت للعمليات والمِنَح. كان تقليص المنح إجراءً احترازيًا، وكان لذلك التقليص تأثير مدمر في الوكالات غير الربحية وقدرتها على مواصلة عملها المهم هنا وفي العالم أجمع.

في الأشهر التالية، غيرت الوكالات المتعثرة حديثها للتركيز على طرق تحقيق المزيد بموارد أقل. وفي الوقت نفسه، بدأت بعض المؤسسات تلقي نظرة أعمق على الأولويات التي تخدمها التقليصات. هل كان التزامهم الأعلى هو لأهداف مالية طموحة حتى لو كانت تلك الأهداف تتطلب تقليص المنح للأعمال المهمة؟ أو في وقت كهذا، هل كان الأنسب دعم العمل الذي يمثل

المهام الخيرية المُعلَنَة للمؤسسة ومواءمة قرارات إدارة الأموال الداخلية مع توقعاتها بشكل مسؤول للوفاء بهذا الالتزام؟ أسفر هذا الحديث عن أحاديث أخرى حول طبيعة استثمارات المؤسسة، وما إذا كانت محفظتهم تمثل تجسيدًا صادقًا لقيم مؤسستهم. هل من المناسب الاستثمار في صناعة التبغ والربح منها مثلًا في حين أن مهمة المؤسسة تدور حول الصحة العامة والمجتمعية؟

كانت عملية الحديث عن تلك المسائل -بالنسبة إلى كلا الطرفين- فرصة لمحاسبة النفس، ودعوة لتحري الصدق والوضوح بشأن الدوافع والنوايا والأولويات والالتزامات. كانت بمكانة دعوة لتجاهل حديث الندرة، لتجاهل المخاوف وردود الأفعال الحمائية التي تتطلبها، والانتقال بدلًا من ذلك إلى حديث الاكتفاء، اليقين بأن هناك ما يكفي، وأننا كافون لمواجهة التحدي.

حرر الحديث عن الاكتفاء موضوع المال، لدرجة صار معها ممكنًا أن تظهر سمات الروح على الساحة. كانت جهودنا موجهة إلى الاستماع ليس فقط لبعضنا بعضًا، بل أيضًا لعظمة كل فرد منا، تلك العظمة التي تجلت بالمال. يمكننا مراقبة أنفسنا والاستماع إلى الطريقة التي نؤطِّرُ بها أحاديثنا وقراراتنا بشأن المال. يمكننا أن نسأل أنفسنا: من نريد أن نكون في اللحظة الراهنة وبأموالنا؟ من ينبغي لنا أن نكون كي نعود بأكبر قدر من النفع لمعظم الناس؟

كان حديث الاكتفاء موجودًا في صميم كل قصة نجاح شهدتها، سواء في قرية مناضلة في السنغال، أو في كفاح واختيارات الأشخاص القريبين من الوطن. عندما غير «السبعة العظام» الحديث في قريتهم من الهزيمة والرحيل إلى الأفكار الإبداعية لزراعة الأرض، كان أول ما أزهر هو الإحساس بالإمكانات والقدرة، ومنه نمت الاستراتيجيات والعمل الحازم، والنجاح في نهاية المطاف. كثيرًا ما يخبرني الناجون من الطلاق أو الكوارث الشخصية والمالية الأخرى الذين واصلوا بناء حياة مزدهرة أن نقطة تحولهم جاءت عندما تمكنوا من تحويل انتباههم وحديثهم بعيدًا عن الألم والفقدان، وبدؤوا التركيز على مواردهم الداخلية، والحديث بجدية عن الاحتمالات.

يشاركنا قداسة الدالاي لاما في كتابه «أخلاقيات الألفية الجديدة» حكمة الفيلسوف الهندي شانتيديفا، الذي قال ذات مرة إنه في حين «أن لا أمل لنا في العثور على ما يكفي من الجلد لتغطية الأرض حتى لا نخز أقدامنا في شوكة أبدًا، فنحن في الواقع لسنا في حاجة إلى ذلك؛ يكفينا أن نغطي باطن أقدامنا».

لا يسعنا دائمًا تغيير الظروف التي تحيط بنا، ولكن يمكننا اختيار الحديث الذي نخوضه عنها. في عالم مملوء بالأشواك، حيث تسيطر ثقافة «*لا يوجد ما يكفي*»، و«*المزيد أفضل*»، و«*هكذا تسير الأمور دائمًا*» على الحديث، لا نملك خيارًا سوى السير في ذلك العالم، لكن يمكننا أن نغلف أقدامنا بالجلود -إن جاز التعبير-. يمكننا من دون إنكار أو تجاهل للإخفاقات أن نحول انتباهنا إلى تلك الجوانب من الحياة حيث ننمو ونزدهر، وأن نجعل ذلك الحديث سياقًا لرحلتنا. يمكننا أن نختار كلماتنا، وأن ننشئ «أقوالًا مأثورة» جديدة تصحح علاقتنا بالمال.

كان الأصعب بالنسبة إليَّ هو «الأقوال المأثورة» التي تخص ندرة المال في حياتي، الجُمَل والتراكيب المغروسة في منظومة الإيمان التي اعتنقتها على مر السنين دون حتى أن أدرك، والتي تؤثر في حياتي مع المال. كان تمرينًا قويًّا -وليس سهلًا على الدوام- أن أواجه تلك العبارات، وأن أعيد النظر في قيمتها، وأن أعيد كتابتها لتصبح أكثر صدقًا وأكثر ترحيبًا بالتغيير العميق.

يعتبر المال مسألة شائكة بالنسبة إلى قضايا المرأة أينما نظرت. لقد نشأتُ في زمن وفي عائلة تسود فيهما التوقعات بأن الرجال هم من يكسبون المال، وأن لديهم تلك السلطة الخاصة التي تفتقر إليها النساء. كانت المرأة المستقلة ماديًّا في خمسينيات القرن الماضي هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة. وعلى الرغم من أن ذلك قد صار أمرًا شائعًا اليوم، فإنه لم يزل يبدو استثناءً بالنسبة إلى أبناء جيلي، ولم يزل يدهشنا قليلًا.

لدى الفتيات اليوم آراء مستوحاة من تجربتهن الخاصة حول قوة كسب العيش، القوة التي رأينها لدى أقرانهن ومعارفهن من النساء. إنهن لسن غريبات عن فكرة كسب المال وإدارته، بيد أن ثقافتنا لم تزل تفرض معايير

مختلفة في الأحاديث عن المال في حياة كل من الرجل والمرأة. السؤال الذي يطرح نفسه سرًّا وعلانية هو: ما الذي ضحت به المرأة –الزواج؟ أم الأسرة؟ أم الأطفال؟ أم التربية المسؤولة؟ أم منظومة القيم؟– مقابل تحقيق نجاحها المالي؟ من المنطقي أن تُطرَح على أي فرد أسئلة حول اختياراته التي اختارها بشأن المال، لكن حقيقة أن النساء هن من يخضعن وحدهن لتلك الرقابة دونًا عن الرجال تشوه علاقتهن بالمال، وعلاقتهن بالرجال فيما يتعلق بمسألة المال. وتظهر عواقب ذلك في تفاصيل التفاعلات اليومية.

الواقع أنني أعهد إلى زوجي في حياتي الخاصة بالمهام العملية والقرارات التي تخص المال في عائلتنا، وأحاول أن أنأى بنفسي عنها. السبب في هذا ليس متعلقًا بحكمة زوجي في الأمور المالية بقدر ما هو متعلق بالطريقة التي أعفيت بها نفسي من ذلك التفاعل مع المال وتفاعلاتي معه بخصوص المال. يمكنني تبرير ذلك بادعاء أنه أفضل مني في ذلك لا أكثر، أو أن تلك هي الطريقة التي نتقاسم بها الواجبات المنزلية، ولكن الحقيقة هي أني أعلم أن هنالك أبعادًا عاطفية لهذا الأمر لا تزال غير مُعلَنة وغير مفهومة.

كانت المفاجأة الكبرى حين قدمت أول مساهمة نقدية على الإطلاق، والتي كانت بمكانة التزام تنويري واعٍ بالنسبة إلي. حدث ذلك في وقت كان فيه بيل يجني قدرًا جيدًا من المال، وكنا ميسوري الحال. لم تكن خبرتي في مجال جمع التبرعات قد اكتملت بعد، لكني أخذت على عاتقي مسؤولية تنسيق فعالية صغيرة لجمع التبرعات من أجل مشروع مكافحة الجوع. قمنا بدعوة نحو أربعين شخصًا، وترأس الاجتماع رجل أعمال محترم يدعى ليونارد. بعد أن تناولنا القضايا المعنية بخطة جمع الأموال، حانت اللحظة التي علمت فيها أن عليَّ الآن أن أطلب المال من المساهمين، فأشرت إلى ليونارد. وفوجئتُ حينما طلب مني أن أجلس وأنضم إلى مجموعة المساهمين.

بدأ ليونارد توزيع بطاقات التبرع. فكرت في الجهد الذي بذلته لوضع تصاميمها، ومدى جودتها، وخلوها من الأخطاء الإملائية! ثم وصلت سلة الأقلام الصغيرة، وبها كل أقلام الرصاص تلك التي شحذتها لتكفي الجميع – كان كل شيء يسير بسلاسة، وشعرت بارتياح غامر! ثم ناولني ليونارد نموذج

التبرع، وانتابني بعض الذهول. لقد كنت أمًّا شابة بعد كل شيء، وأشعر بهذا الالتزام المذهل تجاه مشروع مكافحة الجوع، لكني لم أكن أتقاضى مالًا يذكر، ولم أرَ نفسي ثرية بحال.

كان لدي في المنزل مصروف مخصص لنفقات البقالة والمعيشة والروضة، ولكن بالنسبة إلى إنفاقي الشخصي، كانت حصتي صغيرة إلى حد بعيد بالأساس، وقد شعرت أنه لا يحق لي أن أقدم تبرعًا من هذا المال. كان ذلك مال العائلة –وليس مالي وحدي– ولم أشعر بالحرية في أن أقطع التزامًا به. لكني رغبت من صميم روحي في التبرع بمبلغ 2000 دولار. وبينما كنت أخط هذا الرقم على بطاقة التبرعات، غمرني شعور عظيم – نعم، كان ذلك إسرافًا، لكنه كان أيضًا تصريحًا حقيقيًّا مني بشأن التزامي، وسوف أضطر فقط إلى إعادة ترتيب شؤون الأسرة والالتزامات المالية الأخرى للوفاء بذلك. لذا غمرني هذا الشعور المفاجئ بالبهجة الخالصة والقوة عندما وقعت بطاقة ألفي دولار ومررتها. كانت تلك هي النقطة التي قررت فيها اتخاذ موقف شخصي جدًّا مع المال. كنت أعلم أننا سنهتدي إلى طريقة للوفاء بهذا التبرع.

ركبت سيارتي للعودة إلى المنزل، ولم أكد أعبر الطريق حتى داهمتني حالة من الذعر التام. ما الذي فعلته؟! لم تكن لدي فكرة كيف سأحصل على هذا القدر من المال. وما عساي أقوله لزوجي؟ شعرت بأنني تخطيت الحدود. كيف عساي أدافع عن اختياري برهن أموالنا هكذا دون مشاورته أولًا؟ أصبحت واعية تمامًا بمشاعري التي كانت مزيجًا من العجز –نوع من الإذعان الطفولي لرجل المنزل– والضيق والقلق بشأن موضوع المال هذا، وكيف سأبرر نفسي لزوجي، وكيف سيكون رد فعله. كما تبين لاحقًا، صار بيل داعمًا لعملي في جمع التبرعات، ولتحمل التزامات أعمق بموارد عائلتنا. لكن قبل أن أعرف ذلك، كان قلقي حقيقيًّا.

هذه الواقعة الصغيرة تبدو عادية جدًّا، لكن حديثنا عن المال في ذلك الوقت كان محمَّلًا بالأقوال المأثورة لكلينا، التي كانت بالنسبة إليَّ تعبر عن تراث من الانفكاك والتبعية، وبالنسبة إليه تعبر عن تسليم تقليدي بالإدارة والسيطرة. لا تزال دينامية السلطة التي يتمتع بها الجنسان تجاه المال تلعب

دورًا بين الرجال والنساء في كل مكان، في مختلف أنحاء العالم، إنه افتراض لا جدال فيه، قاعدة نتجنب التشكيك فيها أو تحديها لأننا نخشى العواقب.

تبذل النساء في جميع أنحاء العالم جهودًا هائلة: في رعاية الأطفال، والطهو، وإطعام الأسرة، وإدارة شؤون المنزل، فضلًا على شغل وظائف مُنهِكَة ومكلفة. إن المرأة -لا سيما في بلدان العالم النامي- تساهم بجهود مكثفة لا تخضع للقياس -لا يُعتَرَف بها أبدًا- ولا تُكافأ بالمال، ولم تُعتَبَر قط جزءًا من الاقتصاد. في إفريقيا السوداء وحدها، 85 بالمئة من المزارعين هم من النساء، لكن عملهن غير معترف به، ولا يتقاضين مقابله أي أجر نقدي.

أما في البلدان المتقدمة، فإن أوجه عدم المساواة بين الجنسين فيما يخص المال تظهر في مجال العمل بشكل صادم وسافر. يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة إلى تسويات الطلاق، وموقف المجتمع تجاه الأعمال التقليدية التي تؤديها النساء، مثل التمريض والتدريس، ومدى قلة الأجور التي تتقاضاها صاحبات تلك الوظائف، على الرغم من الدور الحاسم الذي يلعبنه في ثقافتنا. تظهر في نقص تمويل المنظمات التي تعتني بالناس، في حين تتمتع الأنشطة الصناعية والعسكرية بفرط التمويل.

تظهر العلاقة المشوهة بين المرأة والمال بنسبة دراماتيكية في جميع أنحاء العالم، لكنه يبدأ من منازلنا، من صميم عائلاتنا، يبدأ في قلوبنا، حيث يقود العجز أو الاستحقاق مشاعرنا تجاه المال. وحتى يحين الوقت وتتحل تلك العقد العميقة المتعلقة بالمال -بين كل امرأة وكل رجل، وبين جميع النساء وجميع الرجال- سيظل المال في بعض الأحيان منطقة عمياء، وفي أحيان أخرى نقطة نزاع في علاقتنا بالمال وببعضنا بعضًا، بداية من علاقاتنا الأكثر حميمية، وصولًا إلى مجالات الحياة والعمل والسياسة العامة.

لدينا جميعًا أقوال مأثورة متأصلة في معتقداتنا ورؤيتنا للعالم. بإمكاننا أن نعيد كتابتها، وأن ننقح استجاباتنا بشكل واعٍ كي تشمل الإلهام الذي نحتاج إليه لموازنة أنفسنا فيما يتعلق بالمال.

المال كالمياه؛ يمكنه أن يكون مجرى يصب في نهر الالتزام، يمكنه أن يكون عملة للحب.

يسير المال تجاه أعلى التزاماتنا، فيغذي العالم ويغذينا.

المال يقدِّر ما تقدِّره أنت.

عندما تكرِّس ما لديك لصنع فرق، ينهمر عليك المزيد.

التعاون هو مفتاح الازدهار.

الوفرة الحقيقية تأتي من الاكتفاء، وليس الزيادة.

المال هو سفير نوايانا. إذا استخدمناه بنزاهة، فإنه يتكفَّل بنشرها.

حدد المسار؛ تحمل مسؤولية المسلك الذي يتخذه مالك في العالم.

دع روحك ترشد مالك، ودع مالك يعبر عن روحك.

استكشف الأصول التي لديك؛ ليس المال فحسب، بل أيضًا شخصيتك، وقدراتك، وعلاقاتك، وغيرها من الموارد غير المالية.

كل منا لديه القدرة على تبديل وتغيير وصنع الأحاديث التي تشكِّل ظروفنا. إن أذرع التحكم في الحديث وقنواته بيدنا نحن، ويمكننا استخدامها كيفما نشاء. عندما نستمع ونتحدث ونستجيب من منطلق الاكتفاء نكتسب حرية جديدة، وسلطة في علاقتنا بالمال والحياة.

11

خلق إرث من الكفاية

الحياة التي تعيشها هي إرثك الذي تتركه.

كانت والدتي تحتضر. كانت تبلغ من العمر سبعة وثمانين عامًا عندما شَخَّص الأطباء إصابتها بالسرطان في شهر مايو. قالوا إنها لن تعيش أكثر من بضعة أشهر، وكانت تعلم أنهم محقون. قررت أن تقضي ما تبقى لها من وقت في عيش اللحظة، وفي تقدير منزلها وحديقتها، وعائلتها، وكل فرد ومكان مألوف ومحبوب في حياتها.

عشنا نحن -أبناؤها البالغون الأربعة- على بعد مسافات متفاوتة من منزلها في بالم سبرنجز، وكنا نزورها كثيرًا. تناوبنا جميعًا على البقاء برفقتها، ولكني قررت أخيرًا ومع مرور الوقت أن أذهب وأبقى معها فترة أطول، لمساعدتها في آخر أيام حياتها. لقد رأيت في انتظار الموت فرصة فريدة لي ولأمي ولأسرتنا لإنشاء علاقة مع بعضنا بعضًا أعمق من أي وقت مضى. قبل سنوات عديدة، في عشية عيد ميلادي الثالث عشر، توفي والدي فجأة إثر نوبة قلبية في أثناء نومه. لم يكن مريضًا أو عليلًا، وكان لم يزل بعد

في الحادية والخمسين من عمره. لكننا ذات ليلة ذهبنا جميعًا إلى فرشنا، وفي الصباح التالي استيقظنا جميعًا، ولم يفعل هو. كانت صدمة رهيبة وخسارة مؤلمة لنا جميعًا.

لذا فإن معرفتي المسبقة والكاملة بأن باستطاعتي المشاركة في الأسابيع والأشهر الأخيرة من حياة والدتي كان بمكانة نعمة لي. كانت فرصة لتعميق خبرتي بمعنى الحياة نفسه، وبالموت، ليس فقط كخسارة مفاجئة، وإنما أيضًا كنهاية تقترب ومن شأنها أن تكثف وتشحذ تجربة أن نكون أحياء.

في الأيام والأسابيع التي سبقت وفاتها، تحدثنا ساعات عن الحياة، وعن حياتها. فكرنا مليًّا في مدى الثراء الذي كانت عليه حياتها، وكيف هو مهم في نهاية حياة المرء أن يحصي النعم والعطايا، والألم، والمعاناة، وخيبات الألم، والندم، والأخطاء. تلك الذكريات والجروح المؤلمة التي تبقى دائمًا معنا مهما مرت السنون، والتي يسهل استدعاؤها من دون جهد يذكر. ومع ذلك، فإن النعم، والإنجازات، والنجاحات، ولحظات الفخر، كانت هي الأشياء التي أرادت حقًّا أن تمضي بعض الوقت معها. لذلك خصصنا أسبوعًا من أجل ذلك فحسب. أرادت أن تنهي حياتها بولوج ذاكرتها واستحضار أكبر قدر ممكن من تجاربها، تلك التي احتفظت بها بعيدًا كما التاريخ في غمار انشغالها بالحياة.

ذات يوم بدأنا ننتبه إلى حياتها مع المال. كانت لم تزل قادرة على الجلوس في المقعد في تلك المرحلة، ولم يزل بإمكانها المشي متكئة على عكازها. كنا نجلس في فناء منزلها في يوم مشمس بهيج، ونستمتع بهبات النسيم وروائح الحديقة المنعشة على مرأى من زهورها المتفتحة. ثم بدأت أمي تتحدث عن حقيقة أنها كانت جامعة تبرعات ناجحة في حياتها، وأنها فخورة بي لسيري على خطاها. قالت إن عملها كان مختلفًا عن عملي لأنه كان في حقبة مختلفة؛ في زمن المساعدات النسائية، حيث تتورط النساء ذوات الإمكانات الكبيرة في الأعمال الخيرية بدافع الواجب على الأغلب. قالت إن العمل الخيري كان بالنسبة إلى البعض في ذلك الحين مسألة مكانة ووضع اجتماعي. اعترفت أن تلك كانت دوافعها أيضًا. ولكن بالنظر إلى الماضي، كانت تلك الفرص التي

تسنى لها فيها أن تتبرع بوقتها ونفسها لتنظيم حملات جمع الأموال من أجمل التجارب التي مرت بها في حياتها وأكثرها أهمية.

كانت لا تزال تتذكر مشروعها الأول في جمع التبرعات، حين كانت زوجة وأمًّا شابة في الثلاثينيات من عمرها، تقطن في مدينة إيفانستون بإلينوي. وضعت هدفًا لجمع الأموال من أجل جمعية خيرية محلية. كانت عبارة عن وكالة مجتمعية تهتم بعمليات تبني الأطفال وتوفر حضانة للرضع الأيتام أو المشردين، ومكانًا للآباء المحتملين لزيارتهم.

والآن، وبعد ما يقرب من خمسين عامًا، كانت ما زالت تتذكر وكأنه بالأمس ما شعرت به عندما التزمت بجمع 25000 دولار لتوسيع المبنى الذي يضم دار الأيتام والمكتب الإداري. كان هدفًا ضخمًا يكاد يكون عصيًّا على التحقيق بالنسبة إلى المنظمة في ذاك الوقت. كانت أمي صغيرة جدًّا وقليلة الخبرة، ولم يكن لديها أي فكرة عن كيفية تحقيق ذلك، لكن توجَّب على أحدهم تولي المسؤولية، وقد فعلت.

أقامت أمي وفريقها كل مشروع ممكن لجمع هذا المبلغ: نظموا عروض بيع الفطائر، وحملات الملابس المستعملة، وجولات الحدائق. أقاموا سلسلة لا تنتهي من الحفلات الخيرية الصغيرة.

في تلك الأيام لم يكن باستطاعتهم طلب المال بصورة مباشرة كما يحدث اليوم، لكن المال الذي جمعوه من تلك الفاعليات كان مُرضِيًا إلى حد كبير. بحلول الموعد النهائي للحملة، صاروا قريبين من الهدف، لا يفصلهم عنه سوى 5000 دولار. تقول أمي إنها أحست أن العثور على تلك الدولارات الخمسة الآلاف الأخيرة مسؤوليتها الشخصية. كانت تلك إذن هي بداية معرفتها الحقيقية بجمع التبرعات النابع من القلب، لأنها أدركت حينذاك أن هناك أناسًا من كل مكان قد تبنوا أطفالًا من هذه الوكالة، الذين إن علموا فقط بأن مالهم قد يمكِّن الآباء الآخرين من التبني سيتبرعون به عن طيب خاطر. تسلَّحَتْ بتلك النظرة المتعمقة، وحصلت على قائمة الآباء، واستدعتهم طالبة مقابلتهم. طلبت منهم التبرع واحدًا تلو الآخر، وقد فعلوا واحدًا تلو الآخر؛ 500 دولار من هذا، و250 دولارًا من ذاك، حتى بلغت المراد. لقد جمعت

الدولارات الخمسة الآلاف الأخيرة بنفسها بتلك الطريقة، وتجاوزت هدفها بمبلغ مجموعه 26133 دولارًا.

قالت إن تلك الحملة علمتها أن الناس جميعًا من كل مكان يريدون إحداث فرق. كل فرد يريد حياة صحية ومثمرة لنفسه وللآخرين، والتبرع بالمال أو المساهمة به هي إحدى أكثر الطرق استثنائية وقوة يمكننا من خلالها إحداث هذا النوع من الفرق. قالت إن كل لقاء مع إحدى العائلات كان بمكانة تفاعل حميمي لا يُنسَى، وقد أدركت أن تلك اللقاءات كانت في حد ذاتها نعمة.

بينما جلسنا نتحدث ونفكر في العائلات التي تأثرت بحملة جمع الأموال هذه؛ العائلات التي تبرعت بالمال، وتلك التي أتت لاحقًا لتزور المبنى الجديد وتتبنى طفلها الذي حلمت به، كلتاهما كان أثر الحملة باقيًا فيها أمد الدهر. ثم أدركنا أن الأطفال الرضع الذين تم تبنيهم من ذاك المكان في ذلك الوقت يبلغون الآن نحو الأعوام الخمسين. لقد نشؤوا وترعرعوا في ظل عائلات تحبهم وترعاهم. هؤلاء الأطفال أنفسهم قد صاروا على الأرجح آباء وأمهات، والكثيرون منهم قد صاروا أجدادًا الآن، وانبثق من هؤلاء الأطفال الذين صاروا بالغين الآن سلسلة كاملة من العائلات والحب. تعَجَّبنا لفكرة أن مبلغ الـ 26133 دولارًا الذي جمعته كان لا يزال عاملًا في حياة هؤلاء الناس وأطفالهم وأحفادهم. عندما تجمع مالًا لأجل أعلى التزاماتك -في حالتنا هذه، التزام أمي بأن يحظى اليتامى الأطفال بالحب والرعاية- فإن الموارد المالية تظل تجني حصادًا لا ينتهي من مقصد ذلك المال. فكرنا في جميع الأطفال الذين تم تبنيهم من المنشأة الجديدة بعد جمع الأموال. لقد اعتبرت أمي أن كل طفل متبنى بعد ذلك الحدث هو جزء من الإرث الذي تسنى لها أن تساعد تلك الوكالة في تركه. تأثرنا بتلك الفكرة، وبقوة المال المجموع والمتبرَّع به في إحداث فرق.

وفي محادثة أخرى، استذكرَتْ جميع حملات جمع التبرعات الكبرى التي أدارتها في حياتها: حملات للمتحف، ووكالة تبنٍّ عالمية، سيمفونية المجتمع، نادي الفتيان، نادي الفتيات، برنامج صحة الشعوب الأصلية في الغرب، حيث تعيش الآن، معهد بريل، ملاجئ حيوانات، مركز محو الأمية، مركز

رعاية المسنين القريب، الذي أتى منه الاختصاصيون الآن لرعايتها، معسكرًا للدراسات البيئية، مشروع تحويل أجزاء من الصحراء إلى موائل طبيعية، مخيمًا لإنشاء ممرات السير عبر الجبال. وبينما مضت تخبرنا بمشروع تلو آخر، ومنظمة تلو أخرى، أدركت أنها قد جمعت على الأرجح ملايين الدولارات التي استقطبت ملايين الدولارات الأخرى وخدمت ملايين الآخرين.

كان لهذا المال الذي مضى على إنفاقه زمن أثر لا يُمحى، حتى في حياتها: امتلأت ممرات السير عبر الجبال بأحفادها، كان اختصاصيو دار الرعاية هنا الآن يخدمونها ويخدمون عائلتها، كرمها والثروة التي جنتها لأجل مجتمعها كانت استثمارات تعود إليها الآن. وسيظل أثر هذا المال باقيًا للأبد، لن يُستَهلَك ولن ينفد، ولن يكف عن إعادة قيمته للجميع. كانت لحظة تجلٍّ قوية ومؤثرة لكلينا.

بعد أيام قليلة، قالت إنها تريد التعبير عن شكرها للأشخاص الذين كانوا مهمين في حياتها اليومية في الحي، لا سيما أولئك الذين أحسنوا معاملتها حقًا. لقد كانت تلك العلاقات ثروة وفيرة بالنسبة إليها، وأرادت أن تخبر الناس بمدى اعتزازها بهم. أخرجت دفتر الهاتف وقلبت صفحاته الصفراء. طلبت مني الاتصال بمغسلة التنظيف الجاف. طلبتُ الرقم، فأخذت مني سماعة الهاتف وطلبت التحدث إلى المدير. كانت هناك لحظة صمت بينما ذهب العامل لإحضار المدير. ثم قالت أمي:

«كين، معك السيدة تيني. إنني أحتضر، وعلى الأرجح سأرحل قبل سبتمبر القادم، وكنت أتحدث مع ابنتي عن كل الأشخاص الذين جعلوا تلك الفترة الأخيرة من حياتي جد مميزة. لقد كنت تنظف ملابسي على مدار الأعوام العشرين الماضية، ولطالما شعرت برعايتك وخدمتك أنت والعاملين في المغسلة. إنني أقدرك، وأريدك أن تعرف أنه عندما يتقدم المرء في السن ويعجز عن خدمة نفسه، يصبح جيرانه الذين يقدمون تلك الخدمات الضرورية هم محور حياته وسعادة أيامه. أودُّ منك أن تحضر جنازتي، وأود منك أن تجلس خلف عائلتي مباشرةً. أريدك أن تعطي عنوانك ورقم هاتفك لابنتي حتى تتمكن من دعوتك إلى الجنازة عندما يحين الوقت».

تحدثَتْ بعدها إلى مارسي وسوزان، العاملتين في المغسلة، وأخبرتهما بالشيء نفسه، وأسهبت في التعبير عن مدى تقديرها لهما. ثم اتصلت بورشة إصلاح السيارات، وتحدثت إلى الرجل الذي كان يعتني بسيارتها. اتصلنا بالصيدلية، وعامل التوصيل، والسيدة التي تقف خلف طاولة مستحضرات التجميل في متجرها المفضل. اتصلنا بمطعمها المفضل، مطعم فرنسي صغير، وتحدثت إلى المالك، وإلى نادلتها المفضلة مارتين. أخبرتهم جميعًا كم كانت معرفتها بهم مميزة، وعن عمق شعورها برعايتهم إياها. اتصلنا بمصفف الشعر، واختصاصية التدليك، واختصاصية تجميل الأظافر. اتصلنا بالأشخاص الذين كانوا يوصلون البقالة إلى باب منزلها.

كانت كل محادثة مؤثرة جدًّا. تفاجأ الناس؛ لم يكونوا معتادين سماع مثل هذا التقدير لعملهم، وخاصةً من شخص قريب من الموت. حصلتُ على أسماء الجميع وعناوينهم لأدعوهم إلى جنازتها عندما يحين الوقت.

ثم انتقلنا إلى عملية توزيع بعض من أموالها المتبقية على جميع أحفادها الأحد عشر، وأبناء أحفادها الثلاثة. وعلى الرغم من تواضع المبلغ، فقد أرادت أن تعطيهم المال في وقت مبكر، كي يتسنى لهم إخبارها بالطريقة التي يريدون بها أن يستخدموه، وكي يتسنى لها مشاركتهم تلك الفرحة.

أشعلنا شموع النذر وبدأنا. جمعنا صور الأحفاد من جميع أنحاء المنزل، ثم جلست أمي واضعة صورة كل حفيد على حدة، ومضت تتحدث عن خصاله المميزة ورحلة حياته. كانت عيناها تغرورقان بالدموع وهي تنظر إلى صور أحفادها وتتحدث عن مدى حبها لكل واحد منهم، ومدى تميزهم ومدى اعتزازها بهم، وتتذكر النعمة التي كانوا يمثلونها لحياتها، ثم تكتب خطابًا قصيرًا، وتوقع الشيك، ونضعهما مع الصورة في مظروف جاهز للإرسال بالبريد. استغرق كل حفيد نحو نصف ساعة؛ ومع وجود أحد عشر حفيدًا وثلاثة من أبناء الأحفاد، تطلَّبَ الأمر منا نحو ثلاثة أيام. كانت من أثرى الأيام. كان انتباهها يقظًا ومترويًا، ومشحونًا بالعواطف لدرجة يكاد معها أن يستنزفها، وكانت تضطر إلى أخذ استراحة قبل استئناف العملية في اليوم التالي.

في النهاية، بعد تذكرها كل فرد من أفراد الأسرة والتعبير عن امتنانها لوجوده، انتقلت إلى ذكريات أخرى، بما فيها تلك التي كانت تجسيدًا لروح المال طوال سنين حياتها. تذكرت العديد من الأعمال الخيرية والخدمات المجتمعية التي ساهمت فيها، والأوقات التي أقرضت فيها الناس مبالغ هائلة من المال، رغم علمها بأنهم لن يقدروا على سدادها أبدًا. لم تندم قط، فقد شعرت بأن المال استُخدِمَ لغايات نبيلة. كان ذلك يُشعِرها بالرضا، وبالامتنان لمقدرتها على فعل ذلك، وبالرضا عن حياتها. كانت حياة عِيشَت بحذافيرها.

في الأسبوع التالي، تأكدنا من توفر المال لسداد كل فاتورة وكل تكلفة سنتكبدها خلال الأشهر القليلة التالية من الرعاية، ومن إعداد الجنازة نفسها، بحيث لا يضطر أي أحد إلى التضحية.

لم يكن لديها الكثير من المال في نهاية حياتها، وبطريقة ما كانت فخورة بذلك. قال جورج برنارد شو ذات مرة: «لا أريد أن أموت إلا بعد أن أُستُهلكَ تمامًا». كانت أمي مثالًا حيًّا على تلك الفكرة. قالت إنها أدركت أنها استهلكت جسدها كما استهلكت مواردها المالية، التي أنعم الرب عليها بها. كانت مُستَنفَدة قلبًا وقالبًا، بأفضل طريقة ممكنة. أنفقت طاقة الحياة والثروة المادية، والنتيجة أنها استخدمت كل ذرة للاحتفاء بحبها للناس والوفاء به والتعبير عنه.

وبالطبع مرت على أمي أيضًا أيام مروعة، أيام طويلة مؤلمة كانت فيها مستاءة وغاضبة من الجميع. وفي النهاية، عندما حانت لحظة وفاتها، كانت قد نفدت حقًّا. حياتها كانت كاملة، وأتذكَّرُ أنني فكرت: «ربَّاه، يا لها من خاتمة! يا لها من حياة!» في تلك الأسابيع الأخيرة تركتني مدركة تمام الإدراك قوة المال الأبدية، المال الموجه بنزاهة وهدف، وقوة الحب الأبدية. كان ذلك جزءًا من الإرث العظيم الذي تركته.

أذكر أنني دلفت إلى الغرفة حيث جثمانها في الدقائق التي تلت وفاتها. شعرت بأن روحها قد غادرت، لم تعد طاقة الحياة موجودة في ذلك الجسد. لم تعد هنالك، لكنها خلَّفَت شعورًا ملموسًا في الغرفة: صبرها، وقوتها، وسخاءها، وحبها؛ كانت لا تزال حاضرة. أتذكر شعورًا واضحًا في تلك اللحظة

بأن هذا هو إرثنا: النوايا التي نحولها إلى حقيقة في العالم من خلال أفعالنا، من خلال تعاملاتنا، من خلال الأحاديث التي نخوضها، من خلال العلاقات التي ننعم بوجودها، وفي الطرق العديدة التي نعبر بها عن حبنا. من خلال أداة المال المذهلة تلك يمكننا التعبير عن هويتنا ولمس العالم.

اجتمعنا من أجل الجنازة، وإلى جانب جميع أفراد العائلة والأصدقاء المقربين، حضر أيضًا كل أولئك الذين اتصلنا بهم: عمال المغسلة، والميكانيكي، والطاهي، والنادلة، وعامل التوصيل، جميعهم حضروا. كل هؤلاء الأشخاص كانوا باعة دفعت لهم أمي مقابل خدماتهم، بيد أنهم شعروا برابطة وثيقة تربطهم بحياتها لأنها سمحت لهم بالدخول.

لقد غمرتهم جميعًا بالامتنان والتقدير، وأنا على يقين من أن ذلك ما زال باقيًا في حياتهم حتى يومنا هذا. تأثرت حياتهم لأن أمي كانت لديها القدرة والشجاعة لإجراء تلك المكالمات الهاتفية. نعم أحفادها بالهدايا المالية الصغيرة التي أهدتهم إياها وهي على قيد الحياة، واستمتعت بالقصص التي أخبروها بها عن الطريقة التي يخططون بها لاستخدام تلك الأموال. لقد مرت سنوات الآن على وفاتها، ولا يزال مالها وحبها عاملًا، وسوف يظل عاملًا سنين قادمة.

كان إرث والدتي بطريقة ما تجسيدًا لأسلوب حياتها مع المال، وللتسليم الواضح بنهج الاكتفاء في الحياة؛ بدءًا من جمع التبرعات وتمويل أولئك الذين شعرت بأن عملهم مهم، مرورًا بتوزيع ثروتها على أفراد الأسرة، وانتهاء إلى تقديرها للأشخاص في حياتها الذين عرفوها مجرد زبونة دائمة في الحي. لقد جعلتني أدرك الفرق الهائل الذي يمكن أن يحدثه إنسان واحد في حياة الآخرين. كان تذكيرًا بلحظات التواصل من خلال المال، التي ربما هي أعمق مما نتخيل، وأنه عندما نتصرف في تلك اللحظات من القلب، فإن مالنا يعبر عما بداخل ذلك القلب، الذي هو ثروتنا الحقيقية. لم تكن أمي امرأة غنية، كانت مساهمة شغوف وسخية في حياة الآخرين وعملهم، وقد ظلت تمنحهم من وقتها وطاقتها ومالها منذ كانت فتاة صغيرة، وحتى لحظة وفاتها.

إرث الوعي المالي

كل واحد منا يريد أن يترك إرثًا من أسرة صحية وأطفال مزدهرين، وأرض تنبض بالحياة وتدعمها. نحن نصنع إرثنا الخالد ليس فيما نتركه بعد موتنا، ولكن في الطريقة التي نعيش بها، وخصوصًا تلك التي نعيش بها مع المال.

ما نوع الإرث التي تريد صنعه؟ سواء من المعدمين كُنتَ أو من أصحاب المليارات، فأنت تُحدِثُ فرقًا، تترك إرثًا. ليس شرطًا أن تمتلك ثروة طائلة كي تحدث فرقًا بمالك، وليس شرطًا أن تكون شخصية عامة أو واضع قانون، أو أن تظهر في برنامج أوبرا، أو أن تتبرع بمنحة لكليتك المفضلة. كل واحد منا يبني إرثه بالطريقة التي يعيش بها الآن. نحن نبني إرثًا من الاكتفاء -أو الندرة- بطرق عديدة، ولكن أهمها هي علاقتنا بالمال. يمكننا أن نستنفد ونأخذ، نراكم ونكنز، أو يمكننا أن نغذي ونشارك، ونخصص وننفق بوعي ونساهم.

لطالما ظننت خلال نشأتي أن الحظ حليف الوارثين؛ أولئك الذين لن يضطروا أبدًا إلى القلق بشأن المال أو الاكتراث لأمره، أو حتى التفكير فيه باستثناء معرفتهم بأن لديهم أطنانًا منه. إن أسطورة «*المزيد أفضل*» قوية لدرجة يصعب معها تصديق أن هذا المزيد قد يسبب مشكلة، لكن الواقع يروي قصة مختلفة، وقد سمعتها ورأيتها مرارًا في عملي مع أولئك الذين يعيشون تلك القصة.

في مؤتمر عُقِدَ مؤخرًا، أخبرتنا امرأة شابة شقراء تبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا أنها توسلت إلى والدها ألا يمنحها الكثير من المال، ومع ذلك حوَّلَ لها 30 مليون دولار في الأسبوع نفسه. شعرت بأن المال يسحقها، كانت مذعورة من المسؤولية، مرتبكة ومُثقَلَة، وخائفة من أن يكتشف الناس امتلاكها هذا المبلغ وأن يكرهوها بسببه، أو يستغلوها للوصول إليه. العمل الذي قام به والدها لكسب هذا المال كان السبب في دمار عائلتها، والفُرقَة بين إخوتها وأخواتها، وفي طلاق والديها، وإثارة مشاعر الغيرة والحسد التي لم ترد أن تكون جزءًا منها. شعرت أن كل هذا العبء والذنب والمشاعر السيئة قد انتقلت إليها مع المال، وكان ذلك يفوق احتمالها.

قد يذهل أغلب الناس حين يرون مشاعر البؤس والحزن التي كثيرًا ما تصاحب المواريث الضخمة. بالطبع هناك استثناءات، وتلك الاستثناءات هي الأشخاص الذين يعملون بجد لمواجهة آثار الإفراط والاستحقاق. ولكن على عكس ما نتخيله، فإن الميراث الضخم لا يكون بالضرورة إرثًا جميلًا كما يبدو.

في البلدان والمجتمعات التي يكون فيها المال عملة نادرة، وأيضًا في حياة أولئك الذين يبالغون في تقدير المال، فإن الجانب الأكثر تدميرًا في تلك العلاقة مع المال هو إرث الحرمان، الذي يسوق الناس إلى الاعتقاد بأن المال هو الذي يحدد من هم وما يمكن أن يختاروه في الحياة. نحن نعلم أنه سواء كثرت الموارد أو قلت، فإن أولئك الذين ينجون ويزدهرون هم أولئك الذين يستندون إلى موارد أخرى أعمق لعيش حياة ذات معنى.

بناء الإرث: أن تكون نموذجًا يُحتَذَى به لحياة الكفاية

عندما ضبطنا أنا وبيل أنفسنا منجذبين إلى ما أسميته: أغنية النجاح المغوية -حينما كان أطفالنا صغارًا- لم نفوت فقط قدرًا هائلًا من الفرحة والبهجة الكامنة في رؤيتنا لدهشة أطفالنا وحماستهم تجاه أصغر الأشياء وأبسطها، بل كنا أيضًا نموذجًا محيِّرًا لهم. انهمكنا في كسب المال ونيل إعجاب الآخرين، والحصول على رموز ما يدعى بالنجاح، وصببنا انتباهنا، بل وثقتنا في قوة المال التي لا جدال فيها، وتركنا لديهم عن غير قصد انطباعًا حول الأشياء المهمة عندما يكون المرء «راشدًا».

لولا بكمنستر فولر، ومن بعده مشروع مكافحة الجوع، لربما استمرت حياتنا في ذاك الاتجاه غير السليم. لكننا كنا محظوظين. تمكنا من إعادة توطين أنفسنا في سياق آخر تمامًا، وبدأنا نعطي صنع الفرق قيمة أكبر مما نعطي صنع الثروة.

خلال تلك المرحلة الفاصلة صار باكي شخصًا مهمًّا في حياتي وعملي. وفي إحدى الليالي، تشرفنا بمجيئه لتناول العشاء في منزلنا. كان أطفالنا في ذلك الوقت يبلغون من العمر ستة، وثمانية، وعشرة أعوام، وجلسنا أنا وبيل

وباكي والأطفال على طاولة المطبخ. غالبًا ما كان يشار إلى باكي باسم «جِد المستقبل»، وقد كان من الممتع جدًّا رؤيته جالسًا هناك مع أطفالنا يشاركهم وجبة بسيطة مطبوخة في المنزل. في لحظة ما، قالت ابنتي سمر ذات الأعوام الثمانية شيئًا عميقًا، بالطريقة التي يتفوه بها الأطفال أحيانًا بحقيقة عميقة تمخضت عنها بصيرتهم الغضة. كان تعليقها مذهلًا للبالغين الثلاثة الجالسين إلى المائدة -أنا وبيل وباكي-، ونظرنا إلى بعضنا بعضًا متأثرين بحكمة هذه الطفلة.

ثم قال باكي شيئًا غيَّر حياتي وعلاقتي بأطفالي إلى الأبد. وجه كلامه إلينا أنا وبيل قائلًا: «تذكرا أن أطفالكما هم الحكماء في زمن الكون. لقد بلغوا عالمًا أكثر اكتمالًا وتطورًا مما نتصور، ولن يتسنى لنا أن نرى ذلك العالم إلا من خلال أعينهم».

كانت رؤية أطفالي على أنهم «الحكماء في زمن الكون» فكرة مدهشة وملهمة. كل أحداث اليوم البارزة وتطوراته التكنولوجية التي تستحوذ على انتباهنا الآن ستكون تاريخًا لأطفالنا، التربة التي يقفون عليها، والتي منها ستنمو أحلامهم ومساعيهم العظيمة بطرق لا نستطيع حتى تخيلها. لكن أطفالنا استطاعوا ذلك وفعلوه. ما الذي يعنيه أن ترث عالمًا حيث تتسارع التكنولوجيا والحواسيب وسبل السفر، حيث لم يعد المجتمع العالمي فكرة مجردة أو آفاقًا جديدة بل حقيقة ملموسة؟ ما الذي عساه يعنيه أن تترعرع في عالم يسود فيه الاكتفاء، ويصير الكرم والتعاون هما الحالة الإنسانية الغالبة؟

لقد أدركت أنهم كانوا يرشدوننا بقدر ما كنا نرشدهم، على اختلاف شكل الإرشاد بالطبع. وعلى الرغم من أني لطالما رأيت أننا نتعلم الكثير من أطفالنا، فلم أرَ هذه الحقيقة العميقة لعلاقتنا من قبل قط. لقد غيرت تصوري لكل شيء، وبدأت أسترشد بحكماء الكون هؤلاء للحصول على نظرة مستقبلية فريدة ودقيقة ومتطورة للعالم.

صار الاستماع إليهم يعني الاعتراف بغرائزهم الطبيعية، واحترام حكمتهم الطبيعية وتقديرها حتى يتسنى لها أن تتوسع وتساهم. لقد أصبح واضحًا

لي أنه من خلال تغذية تقديرنا لهم، سيعمقون حكمتهم الطبيعية ويصبحون أقل عرضة لأساطير الندرة والجوع الثقافي والتجاري نحو مزيد من الأشياء ومزيد من المال. الإرث الذي كانوا يحتاجون إليه منا لم يكن المال، بل أسلوب الحياة الذي يمكنهم من تنمية إبداعهم ومرونتهم ويعبر عنهم بشكل كامل في العالم، بغض النظر عن المال، أو الموارد الأخرى التي تتدفق في حياتهم.

في تلك السنوات الأولى من عملي في مشروع مكافحة الجوع، أصبح منزلنا ملاذًا لكثير من الناس. كان مكانًا لإقامة الأصدقاء الذين يزورون سان فرانسيسكو، وكان مأوىً لأحد الأصدقاء للعيش وتلقي الرعاية بعد مروره بطلاق صعب، وملاذًا لصديق آخر للتعافي بعد صراع مع السرطان. وعند تدريبنا أعضاء فريق مشروع مكافحة الجوع القادمين من بلدان أخرى مثل إثيوبيا والهند، كان زملاؤنا يقيمون معنا أسابيع في المرة. في إحدى المرات كانت مديرتنا في الهند –لاليتا– تقيم في غرفة المعيشة، وزملاؤها، ناجي، وشاليني، في غرفة الضيوف، بينما يقيم هيروشي وجانيت من اليابان في غرفة الألعاب بالقبو، ونامت توند فافونوا من نيجيريا في حقيبة النوم أسفل البيانو. نشأ أطفالي مع أشخاص من ثقافات أخرى يأتون ويذهبون، يشاركون عائلتنا الوقت والوجبات ولحظات السعادة، ويعلمون أن لدينا دائمًا ما يكفي لنشاركه مع أي شخص حاضر، أو سيحضر مستقبلًا.

نداء المشاركة هذا قد وسَّع سخاءهم في بعض الأحيان، ومَكَّنَهم أيضًا من تجربة الثروة الحقيقية للموارد، التي تكفي أي أحد يحتاج إلى البقاء معنا. لقد أثْرَتْ حياتنا جميعًا بشكل هائل. ما تشاركه تمنحه قوة، وذلك الذي تشاركه يستمر إلى الأبد إرثك الحقيقي.

هذا هو الإرث الذي نواجه خطر خسارته –والذي يواجه أطفالنا خطر خسارته– في المناخ التجاري الذي يحيط بهم الآن ومنذ ولادتهم. في مجال الدعاية والتسويق يسمونه: التسويق «من المهد إلى اللحد»، وهي استراتيجية محسوبة لتحويل الأطفال إلى مستهلكين منذ اللحظات الأولى من الحياة، وزراعة بذور كذبة الندرة وتغذية أسطورة *المزيد أفضل*.

يقول مركز «الحلم الأمريكي الجديد»، وهو منظمة محترمة للعمل الاجتماعي وتثقيف المستهلكين: إن «أطفال اليوم يتعرضون بشكل متزايد للإعلانات التلفزيونية واللافتات، والملصقات الدعائية، والشعارات، والترويج للمنتجات في البرامج والأفلام. تغوي وكالات الدعاية الأطفال علنًا على نطاق غير مسبوق، وتتسارع لكسب ولاء الطفل بمجرد أن يكبر بما يكفي لتمييز شعارات الشركات أو ترديد أغاني الإعلانات. إن وكالات الدعاية تستهدف الأطفال اليوم لأن ذلك هو المكان الذي تنغرس فيه بذور النزعة الاستهلاكية الفائقة».

تصعب تربية الأطفال في هذه الثقافة التجارية الاستهلاكية الصاخبة التي تعمل على مدار الساعة بلا هوادة، ويصعب التعرف على مبدأ «الكفاية» الذي لا يقر به أحد، رغم أنه وحده ما سيمنحهم مفاتيح الحياة المرضية والسعيدة. إن الأطفال بطبيعتهم يفيضون حماسة ودهشة، والعالم هو موطن الفرحة والإمكان بالنسبة إليهم. هم يزدهرون بالحب والقبول، ويهدوننا فرحتهم ومرحهم، وإحساسهم بالإمكان الذي جُبِلُوا عليه.

كيف نوجِّه أطفالنا إلى إقامة علاقة أصيلة بالمال عندما تسوقهم ثقافة المستهلك إلى الرغبة وشراء أشياء لا يحتاجون إليها؟ كيف يسعنا تمكينهم من العيش بنزاهة في مواجهة هذا الإغواء؟ يمكننا تثقيفهم بشأن زيف الندرة وأساطيرها، وتوضيح سياق الاكتفاء. يقدم مركز «الحلم الأمريكي الجديد» الاقتراحات العملية التالية:

ساعد طفلك على أن يفهم أن المنتجات كلها تصنع من مواد مستخرجة من الأرض، وأن الأشياء المادية لا تختفي بمجرد التخلص من القمامة.

علم أطفالك ما يحدث لكل تلك الأشياء. وأنه عندما نستهلك الكثير من البلاستيك والسلع المعبأة والمنتجات سهلة الكسر، فإننا نلقي بعبء ثقيل على كاهل الأجيال القادمة.

ابحث عن مصادر المنتجات الصديقة للبيئة، التي تتسم بالمتانة ومصنوعة من مواد قابلة للتحلل أو معاد تدويرها.

كن قدوة ومثلًا أعلى. تجنب التسوق الاندفاعي. قلل من استهلاكك للمنتجات التي تستنفد الأرض.

عَرِّف طفلك على الكتب وغيرها من المواد التي تدعم هذه الرسائل.

علمهم أن أغنية الإنفاق المغوية تلك، والاستدانة ومراكمة المزيد هي جزء غير صحي من ثقافتنا، وأنهم ليسوا مضطرين إلى الوقوع ضحيته. علمهم أنهم سيمرون بأوقات يشتد فيها الإغواء، لكنهم يستطيعون أن يتغلبوا على قوة ذلك الجذب.

فكر مليًّا في الطريقة التي تعيش بها مع المال المتدفق في حياتك، لتعرف إن كانت أفعالك داعمة لأسلوب حياة الازدهار والعدل والاستدامة لكل الناس. أشرِك أطفالك في عملية التفكير والتشاور واتخاذ القرارات المتعلقة بالمال، واطلب منهم المساهمة بأفكارهم.

إن منح أطفالنا علاقة صحية بالمال هو أثمن وأنفع من أي ثروة. أورثهم العلم بأن المال يتدفق ذهابًا وإيابًا –يفترض به أن يفعل– وأنه من دواعي الشرف أن تقدر على توجيه التدفق ليصب في أهم التزاماتك. أورثهم فهمًا –تشهد حياتك عليه– بأنك إن حوَّلتَ تقديرك إلى مواردك الداخلية فلن ينقصك شيء مما تحتاج إليه لمواجهة التحدي أو الفرصة التي تعرضها الظروف الخارجية. أورثهم تجربة الثروة الحقيقية، وجمال وأمان الحياة التي تقدر وتحترم علاقتنا مع بعضنا بعضًا، والإلهام والمشاركة، والإدارة الرشيدة بدلًا من مراكمة النقود أو الأشياء.

ثمة قصيدة صوفية أحبها، منسوبة إلى حضرة عنايت خان، وتعرض منظورًا مفيدًا:

طلبت القوة، فأعطاني الله الصعاب لتجعلني قويًّا.
طلبت الحكمة، فأعطاني الله المعضلات لأتعلم سُبُلَ الحل.
طلبت الرخاء، فأعطاني الله عقلًا وجسمًا لأعمل.
طلبت الشجاعة، فأعطاني الله المخاطر لأقهرها.

طلبت الحب، فأعطاني الله أناسًا لأساعدهم.
طلبت الفضل، فأعطاني الله فرصًا.
لم أتلقَّ شيئًا مما أردته.
لكني تلقيت كل ما أحتاج إليه.

يبدأ الإرث الذي نبنيه في المنزل وفي العائلة، سواء كان لدينا أطفال أم لا، لكنه يمتد أيضًا إلى مكان العمل والمناخ التجاري. هناك، لدينا الفرصة لاستبدال الفلسفات التجارية والإدارية والاقتصادية المبنية على مبادئ الاستدامة وممارساتها بمبادئ الندرة التي تسوق عقلية الربح بأي ثمن.

ابتكر بول وزملاؤه في شركة فيتزر فاينياردز طرقًا صديقة للبيئة ومستدامة بيئيًا لإنتاج نبيذ ممتاز. وقد فاز نبيذه بالجوائز، ولم تزل شركته رابحة ومزدهرة، ونموذجًا جديدًا لصناعة النبيذ التجاري في جميع أنحاء العالم. لقد بنت رؤيته وأفعاله الشخصية كرائد أعمال إرثًا من الاكتفاء والازدهار لمجاله ولكل من يتبعه.

وهناك آخرون كثر يعيشون بتلك المبادئ في عملهم وأسلوب حياتهم الفردي. إن الاستدامة هي في النهاية بيان يكفل الاكتفاء للجميع في كل مكان ولجميع الأجيال القادمة. لقد ظلت أساطير الندرة إرثنا زمنًا طويلًا، لكن الأمثلة على اتخاذ خيارات مستدامة هي جزء من ترك إرث من الكفاية في العمل، وفي التربية، وفي القيادة، وذلك الإرث في سبيله إلى تغيير عالمنا بقوة الآن.

إن ما نشتريه ونستثمر فيه ونهديه إلى الآخرين ونختار أن ننفق ونساهم فيه يمكن أن يصنع عالمنا. تربطنا مبادئ الاكتفاء بالحقائق العميقة والقيم الروحية التي يمكننا استخدامها لغرس بذور مستقبل من الرضا والحرية والذات في مواجهة أساطير الندرة والنقص السائدة.

يقول عالم المستقبل العظيم ويليس هرمان: «المجتمع يعطي الشرعية، وهو من يقدر على سلبها».

يمكننا سحب الشرعية من أسطورة الندرة.

بغض النظر عن مقدار المال المتدفق في حياتنا، يمكننا استخدامه بطريقة تدعم الحياة بدلًا من السعي وراء المزيد، والهوس بشأن حركة المال الصاعدة والهابطة في حياتنا.

يمكننا الانتقال من الندرة إلى الاكتفاء، ومن الشكوى إلى الالتزام، ومن الحسد إلى الامتنان.

يمكننا تغيير الحلم، من خلال الموقف الذي نتخذه، ومن خلال قوة الحديث، ومن خلال الانتباه الواعي بإرثنا.

12

الموجة الفارقة

ثمة ترنيمة آتية من بعيد، الصوت الخافت لصحوة الناس، صحوتهم على ما يمكن تحقيقه للأرض في هذه المرحلة الحساسة، صحوتهم على النداء الآتي من أسلافنا ومن أجيال المستقبل، نداء الصحوة.

- ***تحالف تيرننج تايد***

انطلقت سيارة الأجرة من فيرونا تشق طريقها عبر ازدحام المرور متجاوزة الجدران الحجرية القديمة لتخرج من بوابات المدينة. وفي غضون دقائق، انتقلنا من صخب الشارع الإيطالي إلى تنهيدة الريف الأرضية، نسلك طرقًا وعرة ضيقة شديدة الانحدار تمر عبر قرى التلال الإيطالية الخلابة في طريقنا إلى مركز في بلدة كادين الصغيرة، التي تعشعش في الجبال على بعد ساعتين. تلونت السماء باللون الأزرق الفاتح. كانت خطوط الجبال واضحة وضوح الشمس في مقابل السماء. عندما وصلت وبدأت مقابلة زملائي الجدد أحسست بترقبهم وحماستهم، وبأن شيئًا هائلًا ينتظرني. كنا قد سافرنا إلى هناك للجلوس والتحدث مع قداسة الدالاي لاما.

كان ذلك في أوائل صيف عام 2001، وقد دعيت إلى ما يسمَّى بـ: «توليفة الحوار»، وهي تجمع من ثلاثين شخصًا، جميعهم من النشطاء العالميين أو الزعماء الدينيين أو المعلمين الروحيين. والغرض من التجمع هو التناقش مع بعضنا بعضًا ومع قداسته بشأن الوضع العالمي.

كان المشاركون الثلاثون قادة عالميين وشعبيين من أنحاء العالم أجمع، ولكل منهم التزام مشترك تجاه الإمكانات البشرية والروحانية، كل منهم يكافح ضد بعض جوانب الظلم والألم والمعاناة التي ابتلي بها البشر. كان هؤلاء أناسًا يحاربون في الخنادق، يقاتلون الحرب، والفقر، والجوع، والعنف، والقمع الذي كان جسيمًا في بعض الحالات. عانى بعض المشاركين من ويلات السجن والتعذيب، ومع ذلك عادوا إلى العمل وهم أكثر إصرارًا على إشعال فتيل التغيير والتحول. كان مجرد الوجود بينهم يدعو للتواضع.

ظللنا نجتمع مع بعضنا بعضًا عدة أيام قبل وصول قداسته. تشاركنا قصص حياتنا، ومارسنا تمارين التأمُّل معًا. تجوَّلنا في الجبال وغنينا معًا. تواصلنا بعمق، وكسبنا احترام بعضنا بعضًا، وحب بعضنا بعضًا، وكنا قد بدأنا العمل والنقاش بفعالية بحلول الوقت الذي انضم فيه إلينا قداسة الدالاي لاما برفقة الرهبان والعلماء التبتيين الذين يصاحبونه في أسفاره.

كان اجتماعنا قويًّا ومثمرًا لنا جميعًا حتى قبل مجيئه. ولكن عندما انضم إلينا وأصبحنا في حضرته، برفقة «قداسته»، انتقل كل شيء إلى مستوى آخر. بطريقة ما، صار كل منا قادرًا على فصل نفسه عن «قصته الفردية»، أو «دراما حياته»، وأن يشهد العالم بدلًا من التصارع مع مشكلاته. في حديثنا، لم نتحاشَ مشكلات العالم، لكننا بسطناها أمامنا لنراها بوضوح. تحدث قداسته عن الاضطهاد المأسوي الذي قاساه شعبه على يد الحكومة الصينية، والتعذيب والفظاعات التي ارتُكِبَت ضد من تبقى من التبتيين داخل التبت الصينية. كنا على دراية بالفعل بقصة هروبه بأعجوبة من القتل على يد الصينيين عندما كان مراهقًا، وعيشه منفيًّا عقودًا حتى الآن. هذا رجل ليس بغريب عن المشقة، والقمع، والظلم، والمعاناة.

ومع ذلك، فإن ما تمخَّضَ عنه حوارنا كان بالفعل توليفة، وإجماعًا على أن العالم يصحو، وأن الأمور تأخذ منحى آخر. لقد رأينا وشعرنا أنه حتى في

مواجهة الإحصائيات الصاعقة حول تدهور البيئة، وتصاعد العنف، واحتدام الحروب، وزيادة انتهاكات حقوق الإنسان، وتفشي وباء الإيدز وغيره من الأمراض، ومأساة انتشار الفقر، فإن شيئًا جوهريًا يتغير في الصميم. تتبدد الافتراضات القديمة الخاطئة، وينبثق فجر وقوة روحية وطفرة روحانية وتحول في كل مكان، وهو أقوى وأكثر ثباتًا ورسوخًا من التحديات التي تواجهنا.

كل منا كان لديه تسمية مختلفة له، لكننا علمنا أننا نتحدث عن نفس الشيء. بالنسبة إلي، كان بداية انهيار الندرة وعالم «إما أنا وإما أنت» الذي تخلقه –ذاك الذي يدمر علاقتنا بالمال– وفشله المطلق، وفهمه الخاطئ للواقع الفعلي وسلامة الحياة، ونهجه غير المستدام. اتفقنا على أن الرؤية التي ظهرت مكان الندرة –والتي أصبحت الآن أكثر من مجرد رؤية– عالم «أنا وأنت» الذي تنبأ به بكمنستر فولر قبل سنوات، عالم نعيش فيه في سياق الاكتفاء واحترام ما يكفي، ما يكفي بالضبط الجميع في كل مكان، عالم يعمل من أجل الجميع، دون استبعاد أي أحد أو شيء، عالم يحل فيه التضامن محل العمل الخيري، وعالم لا يكون فيه الحلم حلمًا يخدم البعض على حساب الآخرين، بل حلمًا للجميع، عالم تكون فيه «قوة» الطبيعة الذكية والخيِّرَة هي القوة التي نحترمها ونصطف خلفها، عالم يُستَبدَل فيه بحُبِّ المال استخدامُ المال تعبيرًا عن الحب.

بينما نجلس معًا في دائرة، استمع قداسته إلى كل واحد منا، وتحدث إلينا، وناقش طبيعة التزاماتنا المختلفة في سياق الكل. وصف الرغبة الملحة لدى الإنسان في أن يكون سعيدًا ويتجنب المعاناة، والطريقة التي تصبح بها الحياة الأخلاقية حياة مُرضية. قال إنه في علاقتنا بالمال، عندما نستمتع بالحضور القدسي في معبد الوفرة هذا، ننشئ علاقة أصيلة وأخلاقية مع المال، علاقة تزيد من قيمته وتضخمها.

في حواري مع زملائي هناك في حضرة قداسته، رأيت هذا كما لم أره من قبل، شعرت به، كان عميقًا ومحسوسًا ومؤثرًا بشدة. تذكرت مقولة سمعتها منذ سنوات من تيلار دو شاردن: «نحن لسنا مخلوقات بشرية تخوض تجربة روحانية، ولكن مخلوقات روحانية تخوض تجربة بشرية».

حين جلست أمام الدالاي لاما، أحسست حقًّا أني مخلوقة روحانية تتعامل في عالم التجربة البشرية. لقد هيأت الجلسة –والدالاي لاما نفسه– المساحة المادية والفكرية والروحانية اللازمة للتدبر والشفافية. بفضل تلك التوليفة، خضنا تجربة الواقع بشكل أعمق وأروع، وجددنا التزاماتنا. وما زالت تلك التجربة العميقة لتلك الأيام القصيرة تعود إليَّ من حين إلى آخر، وأصبح جليًّا بالنسبة إليَّ الآن بينما أفكر في طبيعة هذه التجربة البشرية التي نعيشها أن أحد الجوانب الأهم والأصعب لانخراطنا في التجربة البشرية هي نضالنا، وتحدينا، وتفاعلنا مع المال. لقد شهدت مجددًا –مثلما شهدت مرات كثيرة من قبل، ولكن هذه المرة بشكل أكثر وضوحًا– أن المال، الذي هو أكثر حلبات الحياة إغواء وتوريطًا، يمكن أن يكون أعظم حليف لنا في تحولنا وتحول العالم الذي نعيش فيه.

يسافر المال في كل مكان، يجتاز جميع الحدود واللغات والثقافات. المال كالماء، يموج بقدر معين في كل حياة ومكان. يمكنه أن يحمل حبنا أو خوفنا، يمكنه أن يغمر بعضنا لدرجة يغرقنا معها في شعور مسموم بالسلطة على الآخرين. يمكنه أن يغذي ويسقي مبادئ الحرية والوحدة والمشاركة. يمكن للمال أن يرتقي بالحياة، ويمكن استخدامه للتحقير منها، أو الاستخفاف بها أو تدميرها؛ هو سلاح ذو حدين. نحن من اخترعناه، وهو ينتمي بالكامل إلى التجربة البشرية، ولكن يمكن استخدامه لخدمة أهواء الروح ورغباتها.

عالم «أنا وأنت» موجود

كنا في أواخر سبعينيات القرن الماضي عندما سمعت بكمنستر فولر وهو يصف رؤيته لعالم «أنا وأنت»؛ العالم الذي يعرف فيه البشر جميعًا ويعيشون حقيقة أن هناك ما يكفي الجميع دون استبعاد أحد. في ذاك الحين كان هذا أملًا واقعيًّا، لأن العالم –كما أشار– كان به ما يكفي من الطعام والموارد لتلبية احتياجات الجميع. قال إن التحدي يكمن في أن جميع بنياتنا وأنظمتنا –السياسات، والحكومة، والصحة، والتعليم، والاقتصاد، ناهيك بنظامنا المالي– صُممت حول مبدأ الندرة، حول الاعتقاد القائل بأننا لا نملك ما يكفي الجميع، وإنه لا بد من استبعاد أحد.

توقع باكي أن الأمر قد يستغرق من خمسة وعشرين إلى خمسين عامًا لتنهار تلك الأنظمة والهياكل المغلوطة المبنية على الإيمان بالندرة، معيار عالم إما أنا وإما أنت. وحذر من أن ذلك قد يكون مزعجًا ومربكًا، بل حتى كارثيًا، ولكن عندما يحدث التحول، سيولد عالم جديد؛ عالم نقدر فيه أن هناك ما يكفي، ونقوده بحكمة، ونعيش في سياق الاكتفاء والازدهار للجميع، معيار عالم أنا وأنت.

نحن نعيش في عصر كارثي مخيف، والمال يحتل مكانًا ما في خلفية كل صراع وكارثة وأزمة في جميع أنحاء العالم، وفي كل جانب من جوانب حياتنا. إنه وقت متوتر وصعب بصفة خاصة في حياتنا مع المال. يساورنا القلق بشأن فقدان وظائفنا، وعجزنا عن العثور على وظائف جديدة في سوق العمل المتقلصة والاقتصاد المتدهور. نقلق بشأن احتمالية ألا نملك ما يكفي من المال للحفاظ على بيوتنا، أو لإطعام أطفالنا وكسوتهم، وتعليمهم كما نود، وبشأن احتمالية ألا نملك ما يكفي من المال للتقاعد. نحن نقلق من أن تستثمر بلادنا أرواحنا وأموالنا في الحروب. نقلق بشأن الإرهاب القريب من أوطاننا، وفي الوقت نفسه نقلق بشأن التكاليف المتصاعدة للتدابير الأمنية المتزايدة في كل منعطف، التي لا تجعلنا نشعر بالأمان بالضرورة.

إن الأمر من نواحٍ عديدة أسوأ مما نريد أن نعتقد: كوكبنا مُبتَلى بالإرهاب والحروب والعنف والانتقام والعقاب، الأنواع تنقرض بمعدلات غير مسبوقة، احتراق الوقود الأحفوري يخل بتوازن المناخ العالمي. يبدو أن الفجوة الواضحة بين أصحاب الموارد الوفيرة وأصحاب الموارد القليلة أو المعدمين تتسع بلا رحمة، يبدو أن الفساد والجشع يتناميان ويتفشيان، حتى بين أولئك الذين يملكون بالفعل كميات هائلة من المال والموارد والسلطة والامتيازات.

وفي الوقت نفسه، الأمر أفضل مما يمكننا أن نأمل. مئات الملايين من الناس يعملون، منتبهون إلى التحديات، ويتصدون لها على كل المستويات. ظهرت منظمات ومبادرات لا حصر لها في جميع أنحاء العالم لتلبية الاحتياجات الأساسية للبشرية جمعاء، وكل أشكال الحياة. أصبحت جهود المجتمع المدني والمواطنين في كل بلد على وجه الأرض أكثر حيوية ووضوحًا ونشاطًا من أي وقت مضى في التاريخ. يربط الإنترنت المليارات منا في لحظة واحدة، ونحن

نتعامل مع ترابطنا بطرق فعالة وعملية تجعل التعاون والتآزر ممكنًا بشكل غير مسبوق. لقد أيقظت ثورة التواصل تلك قرابتنا الطبيعية إلى بعضنا بعضًا، والوعي بحقيقة أننا وواحد. كما يسَّرَت إجراء حديث عالمي حقًّا بشأن القضايا المهمة التي تؤثر فينا جميعًا. تغلغل الوعي البيئي في كل أمة وقرية ومؤسسة ومجموعة سكانية في جميع أنحاء العالم.

لقد زاد وعينا بحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين، لا سيما قوة النساء وبروز صوتهن وريادتهن كمورد مهم في جميع جوانب المجتمع. يعيش أكثر من ثلثي سكان العالم في ظل شكل من أشكال الحكم الديمقراطي، مما يمنح نسبة غير مسبوقة من الجنس البشري –بمن فيهم النساء والملونون– صوتًا في تقرير مستقبلهم.

أظهرت طفرة الروحانيات في العالم أجمع الروح بشكل أوضح في الحياة اليومية، والعمل، والأسرة، والحديث عن الحكمة الأعظم في كل وسط تقريبًا يواجه فيه الناس طريقة العيش والوجود. ازداد عدد المجتمعات الدينية التي تدرك نعمة التنوع وتعلم احترام الأديان الأخرى. يحافظ تحالف الباتشاماما وغيره من المنظمات والجهات المتعاونة بشكل فعال على أراضي الغابات المطيرة الأولية وسكانها، ونتيجة لذلك بدأت الشعوب الأصلية في إظهار صوتها المحترم، وجلب الحكمة القديمة المتجذرة في قوانين عالم الطبيعة إلى مؤتمرات صناع القرار العالمي ومجالسهم.

ازدادت شعبية وقبول الطب البديل والطب التكميلي لدى الناس في الولايات المتحدة، وفتح الأبواب أمام اكتشافات جديدة مستوحاة من التقاليد والممارسات في العلاج في جميع أنحاء العالم. كذلك فإن العملات البديلة والتكميلية، مثل المقايضة والتبادل الاقتصادي المتطور للموارد، قد أتاحت للناس في العديد من البلدان التشارك مع بعضهم بعضًا خارج نظام النقد التقليدي.

أصبح مشروع مكافحة الجوع وفلسفته –التي سخر الناس منها قبل خمسة وعشرين عامًا– نموذجًا يُحتذى به للأعمال الخيرية المستنيرة والبرامج التي تدعم الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس، والتي تتيح للناس أن يخطُّوا مستقبلهم بأنفسهم. لقد انخفضت إحصاءات الجوع المأسوية لعام

1977 –التي كانت 41000 حالة وفاة في اليوم– إلى النصف، حيث صارت أقل من عشرين ألفًا في اليوم، ويستمر هذا الرقم في الانخفاض بثبات حتى مع زيادة الكثافة السكانية في العالم. ثمة تقدم يُحرَز.

شركات نفط كبيرة مثل «شيل» و«بريتش بتروليوم» أعادت تسمية نفسها لتصبح «شركات طاقة»، وتهدف إلى الخروج من مجال الوقود الأحفوري، وأن تعمل بالكامل في مجال الطاقة المتجددة خلال الأعوام الثلاثين القادمة.

تعمل منظمات ناشطة عالمية ناشئة، مثل: Free the Children، وYouth for Environmental Sanity، وPioneers of Change، ومئات المنظمات الأخرى على إلهام الشباب واستنفارهم في جميع أنحاء العالم لتقديم نوع جديد من الفكر والقيادة للتحدي الذي نواجهه.

كما قال بول راي وشيري أندرسون في كتابهما الفريد «The Cultural Creatives: How Fifty Million People Can Change the World»[1]؛ فقد تبنى ملايين البشر «نظرة جديدة كليًا إلى العالم.. وذلك تطور عظيم في حضارتنا. إن تغيير نظرتك إلى العالم يعني تغيير ما تظن أنه حقيقي، أن تغير قيمك وأولويات حياتك الأساسية، أن تغير أسلوب حياتك، والطريقة التي تنفق بها وقتك ومالك، أن تغير سبل العيش، وكيف تكسب ذلك المال أصلًا».

ما يجري ليس مجرد تغيير فحسب، إنما هو تحول، والتحول لا يولد من سياق الندرة، بل من سياق الإمكانات والمسؤولية والاكتفاء. نقلًا عن المفكر الأنطولوجي الحالم فيرنر إرهارد: «التحول لا ينفي ما حدث قبله، بل يكمله. إن خلق سياق لعالم يناسب الجميع ليس مجرد خطوة إلى الأمام في تاريخ البشرية، إنه السياق الذي من خلاله سيبدأ تاريخنا في أن يكون منطقيًّا».

في توليفة الحوار التي أقمناها مع قداسة الدالاي لاما، عندما تحدثنا عن العقبات والتحديات والفرص والاحتمالات التي تطرح نفسها في مختلف المجالات التي عمل فيها كل منا، أصبحت طبيعة عملنا –عمل جميع البشر في كل مكان بالعالم– واضحة لي. كما قال زميل لي؛ فإن مهمة عصرنا هي الإشراف على موت الأنظمة والهياكل القديمة غير المستدامة، وتوليد أنظمة

(1) المبدعون الثقافيون: كيف يغير خمسون مليون شخص العالم.

مستدامة وأساليب حياة جديدة. والإشراف على تلك الأنظمة غير المستدامة التي بلغت أقصى مداها لا يعني أن نقتلها، بل يعني أن نشهد تفككها بشيء من التعاطف والحب، ثم نقوم بدور القابلة التي تشهد بالتعاطف والحب ولادة وخلق الهياكل والأنظمة والسياقات والبنيات الجديدة، التي تدعم وتعزز أساليب الحياة المستدامة. تلك الأساليب تستند إلى الواقع، وإلى فهم عالم يحتوي ما يكفي، عالم يمكن لنا جميعًا فيه الازدهار، ليس على حساب بعضنا بعضًا، ولكن من خلال التعاون والتآزر. يمكن لعلاقتنا بالمال أن تكون النقطة التي يبدأ عندها هذا التحول لكل واحد منا. يمكننا استيعاب المال والروح في اللحظة نفسها، و«التعايش بفعالية» مع أموالنا، مثلما قال صديقي آلن سليفكا، المستثمر المحترف وفاعل الخير. «إنها مسألة دمج أصولنا الملموسة مع أصولنا غير الملموسة. ثمة فرصة لاستخدام المال بطريقة مختلفة تمامًا إن نحن تحلينا بالشجاعة الكافية لرؤية الإمكانات».

رحلتي مع المال والروح

في خدمة التزام أكبر من أي التزام قمت به يومًا، أخذتني رحلتي في جمع التبرعات والعمل النشط إلى ثقافات بعيدة وشاسعة، كما أخذتني أيضًا إلى عميق علاقتي مع الحياة. كانت ساحة علاقتي بالمال، وبالأشخاص الذين يتعاملون مع علاقتهم بالمال مكانًا أفهمني بعض الحقائق الكونية عن المال. لقد تأثرت بالصراع الذي نخوضه جميعًا مع المال. أرى الآن أن هذه الساحة التي نحتك فيها بوقائع الحياة الصعبة يمكن أن تكون هي المكان الذي ننمي فيه نوعًا من الممارسة الروحية التي نستخدم فيها المال الآتي إلينا كأداة تخدم نوايانا ونزاهتنا.

عندما قدمت تلك المساهمة الأولى في مشروع مكافحة الجوع أُعِيدَ ترتيب أولوياتي. بدأت حياتي المالية تتسق بشكل أكبر مع إحساسي العميق بذاتي وروحي، بدأت أشهد ازدهارًا لا علاقة له بكمية المال أو المكتسبات لدي. استطعت الشعور بهذا الاتساق في داخلي، وحققته من خلال استخدامي للمال. كانت تلك هي الموجة الفارقة بالنسبة إلي. كان مدهشًا جدًّا أن يكون المال –هذا الشيء الذي استخدمته ورأيت غيري يستخدمونه لإدامة المراكمة والاستنفاد والشعور بأهمية النفس من خلال الفن والنبيذ والسلع– هو نفسه

تنتهي به الحال وقد أصبح *الأداة ذاتها* التي استخدمتها في النهاية للتعبير عن حبي للناس ودعمي للحياة، ولمشاركة أعمق أحلامي. بمجرد أن أصبحت تلك الأداة –أو تلك العربة المدعوة المال– في اتساق مع روحي، بدأ الرخاء والفرح والاكتفاء في الازدهار. لم يكن السر في المال بقدر ما كان في استخدامه أداةً لخدمة الروح.

ذلك ممكن للجميع؛ ليس فقط على المستوى الشخصي، ولكن أيضًا على المستوى الأسري، المستوى الثقافي، مستوى المجتمع برمته. ولا يشترط امتلاك المزيد من المال كي نزدهر، بل إن اصطفافه خلف روحنا، خلف أعمق أحلامنا وأعلى تطلعاتنا، هو مصدر الازدهار؛ فالمال المستخدم بهذه الطريقة يربطنا بكلية الحياة، بدلًا من أن يصبح المال أداة تفرقنا عن بعضنا بعضًا. هذا النوع من الازدهار متاح للجميع، سواء كانوا أشخاصًا ذوي موارد وفيرة أو أشخاصًا ذوي موارد معقولة أو قليلة.

استخدام المال كتعبير مباشر عن أعمق شعور بالذات لدى المرء هو ممارسة قوية وساحرة. بيد أن إتقانها يأتي بالمران، وما زلت أروض نفسي. ما زلت أهدر المال؛ أشتري منتجات هي جزء من المشكلة لا الحل. أتحمس بسبب المال، ويخيب أملي بسبب المال، وأُحبَط وأخوض منازعات بشأن مسائل المال. لكني أيضًا أسير على الدرب، وأشارككم إياه لأنني أعتقد أنه مفيد ومهم في عصرنا. أرى أن المزيد والمزيد منا قد صاروا واعين بأعلى التزاماتنا، وقلقين بشأن الطريقة التي نعيش بها، وهذا الكتاب هو عرض للمساهمة في تلك العملية التي تجري في كل مكان حولنا الآن.

إن بلوغ السلام والإحساس به في الإقرار بوجود ما يكفي لا يعني التنصل من الاحتياجات الكبرى لملايين الناس، أو لشرائح كاملة في مجتمعنا. إنني أعمل كل يوم في ذاك العالم الوحشي، لكن الفهم الأساسي لوجود ما يكفي قد أتاح لي التعامل ليس فقط مع تلك التحديات والمشكلات، بل أيضًا مع حياتي، بطريق فتحت علاقات جديدة وإمكانية جديدة في كل منعطف.

لذلك أقدمه أسلوبًا يصلح لكل رجل وامرأة، ومتاحًا في كل يوم للتعامل مع ساحة المال تلك، ذاك التدفق الذي يجري في كل علاقة، سواء مع الأم كانت أو الأب، أو الزوج، أو الزوجة، أو العمات، أو أبناء العم، أو الأصدقاء، أو صاحب

العمل، أو الموظف. المال لا يغيب أبدًا في الواقع، ويمكننا استخدامه كمرآة لفهم من نحن وما الذي ندافع عنه.

أدعوكم أيضًا إلى عيش حياة أوسع، إلى رؤية أنه حينما ننظر إلى ما لدينا ونتخلى عن محاولة جمع المزيد تتسع حياتنا لما هو أكبر بكثير من مجرد «الاكتناز» و«الحيازة». كلنا يريد أكثر من حياة طيبة لنفسه فقط. كلنا يريد حياة طيبة للجميع، وعندما تدرك أن هناك ما يكفي، تتصل مع تلك الإمكانية، تصبح المحصلة الطبيعية لتغيير سياقك الذي تعيش فيه. لقد نجح ذلك معي، ورأيته ينجح مع آخرين كثر حول العالم.

اليرقة والفراشة

إن صراعنا مع المال، وكل التوترات والمخاوف والإسراف المصاحب له، له نظير في الطبيعة. تقول عالمة الأحياء التطورية إليزابيت ساهتوريس إن اليرقة في مرحلة معينة من دورة حياتها، تصبح شرهة، تستهلك بنهم كل شيء على مرمى البصر وفي متناول اليد. في هذه المرحلة من تطورها يمكنها أن تأكل مئات أضعاف وزنها، وكلما زاد استهلاكها صارت أكثر سمنة وبطئًا. وفي نفس تلك اللحظة من النمو المفرط، تبدأ *الخلايا التخيلية* بداخل اليرقة في الثوران. الخلايا التخيلية هي خلايا متخصصة، قليلة العدد، لكن عندما تتصل مع بعضها بعضًا تصبح المدير الجيني لتحول اليرقة. في مرحلة ما من حمى الأكل التي تمر بها اليرقة، تستهل الخلايا التخيلية العملية التي تتحول فيها اليرقة النهمة إلى «حساء مغذٍّ» تصنع منه الخلايا التخيلية معجزة الفراشة.

عندما سمعت لأول مرة استعارة الفراشة واليرقة تلك أحببتها، لأنها منحتني طريقة لرؤية العالم كما هو، ورؤية حالة الجشع الشره كمرحلة تطورية من نوع ما. إنها الاستعارة الأنسب لوصف عصرنا. عندما أنظر إلى الأفراد الملهمين والمخلصين والمبدعين الذين يعملون بشتى الطرق لإصلاح العالم وتغذيته في العائلات والمجتمعات والمؤسسات المستدامة في كل مكان على وجه الأرض، أرى الخلايا التخيلية لتحولنا. إنها نحن، أناس مثلي ومثلكم،

أناس شاركت قصصهم في هذا الكتاب، وأناس يبتكرون طرقًا جديدة، ويرون إمكانات جديدة.

قد يكون سقوط الهياكل غير المستدامة في التجارة والاقتصاد والسياسة والحكومة –انهيار شركات مثل: WorldCom، وEnron، وTyco في السنوات الأخيرة– وكشف الفساد المؤسسي هو بداية تحول اليرقة الشرهة إلى الحساء المغذي الذي منه ستنمو معجزة الفراشة.

في عالم الفوضى والصراع، العنف والانتقام، أعتقد أن هناك ملايين الناس يتحملون المسؤولية ليس فقط من أجل التغيير، ولكن أيضًا من أجل التحول، لخلق معجزة الفراشة. ربما نحن أقلية، ولكننا موجودون في كل مكان، ونتواصل مع بعضنا بعضًا في السنغال، وإثيوبيا، والإكوادور، وأفغانستان، في فرنسا، والسويد، واليابان، وألمانيا، في آيوا، وميتشيغان، ونيويورك، وكاليفورنيا، حتى في هوليوود؛ في الوظائف الباهرة، وفي عالم الروتين الذي يحافظ على استمرار كل شيء. نحن «التيار الخفي». نحن المديرون الجينيون لهذا النظام الحي. إذا استمررنا في التواصل مع بعضنا بعضًا، يمكننا أن نخلق من هذه اليرقة الشرهة معجزة الفراشة.

أتحداك أن تستخدم مالك، كل دولار، كل بنس، كل عملية شراء، كل سهم وكل سند للتعبير عن هذا التحول.

أتحداك أن تستخدم المال المتدفق في حياتك –وهو يتدفق في حياة الجميع بالمناسبة– للتعبير عن حقيقة الاكتفاء وسياقه.

أتحداك أن توجه مواردك التي تتدفق في حياتك نحو أعلى التزاماتك ومُثُلك؛ تلك الأشياء التي تدافع عنها.

أتحداك أن تعتبر المال صندوقًا مشتركًا نحن جميعًا مسؤولون عن استخدامه بطرق تغذينا وتمكننا، وتغذي وتمكن جميع أشكال الحياة وكوكبنا وكل الأجيال المقبلة.

أتحداك أن تسقي مالك بروحك، وأن تسمح له بالدفاع عن هويتك وما تحب، وعن قلبك، وعن كلمتك، وعن إنسانيتك.

عزيزي القارئ..

أشكرك كثيرًا كونك جزءًا من رحلتنا في **روح المال**، وعيشك حياة من الاكتفاء والكرم والثراء.

لمعرفة المزيد، والحصول على معلومات عن الهديّة، التي آمل أن تساعدك وتقوّيك على مواصلة هذه الطريق، يُرجى زيارتي على موقعي www.lynnetwist.com/freegift.

أتطلّع إلى التواصل معك.

تحياتي وتقديري..

لين



المراجع

Axelrod, Terry. *Raising More Money: A Step-by-Step Guide to Building Lifelong Donors.* To order, go to www.raisingmoremoney.com.

Chopra, Deepak. *Creating Affluence: Wealth Consciousness in the Field of All Possibilities.* Novato, Calif.: New World Library, October 1993.

Cooperrider, David L., Peter F. Sorensen, Jr., Diana Whitney, and Therese F. Yaeger, eds. *Appreciative Inquiry: Rethinking Human Organization Toward a Positive Theory of Change.* Champaign, Ill.: Stipes Publishing, September 1999.

Eisler, Riane. *The Chalice & the Blade: Our History, Our Future.* Harper San Francisco, October 1988.

—*The Power of Partnership: The Seven Relationships That Will Change Your Life.* Novato, Calif.: New World Library, March 2002.

—*Tomorrow's Children: A Blueprint for Partnership Education for the 21st Century.* Boulder, Colo.: Westview Press, August 2001.

Gary, Tracy, and Melissa Kohner. *Inspired Philanthropy: Your Step-by-Step Guide to Creating a Giving Plan, 2nd Edition.* San Francisco: Jossey-Bass, August 2002.

Hyde, Lewis. *The Gift: Imagination and the Erotic Life of Property.* New York: Vintage, March 1983.

Inspired Philanthropy: Creating a Giving Plan: A Workbook. San Francisco: (Kim Klein's Chardon Press) Jossey-Bass, September 1998.

Kinder, George. *The Seven Stages of Money Maturity: Understanding the Spirit and Value of Money in Your Life.* New York: Delacorte, April 2000.

Kiyosaki, Robert, and Sharon Lechter. *Rich Dad, Poor Dad: What the Rich Teach Their Kids About Money That the Poor and Middle Class Do Not!* New York: Warner, April 2000.

Lawson, Douglas M. *Give to Live: How Giving Can Change Your Life.* Alti Publishing, September 1991 (out of print.)

Lietaer, Bernard. *Community Currencies: A New Tool for the 21st Century.*

—*The Future of Money: Beyond Greed and Scarcity.* January 2001.

—, and Richard Douthwaite. *The Ecology of Money.* Resurgence Books, February 2000.

Meadows, Donella. *Global Citizen.* Island Press, May 1991.

—*Limits to Growth: A Report for the Club of Rome's Project on the Predicament of Mankind.* New American Library, reissue edition, October 1977.

—, et al. *Beyond the Limits: Confronting Global Collapse, Envisioning a Sustainable Future.* White River Junction, Vt.: Chelsea Green, August 1993.

Needleman, Jacob. *Money and the Meaning of Life.* New York: Doubleday, October 1991.

—, and Michael Toms. *Money, Money, Money: The Search for Wealth and the Pursuit of Happiness.* Carlsbad, Calif.: Hay House, June 1998 (book and audiotape).

Nemeth, Maria, Ph.D. *The Energy of Money: A Guide to Financial and Personal Fulfillment.* Ballantine Wellspring, April 2000.

—. *You & Money: A Guide to Personal Integrity and Financial Abundance.* Tzedakah Publications, April 1996.

—. *You and Money: Would It Be All Right with You If Life Got Easier?* Vildehiya, 1997.

O'Neil, Jesse. *The Golden Ghetto: The Psychology of Business.* Center City, Minn.: Hazelden, The Affluenza Project, December 1997.

Orman, Suze. *Courage to Be Rich: Creating a Life of Material and Spiritual Abundance.* New York: Riverhead (book and audiotape), March 1999.

—. *The 9 Steps to Financial Freedom: Practical and Spiritual Steps So You Can Stop Worrying.* New York: Crown (book and audiotape), December 2000.

Rich, Harvey L., M.D. *In the Moment: Celebrating the Everyday.* New York: Morrow/HarperCollins, November 2002.

Robin, Vicki, and Joe Dominguez. *Your Money or Your Life: Transforming Your Relationship with Money and Achieving Financial Independence.* New York: Penguin, September 1999.

Rosenberg, Claude. *Wealthy and Wise: How You and America Can Get the Most Out of Your Giving.* Boston: Little, Brown, September 1994.

Sahtouris, Elisabet. *A Walk Through Time: From Stardust to Us: The Evolution of Life on Earth.* Foundation for Global Community, John Wiley & Sons, October 1998.

Shore, William H. *The Cathedral Within: Transforming Your Life by Giving Something Back.* New York: Random House, November 2001.

Traband, Les. *Obtaining Your Financial Black Belt: Power and Control Over Your Money.* Buy Books, 2000.

"إنه الكتاب المناسب في الوقت المناسب. أوصي بقراءة هذا الكتاب لأي شخص يريد تغيير حياته والعالم".

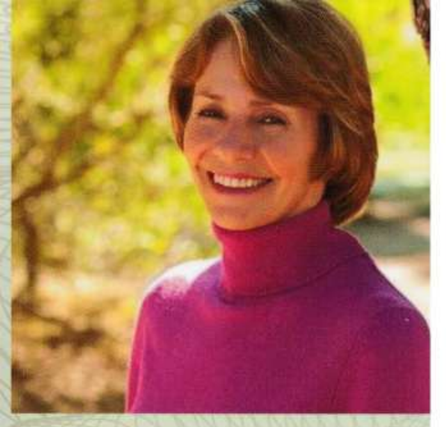
- ديباك شوبرا (طبيب وكاتب أمريكي)

"كُتب روح المال ببلاغة وشغف، ليصف لنا كيف يمكن للمال أن يكون العربة التي تقلّنا إلى أعلى مُثل الحياة والحب وتكشف لنا عن مغزى جديد في حياتنا. أوصي بقراءته بشدة".

- دين أورنيش، طبيب في معهد بحوث الطب الوقائي بكاليفورنيا

"تتمتع لين تويست بقدرة فريدة على إلقاء ضوء روحاني على موضوع المال. هذا الكتاب هو كهدية نادرة".

- ماريان ويليامسن، مؤلفة كتابَي Healingو A Return to Love the Soul of America

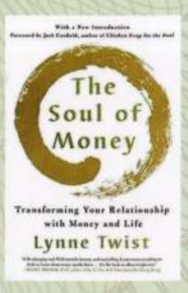


لين تويست

هي ناشطة عالمية مخضرمة وجامعة تبرعات وكاتبة أمريكية. كرّست تويست حياتها لأكثر من أربعين عامًا من أجل تخفيف حدة الفقر والقضاء على الجوع في العالم ودعم العدالة الاجتماعية والاستدامة البيئية. من عَملها مع الأم تيريزا في كلكتا إلى مخيمات اللاجئين في إثيوبيا والغابات المطيرة المهددة في الأمازون، كل هذا العمل الميداني أتاح لها فهمًا عميقًا للناس وعلاقتهم بالمال، وقادها اتساع معرفتها وخبرتها إلى تكوين رؤى عميقة حول النسيج الاجتماعي للعالم والمشهد التاريخي للعصر الذي نعيش فيه. حقق كتاب روح المال نجاحًا باهرًا، إذ بيعت منه قرابة المليون نسخة.

THE SOUL OF MONEY
روح المال

من خلال قصص شخصية ونصائح عملية، توضّح لنا الناشطة العالمية لين تويست الطريقة التي يمكننا بها استبدال تجربة الاكتفاء والحرية والغاية بمشاعر الندرة والذنب والعبء التي طالما أثقلت كواهلنا. تلقي تويست نظرة صريحة وناقدة على القوة الاستثنائية التي يستحوذ بها المال على حياتنا، وتأثيره العميق والمدمّر في أغلب الأحيان على صورتنا الذاتية وعلاقاتنا.

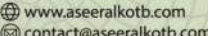


في مجتمع استهلاكي يمجد الصفقات والمبيعات والظمأ الذي لا يرتوي للمزيد كمقياس لقيمة الإنسان، يقترح علينا هذا الكتاب أن نأخذ خطوة للوراء، وأن نفحص علاقتنا بالمال، وأن نقيِّم مدى التزامنا بلُب القيم الإنسانية، وأن نغير هذه العلاقة، وبذلك نصحح حياتنا.

تصميم الغلاف كريم آدم






www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb